القسم الاول
القرآن دستور الأرض

المدينة النموذج
التربية والتأهيل الانساني

تمهيد

في مدينة القرآن، يشعر الإنسان – لأول مرة – بأنه قد انتصر على العدو الأبدي الذي أضله في السماء يوم كان ينعم في جنة الخلد وأضله في الأرض من أول يوم هبط فيه على أديمها، وإن كان ذلك حدث مع الأب في الجنة وهذا حدث مع الابن في الأرض، فإن الخطأ والخطيئة كانت واحدة ومصدرها واحداً، فعصيان آدم لربه كان بغواية الشيطان، وكذا حصل مع ابنه القاتل قابيل قاتل أخيه هابيل ولما يتخلص الأب من عقدة الذنب الأولى بعدُ، فكيف يلاقي الأب بهذه الجريمة وجه ربه الذي وعده بالتوبة والاستغفار.

وعليه، انسلَّ آدم من الدنيا انسلالاً.. تلاحقه جريمة الأرض بعد جريمة السماء الأولى، ولكنه الآن وبعد مخاض طويل لذريته وهم يتقلبون بين الجريمة والعقاب.. نعم – الآن فقط – يشعر بالانتصار الأبدي على عدوه اللدود، وعدو ذريته من بعده.

فبالقرآن انفرجت أسارير الكون، وانتصرت إرادة الحق، وهزمت إرادة الباطل، أن الباطل كان زهوقا.

وبدأ نموذج الإنسان الأمثل يضع أقدامه الأولى على أديم الكون.. يرسم خطّاً مثالياً للحياة الأمثل التي لا ننسى فيها أنه المنوط بالسيادة في الأرض دون غيره من الموجودات، وما الموجودات الأخرى إلاّ أدوات ووسائل الإنسان في سبيل الارتقاء إلى أعلى الغايات لا بل إلى الغاية المثلى المتمثلة بالإذعان والامتثال – إلى خالق الكون الذي وضع الغاية الكبرى في نص الآية: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ والإِنْسَ إلاّ لِيَعْبُدُونِ**﴾ [سورة الذاريات: ٥٦].

والعبادة التي وردت بالنص تعني أول ما تعني الإذعان والامتثال وهو الخطأ الذي وقع فيه آدم – الإنسان – حين لم يذعن لقول الحق، وإنما أذعن لقول الشيطان، من هنا اكتسب الشيطان لقب العدو التقليدي لآدم وذريته من بعده، وتبعه إلى الأرض يسير معه أينما سار،

ويذهب أينما ذهب.. لا بل هو قاعد له في كل صراط.. يلبس له ألف لبوس ولبوس.

أما وقد أُعلنت هزيمة الشيطان في مدينة القرآن فإنه يبدأ بكشف الأوراق والألاعيب التي لعبها في غواية الإنسان فيقول لما قضي الأمر، وباعترافه، المثبت بمستند القرآن: ﴿**إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ**﴾ وهكذا كان يزين للإنسان سوء أعماله، ومن ثم يتنصل منه عند الشدة.. فيقول:

﴿**وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِيَ فَلا تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنْفُسَكُم مَّا أَنا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ**﴾

ومن ثم يعلنها: ﴿**إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ**﴾ [سورة إبراهيم: ٢٣].

وهكذا تكون هزيمة الشيطان هي القضية الأولى التي جاءت بانتصار مدينة القرآن.. بعد قضية الامتثال والإذعان.

وأما القضية الأهم فهي قضية الحق والخُلق، وهذه القضية السلوكية من أهم القضايا التي انتصر بها القرآن حالَ مجيئه لأنها تمثل المحك العمليِّ بين الأفراد ومن ثمَّ إبراز السلوكيات المثالية للإنسان.. وكان ذلك بالقوانين والأطر الخالدة التي نادى بها القرآن وطبّقها على أفراده.

ومن بينها: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتقَاكُمْ**﴾ [سورة الحجرات: ١٣] فكان هذا هو المقياس الأمثل للسلوك القويم، حين التعامل بين الأفراد، وهذا ترتبت عليه مبادئ وأخلاقيات آدمية خالدة، من مثل لا فرق بين عربي وأعجمي إلاّ بالتقوى.. وكذا الأسود والأبيض في ميزان الحق سواء، والفقير والغني يتمم كلٌّ منهما الآخر.. الغني فقير حتى يؤخذ الحق منه.. وكذا الفقير غني حتى يؤخذ الحق له، في مدينة القرآن انتصرت حقوق الإنسان انتصاراً باهراً في البيت بين أفراده.. وفي المجتمع.. وفي المصالح، وساد العدل بين الناس وانتشرت المساواة وأخذ صاحب الحق حقه.. واعتدلت كفة الميزان وتساوت أطراف النزاع في كل شعاب الحياة.

ومدينة القرآن، هي نموذج دنيوي لمدينة الخلد الكبرى – الجنة – الفرق أن المدينة هنا تلبس، لا بل تحتفظ بثوبها المادي الظاهري الذي يحيط بالجوهر.. جوهر الإنسان وروحه وقيّمه، وأما هناك – في الجنة – فهو الانتصار الأعلى، لا بل هو الجزاء الأمثل على السلوك الأمثل، وبذا يكون الثمرة الحقيقية لعناصر السلوك في مدينة القرآن، وإن كانت هذه المدينة تنطوي على نماذج مصغرة لمثل تلك النماذج المثلى الخالدة في الجنة. من مثل الأمن والأمان والسعادة والاطمئنان ولكن لا بد من أن نقول: إن المدينة هنا مدينة عمل وزراعة وجهد

وعطاء، وهناك مدينة حصاد وثمار ونتائج.. هنا عطاء.. وهناك أخذ.. وهناك راحة.. وهنا تضحية من أجل التكفير.. وابتلاء من أجل الاختبار.

ولكن النجاح في هذه لا بدّ أن يتبعه نجاح في تلك ﴿**وَمَنْ كانَ في هذِهِ أعْمَى فَهُوَ في الآخِرَةِ أعْمَى وأضَلُّ سَبِيلاً**﴾[سورة الإسراء: ٧٢].

وهكذا يكون الجزاء في المدينة الأخرى مربوطاً بالعمل في هذه المدينة، وبذا تكون مدينة القرآن هي الأمثل في الدنيا ومثلها الجنة هي الأمثل في الآخرة في كل شيء حتى إن الرزق هناك لا ينقص ولا ينفد: ﴿**وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً**﴾[سورة مريم: ٦٢]. أي للإنسان الذي انتصر على شهوات نفسه وهواها وابتعد عن لغوها وآثامها وكذا فهي: ﴿لا يَسْمَعُونَ فيهَا لَغْواً وَلاَ تأْثِيماً﴾ ﴿**وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تذْلِيلاً**﴾[سورة الإنسان: ١٤].

ولكن هكذا جنة أو هكذا مدينة إن في الدنيا أو الآخرة كيف للإنسان أن يفوز بمثل هذا الفوز المبين.. ما مبادئه؟ وكيف هي فلسفة الوجود لديه؟ أهو راغب في الأولى أم راغب في الثانية أم أن الأولى برزخ أو جسر ليس إلاّ.. نحو الثانية؟ وإن كان قد حقق كلّ ذلك فكيف يتسنى له التخلص من مطالب الجسد والشهوة وهي التي كانت أساس الخطيئة الأولى والثانية.

كل ذلك لا بدّ أن نجيب عليه في الصفحات التالية.

فلسفة واهداف الوجود الإنساني

والجنة التي نتحدث عنها ليست إلاّ اسماً مستعاراً وهذا ليس غريباً،حتى في القرآن جاء في بعض آياته لفظ الجنة على بقعة أو جزء من الأرض ولكن هذا الجزء يتصف أو يزخر بالخير والنماء والخضرة كما ورد في النص القرآني الآتي:

﴿واضْرِبْ لَهُم مثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأحَدهمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً، كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِنْهُ شَيْئاً وَفَجَّرْنَا خِلاَلَهُمَا نَهْرَا﴾[سورة الكهف: ٣٢ و٣٣].

الحق، لم يكن قصدنا من هذا التنويه بشيء إلاّ لندرك أن لفظ الجنة ليس حكراً على الآخرة أو نهاية المطاف، فقد سميت ذلك أيضاً على الأرض، وقد حدث كما ورد في النص.. ولا نبالغ إذا قلنا إن الجنة في الآخرة قد تكون هي الأخرى في مكان أشبه ما يكون بالأرض يوم تبدل الأرض غير الأرض.. والسماء غير السماء.. كما ورد أيضاً بالنص القرآني، حين قال المولى عزّ وجلّ:

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ والسَّمَوَاتُ وَبَرزُواْ لِلَّهِ الْواحِدِ القَهَّارِ﴾ [سورة إبراهيم: ٤٨].

وهكذا تكون مدينة القرآن أنموذجاً حقيقياً لمدينة الجنة فقط الأولى حدثت وتحدث في الدنيا، والثانية ستحدث في الآخرة، وكما قلنا الأولى كدح متواصل وزراعة مستمرة، والثانية ثمار ناضجة وحصاد وفير.

من هذا ومن غيره نستطيع أن نتلمس طريقنا الحقيقية ومن خلال القرآن إلى الأهداف الحقيقية للوجود الإنساني برمته لا بل يضعنا وجهاً لوجه أمام فلسفة الوجود الإنساني، ومن ثمَّ نفهم العلاقات بين الموجودات المرتبطة بالوجود الإنساني، الأمر الذي يؤكد أن الوجود الإنساني ليس معزولاً عن الموجودات الأخرى، بل يرتبط بها ارتباطاً وثيقاً ويتقلب وفق معطيات الوجود الكلي.

والوجود الإنساني هو درجة من درجات الوجود تعلوه درجات ومن أسفله أيضاً

درجات أخرى نحن لا ندري ما يعلوه من درجات، وكل ما نعلمه أنه ليس في أعلى السلم من هذا الكون ولكن ما نعلمه هو تفوقه في درجات السلم في كثير من الأحيان ولا سيما على صعيد المخلوقات الحية أو غير الحية.

هذه الأمور من بديهيات التربية القرآنية، حتى تضع الإنسان ووجوده في الميزان الذي يستحق حتى لا ينأى، بجانبه عن مبدع الكون الذي بدأ الخلق فيضع نفسه بديلاً لهذا المبدع الحقيقي.. لا أحد يمنعه أن يتفوق ضمن الإطار الذي يعيش فيه، ولكنه إذا تطاول برأسه أكثر من أفق الكون أو سمائه.. هناك يصبح في ظلام ربما لا يدركه اليوم، ولكن سيدركه يوم يكشف عنه الغطاء، ساعتها يكون بصره حديداً، فيقول له المبدع الخالق عندها: ﴿**فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطاءَكَ فَبَصرُكَ الْيَوْمَ حَديدٌ**﴾ [سورة ق: ٢٢].

ومن بديهيات التربية القرآنية أيضاً.. أن الإنسان ما جاء إلى هذه الأرض أو هبط إليها إلاّ بعد تجربة كانت في السماء لأبيه بادئ ذي بدء، وعليه لا بدّ من أن يدرك أن حياته يجب أن تبقى تذكر تلك الحادثة أو هي علي علم مسبق بها، وهذا فقط حدث ويحدث في مدينة القرآن، فهو الذي رسم الدرب للإنسان من أين جاء؟ وكيف؟ ولماذا؟ وبهذه الاعتبارات تضعه ضمن الإطار القويم الذي يجب أن يسكله لأنه جاء من أجل ذلك.

وهذه الأمور، أيضاً، تكشف له الحجب، وتزيل من أمامه الظلمات، فيدرك أن الرب الأعلى قد اختبر أباه في السماء فلم ينجح في الاختبار، لذا أعطاه فرصة أخرى وفصله عن الملكوت السماوي، ليس انفصالاً كليًّا.. لا بل هو ما زال يعيش في إطار الملكوت الكلي.. وما هو إلاّ في غرفة نائية من غرف الكون أو لنقل في غرفة مجاورة، وفي أسوأ احتمال هو في الطابق الأسفل من مبنى الكون الكلي.. كمن – ولله المثل الأعلى – يفصل ابناً له بعد زواجه فيضعه في غرفة مجاورة من البيت يرقبه من بعيد، ولكن يعيش في استقلالية ضمن الأطر المادية البحتة وحال انحرافه عن المثل والقيم بحيث يتعرض البيت لِلمَسْ أو التشهير يردعه ويؤنبه أو يرسل له رسولاً يهديه إلى طريق الصواب..

لا بأس أن نقول: إن الأرض بمثابة الغرفة أو الحجرة المجاورة من غرف الكون المطلق ولا شك أن الكون مملوء بالموجودات لا بل الغرف والحجرات، وما الإنسان إلاّ أحد ساكني هذا الكون أو هو يسكن في إحدى غرفه، قد تكون أقل درجة أو درجات مثلاً، بسبب الخطيئة الأولى، وعليه يكون وضع الإنسان في الكون ليس إلاّ جزءاً من أجزاء الكون فهو إذاً ليس

السيد المطلق بحيث يدَّعي الألوهية لأنه مثلاً ذلل أدوات الكون في سبيل مصالحه، الحق هو يعمل في إطار الغرفة التي يعيش فيها، وربما نجح في إعمارها وإصلاحها له ولغيره من ذريته، ولكنه بعد لم يطلِّع على أشياء الغرف الأخرى من غرف الكون الواسع المطلق قد يجعل أحدهم – وهو يفكر بهذا القصور الذاتي – يفكر في تفوق الطبيعة كبديل، وأنها السيد المطلق.. ولكن في زمن القرآن الذي كشف الأوراق الحقيقية للكون المطلق يضاف إلى ذلك التطور العقلي للبشرية.. يجعل هذه التصورات في مهب الريح.. ريح الحقيقة الساطعة، أو العاصف.. ومن ثمَّ لا بدّ من أن تتهافت هذه النظريات أمام حقائق القرآن وآياته وحقائق الكون وآياته وهي تمر عبر تلافيف العقل، ومن ثمَّ تنتصر النظرية الجزئية للوجود الإنساني، القائمة على أن الكون الإنساني ما هو إلاّ غرفة في بناء ضخم.. أو بناء ضخم في مدينة، أو مدينة في دولة مترامية الأطراف، أو دولة في عالم رحيب، ومن ثمَّ إن لم يكن الأمر كذلك فَلِمَ تسوغ في نفسه فكرة التعددية في أجزاء دون أخرى من وحدات الكون؟ فهو ولا شك يؤمن بالوحدات الجزئية للكون ولكنه لا يؤمن بجزئية الكون أمام الكون المطلق لذا يعتبر الطبيعة هي الأصل أو هو كذلك.. ومن ثمَّ إما هو السيد أو الطبيعة هي الأخرى كذلك.. لكن يمكن أن نتساءل: لِمَ يحكم على أمور الخلق والاعتقاد بهذه التصورات المتهافتة التي لا تخدم إلاّ الزيغ والهوى.. ولا يعترف بأن ما يعرفه ليس إلاّ جزءاً أو أجزاء ضمن كلية مطلقة؟ لا بل كيف تصل سلطته إلى مناطق كونية هو لا يعرفها فيفرض عليها ألوهيته أو سلطته؟ لا، بل كيف يقول: إنه الوحيد في هذا الكون وهو بعد لا يعرف حيثيات الكون الأخرى؟.

أو لم يسمع بشريك آخر يشاركه في وحدته الكونية وهو شريكه من الجن؟؟ وكذا، كيف هو يحطّب حول فكرة الأرواح ويعتقد باستحضارها؟ فأين تسكن.. أو على الأقل هي ما زالت باقية بين ظهرانينا وإلاّ هو يؤمن ببعض الأمور ويكفر ببعضها الآخر.

بات واضحاً أن ما تعرفه العين ليس هو كل شيء.. ولا سيما بعد أن اتضحت أمور كثيرة في عالم الأرواح وعالم الأثير والصوت والضوء والإلكترون. هذا على الأقل في الغرفة التي نسكنها من غرف الكون، وهذه الأمور هي الأخرى معالم على طريق المعرفة الحقيقية للكون الذي نعيش فيه.. وهي تسير باتساق تام مع المدرسة القرآنية في التربية والعلوم والمعرفة.

العقل لا يستطيع وحده أن يعرف هذه الأمور ولكن العقل يكون في وضعه الطبيعي

المطلوب فيه أن يكون، حين يعمل في مدينة القرآن وتحت إشراف المعرفة القرآنية.. ساعتها يكون الإنسان كامل العقل والمعرفة، والخلق، لذا يكون الإنسان في مدينة القرآن أُنموذجاً مؤهلاً تأهيلاً حقيقيّاً للترفيع إلى الصف أو الدرجة الأعلى وهي درجة الجنة أو مدينتها.

والآن لِنَرَ كيف تقوم المدرسة في المدينة القرآنية بتأهيل ساكنيها، فأول هدف من أهدافها هو التأهيل لحياة أخرى بعد أن تحصي التراث الإنساني من بدايته مع الخالق أولاً ومع الأب الأول الذي ارتكب الخطيئة في مدينة السماء. وكيف السبيل إلى النجاة الحقيقية؟ وما الوسائل الحقيقية أيضاً للوصول؟ حتى يدرك الإنسان إدراكاً حقيقيّاً مواقع قدميه في هذا السبيل بعد أن خلط بين الوسيلة والغاية.. بين الدنيا والاخرة.

أهداف الوجود الإنساني

لكي نصل إلى المغزى الحقيقي لوجود الإنسان علينا أن نتأمل حيثيات ومكوّنات ذلك الوجود، ولما أثبت العقل قصوراً حقيقياً في هذا المجال، جاء القرآن ليكشف الأسرار الخفية وراء ذلك الوجود فكان ، بحق ، خير كتاب قادر على إكمال المعرفة حول ذلك الوجود، ولنتأمل ذلك الوجود بوحي وروح القرآن.

فحين كانت البداية، في السماء خلق الإنسان من طين «تراب» وبقي التراب تراباً إلى أن بث الله فيه من روحه بنفخة إحالته إلى كيان متغير عن الأول، إنه كيان الحياة والحيوية نفهم من ذلك أن الإنسان مكون من المادة ومن الروح وفي هذه الصفحات نركز على الجزء المادي وهو التراب الإنساني وعلاقة ذلك بتربة الكون والوجود....

الغريب في الأمر أن مادية الإنسان الترابية إذا هي حللت عن طريق العلم لوجدت أنها مكونة من مجموعة من المواد ، كالسيوم ، حديد .....الخ. وهي الحقيقة التي انتهى اليها العلم هذه الأيام.

وحين فطن الإنسان إلى هذه المعلومة جاء وحلل مادية التراب الأرضي فوجد أن تربة الأرض فيها من المواد ما في تربة الإنسان فكان الإنسان والأرض من طينة واحدة لذا أمكننا القول إن الإنسان والأرض هبطا معاً وكأن الأرض الهابطة «المفصولة عن السماء بمثابة الغذاء المادي الذي يجدد عطاؤه عبر الأزمان مادام الإنسان منكباً على تجديد ذلك العطاء بالجهد والعمل كما لو أن الإنسان يحمل زاده معه شأنه شأن البيضة التي تحمل زاد الكائن الحي وبذات الوقت أيضاً... كان الهبوط بمثابة العقاب على الذي جرى وحدث في السماء

حين تناول الإنسان الأول «آدم» من الشجرة الملعونة التي تحمل الخطايا والآثام ولا شك انها شجرة الشهوة والمادة التي يلهث وراءها إنسان الأرض وعليه فإن الهدف الأساسي للوجود الإنساني يمكن اشتقاقه من القصة الأولى للخلق، وأنى لإنسان فهم ذلك وإدراكه، بدون القرآن فحين يقول القرآن أن بداية الإنسان كانت من طين وبعد الطين والتراب روح الله أو نفخه من تلك الروح ، لا أعتقد أن احداً كائناً من كان هو قادرٌ على أن يصل إلى مثل هذه الحقيقة بدون ذلك الوحي القرآني بالغاً ما بلغ من النبوغ والعبقرية ومعرفة ذلك أمر ضروري حتى يكون عمل الإنسان يطال الجذور الروحية دون الإكتفاء بالإشباع المادي الآني الذي يستجيب لغرائز الإنسان وحسب.

وقصة مكوث آدم في جنة الخلد وسر الخروج منها هي أيضاً ليست من السهولة بمكان حتى يفهمها الإنسان وهو لا يملك من أمره شيئاً حتى وهو يضع الخطوات الأولى على عتبات أرض القمر، الأمر الذي لا سبيل إلى معرفته إلا بمعونة القرآن فقصة التكوين تلك تكشف عن الحقائق الأولى والضروريةلحياة الإنسان ، لأنها تؤدي بالتالي إلى معرفة المغزى الحقيقي للوجود الإنساني والمعرفة تلك تضع الأساسات الأولى الرادعة والوقائية من الزيغ والزلل والأنحراف.

فالإنسان كان مسروراً في الجنة ـ جنة الخلد ـ وحين سمع لهتاف الشهوة بإذن من الطاغية الأول «الشيطان»، حدث له ما حدث من العقاب، ولولا رحمة الله لحدث له اسوأ مما حدث، ولكن قيل له ولزوجه اهبطا إلى الأرض أنت وزوجك، للتكفير عن الخطأ الذي فعلته....

وها هو الآن يقع في نفس الخطأ....

نعم إنه نفس الخطأ الذي وقع في السماء والفرق أن ذاك إنسان واحد، وشيطان واحد وإغراء واحد أما هنا لكل إنسان شيطانه فيكثر هنا الناس وتكثر الشياطين والطغاة وحتى شجرة الخطأ والخطيئة هنا ألف شجرة وشجرة مثلها....

لا يعني ذلك أن الهدف للوجود الإنساني أن يتقوقع في صومعة ليتعبد حتى الموت من أجل التكفير عن ذلك الذنب لا ليس هذا هو القصد «لكن الهدف الذي جاء من أجله الإنسان «هو التكفير» والاختبار، والابتلاء أكثر ما يتم من خلال تجربته الحياتية وممارسته للوسائل المادية الأخرى فقد جاء معه بالامكانيات والوسائل التي تمكن الإنسان من الوصول

إلى الهدف الأسمى.... صحيح أن هناك نصفاً مادياً في الإنسان ولكن ذلك النصف هو لخدمة ذلك الهدف ليس إلا... فالإنسان يأكل ليعيش ولا يعيش ليأكل وقس على ذلك في أمور الحياة الأخرى أو متاعها.

والغذاء الذي يتغذى به الإنسان لا بد أن يطال نصفي الإنسان النصف المادي والنصف الروحي وحتى الأول ، المادي يخدم في النهاية النصف الثاني الذي يكمن فيه سر الوجود أو المغزى الحقيقي للوجود.

من هنا قال تعالى : ﴿**وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِن الدُّنيَا**.....﴾

والحقيقة أن تلك الحياة بمباهجها وأموالها وبنيانها وزخرفها ليس إلا فتنه واستدراجاً للإنسان حتى يتم الفرز بعد ذلك للصابرين القادرين على إعطاء كل ذي حق حقه فالجسد له حق والروح لها أيضاً حق ويبقى القانون المثالي هو التوازن بين هذا وذاك والاخذ بالاعتبار قوله تعالى :

﴿**وَمَا أُوتِيتُم مِنَ شَيءٍ فَمَتَـاعُ الحَيَاةِ الدُّنيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيرٌ وَأَبقَى أَفَلاَ تَعقِلُونَ**﴾ [القصص٦٠].

الإنسان وقضية التوحيد الالهي

تمهيد:

منذ نشأة الإنسان الأولى، على وجه الأرض، وهو متعلق ذاتياً، وبالفطرة بخيط «شعاع» نوراني يشده شداً نحو السماء وكان لذلك الشعاع وما يزال، اثراً ذاتياً وقوة رادعة في نفسه تجعله دائب التطلع والبحث عن مصدر ذلك الشعاع...

وأكثر ما يظهر فعل تلك القوة الذاتية وذاك الشعاع النوراني، في مرحلة التجربة الأولى «البدائية» من حياة الإنسان ... فالبشرية قبل مجيء الرسل كانت تعيش مرحلة تجربة واختبار فطرية مادياً وروحياً، وفي فترة التجربة تلك، لم يكن عليها حسيب أو رقيب ولا حتى مرشد أو مصلح... ورغم ذلك أدرك الإنسان وبالفطرة أنه لم يخلق عبثاً... دون خالق، ولا غرو....فجذور الإيمان وبذرته مبثوثة في ذاته منذ خلق.. حين نفخ الله فيه من روحه... وجذوة الإيمان تلك تشتد تاره..... وتخبو تارة أخرى... حسب علاقته ووعيه بظواهر الكون... التي تدور فيما حوله وإن لم تفعل ظواهر الكون فعلها لقصور الوعي الكوني لدى الإنسان فلا بد أن تفعل ذلك ظاهرة الموت.. التي لا يفلت من براثنها أحد... فهي تقرع الأسماع.... صباح مساء .... فتنبه الغافلين.....

نعم... كل ذلك كان كفيلاً بأن يبعث في نفس الإنسان القديم بذرة الإيمان والتوحيد من رقادها، لتكون قادرة على وأد نزعة الشر من نفسه، وهي في المهد، وبذا يكون هذا هو العقاب الذاتي... و لاشك، أن تلك الفترة «التجربة والاختبار» من حياة الإنسان والتي اعتمدت على حسه الديني وشعوره الذاتي.. كانت ولا شك خالية من المسئولية والالتزام... حتى أن الإنسان ... لم يتحمل فيها وزر أعماله ويظهر ذلك جلياً وواضحاً في قوله تعالى ﴿**وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَى نَبعَثَ رَسُولاً**﴾.

ولكأني بالجنس البشري ، في تلك الفترة ، هو أقرب ما يكون في مرحلة طفولة مبكرة، لا يترتب على أعماله ، فيها حساباً أو عقاباً.. إذ لم يصل بعد مرحلة تحمل الأعباء والتكاليف... ويفهم من ذلك أن حياة الجنس البشري المادية والروحية تطورت بالتدريج

ومرت بمراحل وكل مرحلة اتسمت بملامح وسمات خاصة بها.

الأقوام التي عبدت الأصنام

ظهرت هذه العبادة أكثر ما ظهرت في المرحلة الأولى من حياة الإنسان حين كانت حياته تتسم بالبدائية والبساطة وقصور التفكير ولكنها ازدهرت وانتعشت أكثر فأكثر في المرحلة الثانية وهي المرحلة المادية من حياة الإنسان حين كانت حياة الإنسان مطبوعة بطابع مادي بحت فلجأ إليها بالعبادة والتقرب فإن لم تكن هي الآلهة فلعلها تقربه زلفى إلى الله ولكن هيهات هيهات...

أما فكرة الصنم:

ورد في تفسير الجواهر لجوهري طنطاوي ما مفاده:

منهم من قال إن فكرة الصنم جاءت من تمثال بني لشيخ جليل أو لبطل من الأبطال أو لكوكب من الكواكب... الخ وإن تلك الرموز لها علاقة بالخالق تمكنها تلك العلاقة من التوسط للمتقربين منها والمتضرعين لها وحتى العاكفين والساجدين لها... وإن كانت هذه الفكرة أصلها عبادة الله إلا أنها مع مضي الأجيال... تنسى الأجيال الجديدة أن تلك الرموز ليست إلا تقرباً لله فينسون الله الحقيقي ويستمرون على عبادة التماثيل والأصنام الموجودة أمامهم ليس إلا.... فتندثر الحقيقة الكبرى التي جاءت بها تلك الرموز .... ويبقى الناس عاكفين على حجارة وأصنام وتماثيل لا تضر ولا تنفع... ويرث الأولاد والأبناء عن آباءهم تلك العبادات جيلاً بعد جيل... ولما يأتهم رسول من الرسل يصعب عليهم ترك ما كان آباؤهم يعبدون أما الأصنام التي ورد ذكرها في القرآن نورد بعضاً منها على سبيل المثال لا الحصر...

قال تعالى: ﴿**وَقَالُواْ لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُم وَلاَ تَذَرُنَّ وَدّاً ولاَ سُوَاعاً وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسراً**﴾ [نوح آية ٢٣]

وقال أيضاً ﴿**اتَّبَعَواْ مَن لَّم يَزِدهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَاراً**﴾ [سورة نوح٢١] ، تلك الأصنام التي عبدها قوم نوح ، وحتى لما أتاهم نوح عليه السلام طالباً منهم العودة عن تلك العبادة والتوجه إلى عبادة الله عصوه واتبعوا رؤساءهم من ذوي المال والجاه والسلطان الذين طالبوهم بالبقاء على عهد الأوثان و الأصنام المذكورة آنفاً وقيل حسب ما ورد في تفسير الجواهر «جوهري طنطاوي» إن الصنم «ود كان بدومة الجندل لكلب» ، «وسواع لبني

هذيل» ، «ويغوث لبني مذحج» «ويعوق لهمدان» «ونسر بأرض حمير لذي الكلاع» ويلاحظ أنه لا اتفاق على إله واحد مما أدى إلى تشتيت المجتمع إلى عدة قبائل وهو ما نراه...

وأما الأصنام الأخرى التي وردت في القرآن فكانت في زمن إبراهيم .

قال تعالى ﴿**وَإِذ قَالَ إِبرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَومكَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ**﴾ [الانعام ٧٤].

وقال أيضاً ﴿**إِذ قَالَ لأَبِيهِ وَقَومِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ التِّي أَنتُم لَهَا عَاكِفُونَ**﴾ ويظهر من تبريرهم لتلك الأوثان أنهم يقلدون آباءهم في عبادتها.

﴿**قَالُواْ وَجدنَا آبَاءنَا لَهاَ عَابِدِينَ**﴾ [الأنبياء ٥٣]

وحتى في زمن موسى ورد ذكر الأصنام إلى جانب تقديس العجل الذهبي وهو ما سنورده بشرح مفصل... وأما بخصوص الأصنام : ﴿**وَجَاوَزْنا بِبَنِي إِسرَائِيلَ البَحْرَ فأَتَواْ عَلَى قَومٍ يَعكُفُونَ عَلَى أَصنَامٍ لَّهُم قَالُواْ يَا مُوسَى إِجْعَل لَّنَا إِلَهاً كَمَا لَهُم آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُم قَومٌ تَجْهَلُونَ**﴾ [الأعراف آية ١٣٨]. ، أوليس ذلك أكبر دليل على قصور الفهم والإغراق في المادية، ناهيك عن التقليد الأعمى...؟؟

وأما في زمن الرسول (ص) فقد ورد ذكر مجموعة من الأصنام في سورة النجم [١٩-٢٠] قال تعالى : ﴿**أَفَرَأَيتُمُ اللاَّتَ وَالعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخرَى**﴾ ومن هذا التعدد نلاحظ أن الأصنام وعبادتها لا تستند إلى عقل بل إلى أهواء ونزوات متعددة توجهها ولا شك ، قوى الزيف ،والتضليل معتمدة على أساطير وخرافات هدفها تمزيق المجتمع إلى قبائل إذ أن هذه الأصنام المذكورة وغيرها كانت موزعة على عدة قبائل وفي أماكن متعددة فيقال أن «اللات» كانت بالطائف لثقيف ... «ومناة» في يثرب للخزرج ... «والعزى» لكنانة بنواحي مكة.... «وأساف ونائله» على الصفا والمروه حسب ما ورد في تفسير الجواهر لجوهري طنطاوي... وهكذا نرى أن سيرة الأصنام تكررت وبنفس الكيفية عبر جميع مراحل الحياة باستثناء الأسماء.. أما الذي يجب أن نفهمه عن عبادة الأصنام هو : **أولاً** : أن قوى الاستغلال والشر كانت لها المصلحة الحقيقيةفي بقاء تلك العبادات لاستغفال الفقراء والعبيد والمحتاجين .

ثانياً: أنها كانت وسيلة للتقرب إلى الله أي بمثابة الوسيط بين الله والعبد وهو ما يجب

أن نفهمه ونحن نرنو إلى صحوة إسلامية إذ لا بد من إزاحة الوسطاء من بين العبد وربه ومنحه كامل الحرية وهو يعانق ذلك الرب وما الوسطاء إلا قيود وأغلال تؤدي بالإنسان إلى الوثنية وهو ما نحن عليه اليوم .

ثالثاً: إن عبادة الأصنام تتكيء كثيراً على التصور المادي الحسي للإلوهيه وهو ما يجب نبذه لدرجة أن الكثرة الكثيرة من تلك الأصنام كانت تباع وتشترى وتستجلب من مكان لآخر لاستخدامها في استغلال عقول البشر وزرع بذور الخوف في نفوس البسطاء والسذج ليستطيع الزعماء والمستكبرون من ممارسة تسلطهم على رقاب العباد... وها هو عمرو، بن لحي يستجلب الصنم المعروف بهبل من البلقاء ووضعه عند البيت الحرام ومن ثم يطلب من الناس عبادة ذلك الصنم.. وذلك أول ملك سابور ذي الأكتاف ورد في تفسير الجواهر لجوهري طنطاوي.

عبادة الحيوان

أما السبيل الآخر السيء والمنحرف الذي سلكه الإنسان وهو في طريق البحث عن الله فهو عبادة الحيوان ، ويبدو أن لهذا الإتجاه علاقة بذهنية الإنسان وإتجاهه المادي في كل نواحي الحياة ، إذ قلما يستغل عقله في مثل هذه الامور إلا حين تصعقه الملمات وتطحنه مساويء الزمن أو تخذله مظاهر الكون أو يستبد به أخوه الإنسان ... وحتى إن فعل، يكون عادة متأثراً بعوامل الضغط الاجتماعية المحيطة به وللحقيقة إن لجوء الإنسان لهذه العبادة ربما يكون لتأخر الإنسان الفكري وإن كان لا يمنع أن نعزو ذلك إلى الإغراق في المادية بحيث تطمس كل معنى روحي لوجود الإنسان .

لا نريد أن نطيل التخمين فما نحن هنا إلا ذاكرين ما الذي حدث للإنسان وهو يبحث عن الله وكيف كانت طريقه وما هي وسائله لنفرق بين الحق والباطل.... وكل اعمادنا في هذا الصدد على القرآن ، إذ لا يهمنا الذي لا يهم القرآن إخبارنا به ، فالأمم السابقة على مجيء الرسل ، لم تنل الاهتمام من القرآن وإلا لذكرها وهو ما يلفت الأنتباه إلى أنها خارجة من طائلة العقاب والمسؤولية.

وبناءً على ذلك نحن سائرون، فالذي حدث في عبادة الحيوان هو أن الفترة التي عبد فيها العجل مثلاً كانت فترة رواج وازدهار ، مادي لهذا الحيوان الكبير وعبدته الأقوام التي سبقت مجيء موسى... عبدوه في مصر... وقدّسوه، وإذا مات حنطوه ودفنوه في مقابر

خاصة ولما جاء موسى أيضاً عبده اليهودحتى وهو بينهم وأضافوا على عبادته كيفية جديدة وتلك الكيفية التي وردت في القرآن وهي «العجل الذهبي الذي صاغه السامري وقد ورد النص على ذلك في القرآن.

قال تعالى: ﴿ **وإِذَ وَاعَدنا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةَ ثُمَّ أَتَّخَذتُمُ العِجلَ مِنْ بَعْدِهِ وأَنتُم ظَالِمُونَ**﴾ [البقرة٥١].

وقال: ﴿**واتَّخَذَ قَومُ مُوسَى مِنْ بَعدِهِ مِنْ حُلِيِّهِم عِجلاً جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ ألم يَرَواْ أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُم وَلاَ يَهدِيهِم سَبِيلاً**... ﴾ [الأعراف١٤٨].

وقال أيضاً : ﴿**فَأخرَجَ لهَمُ عِجلاً جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَذَا إِلَهكُمُ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ أَفَلاَ يَرَوَنَ أَلاَّ يَرجِعُ إِلَيهِم قَولاً وَلاَ يَملِكُ لَهُم ضَرّاً وَلاَ نَفعاً**﴾ [طه ٨٨ – ٨٩].

الغريب أن رسولهم بينهم ، يرشدهم سواء السبيل ، ويأبوا إلا أن يعبدوا العجل المصنوع من ذهب... والذي لا يملك ضراً ولا نفعاً ولا يملك سمعاً أو بصراً....

إن دل هذا على شيء فإنما يدل على نظرتهم المادية التي طمست على قلوبهم وأفسدت عليهم عقولهم حتى عبدوا إلهاً لا يضر ولا ينفع ولا يبصر ولا يسمع فقط لأنه مصنوع من ذهب وهذا التصور الحسي للالوهية ما لبث اليهود عاكفين عليه حتى ضاقت بهم الأنبياء ذرعاً ... والغريب في الأمر أن سماتهم تلك ما زالت بقاياها إن لم يكن كلها تستشري في ثنايا المجتمع اليهودي حتى اليوم.

عبادة الكواكب أو النجوم

ولم يتوقف الإنسان في عبادته وهو يضل الطريق على عبادة الأصنام والتماثيل أوعبادة الحيوان بل ترقى في سلم العبادة درجة أعلى ربما كانت أكثر تطوراً وهي عبادة الكواكب والنجوم أو ظواهر الكون ، وربما كان ذلك الإتجاه مرده إلى أن تلك الكواكب أكبر في الحجم وأكثرفي النفع وأعظم في الصنع.

ولو أن البعض أرجعها ، وهو ماورد في تفسير الجواهر لجوهري طنطاوي «إلى أن الله خلق ملائكة والملائكة تسيّر الكواكب، والملائكة تشفع للإنسان عند الله لذا عبدو الملائكة ، ومن ثم الكواكب ، للتقرب إلى الملائكة وصوروا لها الصور والتماثيل ولما طال عليهم الأمد عبدوا الصور والتماثيل ونسوا الملائكة والكواكب» .

وهكذا كانت الملائكة في نظرهم وسيطاً وشفيعاً بين العبد وخالقه إذ عبدوها وقدسوها

ومن ثم قدسوا الكواكب تقرباً للملائكة للتقرب إلى الله وهذا التصور هو نفسه الذي يجري مع أولئك الذين يقدسون الأنبياء والأولياء للتقرب إلى الله ومن ثم يبنون لهم القبور أو التماثيل فيعبدوها حتى تصبح أصناماً جيلاً بعد جيل..

ولا نريد أن نتوه في هذا المضمار لئلا تفصلنا تلك الأحاديث عن حقيقة الذي جرى بخصوص عبادة الكواكب والتي ورد نصها في القرآن .

قال تعالى: ﴿**وَجَدتُّهَا وَقَومَها يَسجُدُونَ لِلشَّمسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيطَانُ أَعْمَالَهُم**﴾ [النمل٢٤] ويستشف من الآية، طبعاً أن تلك العبادة كفر وإلحاد وهي من عمل الشيطان ، ووردت هذه الآية بخصوص قوم سبأ والذي يجب أن يعرفه الجميع أن ظواهر الكون هي من صنع الله تند عن عظمته وجلال قدرته وأنها من مخلوقات الله خلقها للإنسان ليسخرها لخدمته لا ليعبدها....

مراحل التكوين الديني للجنس البشري

أما المراحل التي يمكن أن نميزها أثناء تطور حياة الجنس البشري فهي أربع

أولاً: المرحلة الفطرية «الذاتية» أو مرحلة النشوء والتكون والتي أسماها احمد شلبي «طفولة الجنس البشري» واتسمت هذه المرحلة ، التي عرفنا بعضاً من خصائصها سابقاً ، بالبساطة والبدائية وكانت أقرب إلى التكون والنشوء منها إلى التطور أو التقدم في حياة الإنسان وارتباط الإنسان ، فيها ، كان وطيداً مع الطبيعة ، لا بل جل وقته أو أكثره أفناه في أحضانها تارة يصطاد حيواناتها وأخرى يرعى أغنامها الأليفة كل ذلك ، من أجل أن يؤمن قوت يومه وكساء جلده لا أكثر ولا أقل، لذا كانت خطاياه تكاد لا تذكر وخاصة مع أخيه الإنسان إذ كيف تأت الخطايا وصور الاستغلال لم تتشكل بعد، تلك الصور التي تضج بها المجتمعات المادية من بيع وشراء وعمولة وسمسرة وربا... الخ والتي يترتب على وجودها رذائل لاحدود لها من كذب وخيانة ونفاق في المعاملة وهوس لا حدود له في البحث عن المال وجمعه بصور مشروعة وغير مشروعة، ولما كانت تلك المجتمعات «القديمة» هذا هو حالها البدائي والخالي من كل وسائل الترف واللهو والعربده أو الجري بلا حدود وراء الشهوات بأنواعها فإنها ولا شك لم تكن بحاجة إلى الرسل والمصلحين لتعديل ما ينحرف أو يزيغ من سلوكها... هذا لا يعني أن الأنحراف والرذيلة كانتا منعدمتين في المجتمع البدائي... كلا لم يكن هذا قصدنا.. ولكن إذا أخذنا، بالإعتبار عدم خطورة مثل تلك

الأخطاء مع بداية الحياة وبساطة الإنسان في تلك المرحلة فإن إعتماده على الفيض الفطري والوازع الذاتي الذي بذرته متأصلة في ذات الإنسان يضاف إليهما إيحاء الطبيعة والكون نعم اعتماده على مثل تلك الامكانيات الذاتية الوقائية منها أو الرادعة لأحسن كفيل لضمان مسيرة الإنسان ولا سيما دون مبشرين أو منذرين ولا حتى مصلحين ولا أغالي إذا قلت بصدد هذه المرحلة أنه ما دام العمل الشريف وكسب الرزق من صنوف العباده... كما هو واضح في رسالة القرآن... فلا بد إذن أن نطبع اعماله الشاقة وبحثه المتواصل عن قوته وقوت أولاده، نعم لا بد أن نطبع ذلك بطابع العبادة الذاتية.

ثانياً: المرحلة المادية.. والتي أسماها أحمد شلبي «صبا الجنس البشري» «مقارنة الاديان» وبدأت هذه المرحلة مع بداية رسالة نوح وإبراهيم حتى بـزوغ رسالة عيسى وملامح هذه المرحلة فيها بعض من ملامح تلك المرحلة كيف لا والتطور الإنساني يشكله تطوره الوجداني والعقلي ناهيك عن تطوره المادي وكل ذلك لا يتأتى دفعة واحده، ولكن يتم ذلك بالتدريج، لا بل خطوة خطوة ومرحلة بعد أخرى ولكن سمة هذه المرحلة يغلب عليها التطور المادي، غير المتوازن، مع التطور الروحي فبينما ازداد إستغلال الإنسان للأرض والثروات الأخرى مما زاد في هيمنته على وسائل الحياة المادية، الذي أدى بالتالي إلى صراع طبقي عنيف استتبع ظهورطبقات مختلفة وغير متوازنة فظهرت طبقة الاقطاع ورأس المال وطبقة العبيد والمستغلين الذين يقضون أغلب أوقاتهم في مزارع وإقطاعيات الأغنياء... كل ذلك افرز فروقات بين الناس زادت على أثرها المظالم والشكاوي وساءت فيها أحوال الفقراء والكادحين مما استدعى إلى مجيء الرسل والمصلحين والأنبياء ليعيدوا الناس إلى رشدهم ليحاسبوا أنفسهم قبل أن يأتي يوم لا ريب فيه، حيث سيعرض الناس للحساب والعقاب أمام خالقهم.

وكانت تعاليم الرسل في هذه الحقبة «المرحلة» بسيطة خالية من التعقيدات أو التفاصيل وكان جل تركيزها على التوحيد وترك عبادة الأوثان التي ازدهرت في تلك الحقبة حتى أخذت أشكالاً ورموزاً مختلفة ومتنوعة بتنوع المصالح والعادات والتقاليد والقبائل... فمنهم الذي رأى إلهه موجوداً إما في تمثال أو حجر أو كوكب أو عجل «كما فعل اليهود » إبان رسالة موسى ورغم أن دعوة الرسل في هذه المرحلة كانت بسيطة تلائم بساطة الناس وعقولهم إلا أنها أوردت بعض التكاليف العامة التي تخاطب الجسد، إذ نهت عن التطفيف والغش وبخس الميزان وكل ذلك جاء في ألواح أو في صحف بسيطة كما في صحف

إبراهيم ورسالة شعيب وكان أوج هذه المرحلة هو الذي حدث بين سيدنا موسى مع فرعون وقارون حيث تحالفت قوى الشر والاستغلال لمحاربة تلك الدعوة وكان قمتها أن قال فرعون أنا ربكم الأعلى وساعده على ذلك الطغيان قوة المال المتمثلة بخزائن قارون وغيرها من قوى السحر والشعوذة.

ثالثاً: المرحلة الروحية والتي أسماها أحمد شلبي «شباب الجنس البشري»

وتبدأ هذه المرحلة مع بداية رسالة عيسى وحتى رسالة محمد صلى الله عليه وسلم جاءت هذه المرحلة على أنقاض المرحلة السابقة وتطويراً لها لتلائم التطور الإنساني الذي خطا مرحلة أخرى وسيما من الناحية العقلية والوجدانية وكان يغلب على هذه المرحلة الإتجاه الروحي فكانت رسالة عيسى« دعوة روحية لتخلص البشرية من ربقة العبودية والإقطاع والإستغلال والإقبال المهووس على المادة وكثيراً ما كان عيسى عليه السلام يحذر الأغنياء بقوله:

«يعسر أن يدخل غني ملكوت السموات ، وأقول لكم إن مرور جمل في ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غني ملكوت الله» إنجيل متى الإصحاح ١٦ فقرة ٢٣ وهذا الغلو في الروحانية كان بمثابة ردة فعل المرحلة المادية السابقة والتي كان على قمتها طغيان فرعون وقارون وجبروتهما....

وبالمقابل كانت تدعو لتقوية العلاقة بين الإنسان وخالقه إضافة لتطهير الروح من دنس المادة وطغيان الشهوة ويلاحظ في هذه المرحلة المتطورة من حياة الجنس البشري الدينية ظهور الكتب السماوية مثل الإنجيل الذي جاء بكثير من التفاصيل والتشريعات كأن يقول مثلاً «لا يقتل الآباء عن الأولاد ولا يقتل الأولاد عن الآباء كل إنسان بخطيئته يقتل» الإصحاح ٣٤ فقرة ١٦ ولكن كانت تخلو من التشريعات السياسية والاقتصادية وإن كانت السمة الأساسية لهذه المرحلة هو التطهير الروحي للإنسان بما تفرضه من الزهد في الدنيا أو التسامح الذي يصل بالإنسان لإدارة خده الأيسر لمن لطم خده الأيمن متنازلاً عن حقه في المعاقبة ـ بالمثل.

إلا أن هذه المرحلة ، أيضاً لم تخل من الأنحرافات والضلالات بل بالعكس فانها لم تلق القبول من الكثرة الكثيرة من الناس سيما أصحاب الإقطاعيات والأموال والمنغمسون في الشهوات فحاربوها كما حاربوا غيرها من الرسالات بل حرّفوا الكتب التي جاءت للهداية

والإرشاد ودخلت الإنسانية بعد ذلك في ظلام دامس انتصرت فيها المادة والشهوة على مباديء الزهد والتسامح فتحولت الإنسانية من جديد إلى عصر الوثنية المادية مما استلزم نزول الرسالة الختامية الكاملة التشريعات المادية منها والروحية وذلك بعد مخاض طويل....

رابعاً : مرحلة النضوج والاكتمال أو «رجولة الجنس البشري» كما يرى الدكتور احمد شلبي إذ بعد أن تطورت الإنسانية، مادياً وفكرياً ، واتسعت مداركها وزادت تجربتها الحياتيه... وتنوعت مشاكلها... بعد ذلك كله جاءت مرحلة النضوج والكمال... وهي المرحلة التي تمتد من نزول القرآن وحتى يوم يبعثون...

إذ بنزول القرآن... كان القول الفصل... وكانت الدعوة الشاملة لكل الأمم.... واصلاً ما وصلت من النبوغ والعبقرية.... أو التقدم والبناء فانها سترى أن القرآن يخاطبها.. حين تكون في محراب العلم وبنفس القدر وهي في محراب العبادة، ستشعر الإنسانية بالاطمئنان والأمان حين يخاطبها القرآن... لأنه يخاطب فيها ، الجسد كما يخاطب الروح.. يلازمها في مسيرتها... حين تتوه... وحين تصحو... فرسالة القرآن فوق الزمان.. وفوق المكان.. لأنها الكمال والتمام ﴿**اليَومَ أكْمَلتُ لَكُم دِينَكُم وَأتْمَمتُ عَلَيْكُم نِعمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإسلاَمَ دِيناً**...﴾ [لمائدة٣] إنه الكتاب، الذي قال إن الإنسان مفطور على التوحيد بالله... مربوط بحبل الله المتين وأي انفصام بين الإنسان وخالقه.. مهما كان هذا الأنفصام... قوياً أو ضعيفاً... فانه ولا شك، يبعد الإنسان عن نبع حياته، ويبعده أيضاً عن الضوء والنور الإلهي الذي يضيء له الطريق في متاهات الظلام.. إنه الكتاب الذي أوضح صوّر الوثنية والأوثان... بأحسن ما يكون التوضيح.. حتى لا نضل كما ضلت الأمم السابقة ... قال إن عبادة الأصنام بأشكالها... الجميل منها والرديء حتى ولو كانت تقربا إلى الله.. فانها شرك ووثنية.. وتقديس المال وما يتبعها من صور وأشكال المادة الأخرى واللهث وراءها كل ساعات النهار وحتى ساعات الليل المتأخرة كل تلك، أيضاً وثنية... ومخافة النار أو الشمس أو الكواكب والتقرب اليهما بالصلاة والدعاء أيضاً وثنية وأما وثنية العصر الحديث، من تقديس الأبطال والسلاطين والحكام يضاف إلى ذلك كله تقديس الأولياء والأحبار والرهبان وكل الوسطاء بين العبد وربه نعم كل أولئك صور وأشكال الوثنية في العصر الحديث.. وحتى الذين يقدسون الأنبياء أو يحبونهم كحب الله أو حتى يخشونهم كخشية الله.. نعم كل هؤلاء وأولئك ينضوون تحت عبادة الأوثان أو الأنداد «ولا تجعلوا لله انداداً»

قضية التوحيد في مدينة القرآن

في مدينة القرآن لا بدّ من أن يأخذ الإنسان الأطر الأساسية للضمير الإنساني الذي يجب أن يكون.. ليكون مؤهلاً لاجتياز البرزخ المادي الدنيوي على أحسن ما يرام، لأن امتحان القبول للآخرة أمر شاق ويحتاج إلى مؤهلات لا تقدر عليها إلاّ التربية القرآنية في مدينة القرآن.. وأولى هذه الأساسات هي الأساسات العقيدية التي تنطوي على إيضاح فكرة الألوهية ومن ثمّ تضع الإنسان في الموضع الصحيح الذي يجب أن يوضع فيه، ومن ثَمّ معرفة القدرات الحقيقية لكل أطراف الوجود.. ومن هو في أعلى درجاتها.. لا بل من هو الأجدر بامتلاك الكون والهيمنة على كل أشيائه.. وهذه هي الأساسات الأولى للضمير الإنساني المؤمن، ولا أحد يستطيع أن يبرز هذه الأمور بالشكل الصحيح إلاّ الدستور القرآني. إذا أخذنا بالعلم أن عهد الرسل والأنبياء قد انقضى.. لذا يكون الدستور القرآني هو الوحيد الذي يستطيع أن يوجه الإنسان التوجيه السليم، بهذا الصدد، ويضعه أمام مسؤولياته العقيدية بعد أن اكتملت الأديان وانقطع الوحي.. وحي السماء عن الأرض.. فلم يبق للإنسان إلاّ أن يدخل المدرسة القرآنية في مدينة القرآن.. وهذه وإن كانت مَهَمَّة صعبةً إلاّ أنها جاءت في وقت تواءمت فيه ظروف الإنسان العقلية والدينية، وعليه فإن القرآن يضع للإنسان الأطر الحقيقية للوصول الحقيقي إلى فكرة الألوهية وهذه الأطر أو المرتكزات هي القرآن نفسه كدستور يهدي ولا يضل.. يوحّد ولا يفرّق.. فيه القول الفصل.. وليس بالهزل، ومن ثَمّ العقل الذي وصل إلى مرحلة متقدمة من النضج وهو يتعامل مع الطرف الثالث من المعادلة بإيجابية لم يسبق لها مثيل وهو الكون.. فبالقرآن.. وبالعقل.. وبالكون يستطيع الإنسان أن يصل إلى الحقيقة الإلهية بكل صراحة ووضوح بحيث لا يحتاج إلى رسل أو أنبياء لذا قال المولى عزّ وجل في القرآن: ﴿**ما كانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ من رِجَالِكُمْ ولَكِن رسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ**﴾ [سورة الأحزاب: ٤٠].

وفي زمنه وعلى يديه اكتملت الأديان بقوله تعالى: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمُ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإسلامَ دِينا**﴾ [سورة المائدة: ٣].

ولكن كيف يستطيع القرآن إقناع هذا العقل الإنساني في عصر الطاقة والعلم والفلك والتفوق في مجالات كثيرة من مجالات الخلق والإبداع.

هنا تكمن المعجزة القرآنية الأبدية.. إذ هي لا تفعل شيئاً، وإنما تضع الإشارات للعقل ليسير على هَدْيٍ واضح هو أصلاً من هَدْي السماء، فما دام العقل هو في عصر الفلك والنجوم

والشموس والأقمار وقد وصل إلى شيء لا بأس به من علومها فإنه – وخلال عمله هذا – يقول له – وهو يتساءل عن عظمة هذه الموجودات بالإيحاء والإلهام أو من وراء حجاب – نعم يقول له: لا تعجب.. ﴿**اللَّهُ الَّذي خَلَقَ السَّمَواتِ والأَرْضَ**﴾ [سورة إبراهيم: ٣٢].

في هذه الحالة لا بدّ من أن يصدق العقل هذا الهتاف وكأنه إلهام أو وحي أو هاتف من السماء، يقول ذلك بعد أن دهش العقل بما رأى وشاهد.. بالتجربة والبحث إنْ في المختبر أو في ميدان العمل أو في آيات الكون.

والعاقل الذي يعيش في المدينة القرآنية قبل أن يشرع في البحث والتجربة والدراسة، يأخذ معه الخطوط العريضة والأولى في هذا السبيل.. ومنها مثلاً: ﴿**وَفِي الأَرْضِ آياتٌ لِلْمُوقِنِينَ، وَفِي أَنْفُسِكُم أَفلاَ تُبْصِرُونَ، وَفِي السَّماءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ**﴾ [سورة الذاريات: ٢٠، ٢١، ٢٢].

بعدها يأخذ الأمور بجدية واقتناع ويرى هل هذا القول هو صحيح في الآيات القرآنية وكذا في الآيات الكونية، ساعتها يدرك الحقيقة بدون رسول أو نبي لأنه الوحيد القادر على ذلك، وإلاّ لما توقفت السماء في زمنه عن إرسال الرسل والأنبياء، ولم نبعد كثيراً، فها هي تجربة حياتية أوصلت صاحبها إلى الحقيقة الكبرى بدون الأقمار الصناعية أو الطيارات أو الإلكترون.. فقط نظر ببصره إلى آيات الكون وطبعها على صفحة العقل الفطري بعدها وجد تلاؤماً حقيقياً بين آيات الكون وآيات العقل.. فما بالك بالذي يملك أيضاً آيات القرآن.

ولنمر على تجربة سيدنا إبراهيم الذي وضع الدرس الأول في الإيمان الفكري عن طريق الوحي الكوني.. ليس إلاّ.. قال تعالى: ﴿**وَكَذلِكَ نُرِي إِبْراهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَواتِ والأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ، فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَءا كَوْكَباً قَالَ هذا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ، فَلَمَّا رَءا الْقَمَرَ بازِغاً قَالَ هذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قالَ لَئِن لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ، فَلَمَّا رَءا الشَّمْسَ بَازِغَةً قالَ هذَا رَبِّي هذا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ**﴾ ساعتها قال: ﴿**إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذي فَطَرَ السَّمَواتِ والأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أنا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ [سورة الأنعام: ٧٥ و٧٩].

قد يقول قائل: هذا لكم أيها المسلمون.. ولكننا نقول تعالوا وتفحصوا الآيات الخاصة بالاعتقاد والألوهية فهي مخصصة كلها للعقل لا للمسلمين ولا لغيرهم.. فقط هو يخاطب العقل لأنه أصبح في الوضع الذي يؤهله لهذا الأمر، بعد تطوره وازدهاره، وما القرآن إلاّ مرشد إلى الطرق والإشارات التي تصلح في هذا العصر وإلاّ ما معنى قوله: ﴿**وسَخَّرَ لَكُم ما في السَّمواتِ**

وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [سورة الجاثية: ١٣].

هكذا يبقى يلاحق الإنسان يهمس في أذنيه ويهتف له ويناديه ويهديه إلى صراط مستقيم.. والإنسان ينأى بجانبه. ويعرض عن الحقيقة ولكنه لا يسأم من التكرار والإعادة فيقول له ويهتف بأذنه ويهمس في عقله إن كنت محتاراً في أمر الشمس والقمر أو الليل أو النهار فتعال أحدثك وأقول لك: **﴿والشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ، والْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ القَدِيمِ، لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ القَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾** [سورة يس: ٣٨ و٤٠].

فيقف الإنسان مشدوهاً ويقول: نعم إن هذا لهو الحق المبين..

فقد رآه بعقله، وسمعه بأذنيه، وأحسه ببصره فاكتملت العقيدة ورسخت في قلبه.

وهكذا تستمر مدرسة القرآن في الإقناع والبرهان العقلي والحسي والقلبي، مرة تحدث عن الآفاق الكونية وما فيها من كواكب.. ومرة تحدث عن الأرض وما فيها من آيات للموقنين.. ويقف الوحي القرآني والهتاف الرباني بجانب صاحب الحقل البسيط فيقول له أوَ لم تؤمن بعدُ وأنت بين آيات الله تعيش ومن آيات الله تأكل. فيقول وكيف يكون ذلك؟؟ فتقول له الآيات: **﴿فَلْيَنظُرِ الإنسانُ إلى طَعَامِه، أَنَّا صَبَبْنَا المَاءَ صَبًّا، ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا، فأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا، وَعِنَباً وَقَضْباً، وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً، وَحَدَائِقَ غُلْباً، وفاكِهَةً وَأَبًّا، متاعاً لَكُمْ ولأَنْعامِكُم﴾** سورة عبس: ٢٤ و٣٢].

فيقف صاحب الحقل يقول: نعم هذه هي الحقيقة التي لا شك فيها ولا جدال فيذعن للخالق العظيم. وقد تعلم في ذلك درساً؛ درساً في الإيمان وآخر في الزراعة.. وأما العبقري والعالم والطبيب والمبدع فيبدأ معه القول في مختبره الأول.. فيهتف له بالقول: لماذا أنت في محرابك..؟ فيجيبه الإنسان المغرور بعلمه: أبحث عن أصل الخلق والخليقة، فيقول له: تعال أعطك الدرس الأول في الخلق إن كنت في ريب أو شك من الخالق.. الذي خلق كل شيء.. فيقول الهتاف الرباني: **﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾**. ساعتها – وحين يسمع هذا الهتاف الرباني – يُهْرَعُ إلى حفنة من التراب ويبدأ بالتحليل لكل حيثيات التراب ويوازن بينها وبين حيثيات الجسم الآدمي فيجد أنها فعلاً تشترك في عناصر كثيرة من الحديد والفسفور والكالسيوم والبوتاسيوم.. إلخ.

ويستمر معه الهتاف الرباني فيقول دعني أكمل لك: **﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ من عَلَقَةٍ ثُمَّ من**

مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ إلى آخر الآية ٥ من سورة الحج

ويبدأ مرة أخرى في الدراسات حول الخلق في رحم الأم وليجدها واحدة كما ذكرها المولى عز وجل.. فيذعن لله.. ويعيد النظر في كل معتقداته ويقول له هل تريد المزيد..

ويستمر الوحي القرآني في تثبيت العقيدة لدى أخيار القوم وعلماء المدينة، يؤهلهم للعيش الكريم والحياة الآمنة – المستقرة – في كنف المدينة الفاضلة، ومن ثَمَّ ينقلهم من التمرد الفكري إلى الإذعان القلبي، وهؤلاء هم أولى الناس بالإيمان والخشوع والامتثال لأنه يخاطب العقل فيهم ومن ثَمَّ يتسلل إلى قلوبهم وأما أولئك الذين آمنوا واطمأنت قلوبهم – بالفطرة – فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

نعم، هو يخاطب الجميع القوي منهم والضعيف، الفقير والغني العالم والجاهل، الظالم والمظلوم، كلهم لا ينفك عن مخاطبتهم في وحدتهم أو في مراكز أعمالهم.. في الليل أو في النهار.. فهو دائم السعي إليهم يهتف في آذانهم فمن يؤمن منهم فقد هدى الله قلبه ومن لم يؤمن يدعوه المرة تلو المرة.. لا يكلٌّ ولا يملٌّ.. حتى تكبر المدينة ويكثر القوم وتزدهر الحياة بالنماء والخضرة والسعادة.. فتلك هي جنة الأرض؛ أمن، وأمان، واطمئنان.

وها هو يخاطب الساكن في الليل.. والعامل في النهار فيقول لهم: **﴿أرأيْتُمْ إن جَعَلَ اللَّهُ عليكُمُ الليل سَرْمَداً إلى يَوْمِ القيامَةِ مَنْ إلهٌ غيرُ الله يأْتيكُم بضياءٍ أفَلاَ تَسْمَعُونَ﴾** [سورة القصص: ٧١].

ويقول للآخرين: **﴿أرأيْتُمْ إن جعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهارَ سَرْمَداً إلى يَوْمِ القِيامَةِ مَنْ إلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾** [سورة القصص: ٧٢].

ويخاطب الجميع فيقول: ﴿وَمِن رحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ والنَّهارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [سورة القصص: ٧٣].

هكذا يخاطب الناس في ليلهم ونهارهم.. عند السكون والتأمل في ملكوت الليل.. وعند العمل والحركة.. في ملكوت النهار.

هكذا كتاب، لا أخال أن الإنسان بعده بحاجة إلى نبي أو رسول، لذا رحل النبي محمد ﷺ ساعة اكتمال آيات القرآن العظيم فكانت مَهَمَّتُهُ هي توصيل هذه الرسالة المعجزة إلى البشرية جمعاء.

ويُجملُ بعد ذلك الوحي القرآني آيات الليل والنهار فيلخص حقيقتهما تلخيصاً معجزاً

تنبجس منه معجزة أخرى هي معجزة الزمن التي شغلت العقل والفكر الإنساني.. زمناً ليس بالقصير.. فتقول آيات القرآن عن ظاهرة الليل والنهار. ﴿**وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ والنَّهَارَ، آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنا آيةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السنينَ والحِسَابَ وَكُلَّ شَيءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً**﴾ [سورة الإسراء: ١٢].

والدرس المستفاد من هذه الآية الكريمة كبير وعظيم وهو في صميم القضية العقيدية أولاً، وصميم القضية العلمية التي تهم هذا العصر ثانياً، ويمكن أن نضع النقاط على الحروف.. ونظهر أهمية الليل والنهار.

أولاً: إن الليل هو سكن للإنسان وهدوء لحركته لأن الإنسان مصنوع على هذه الفطرة، وكأن الليل لتجديد النشاط والقوة التي لا بدّ منها في الظاهرة الأخرى وهي النهار، أشياء متضادة ولكنها تكمل بعضها بعضاً، هذه واحدة..

والثانية: إن الليل والنهار لا بدّ منهما في حساب الزمن وعدد السنين.. وهذه قضية علمية عدا أنها قضية إيمانية.

ثالثاً: في خضم هذه الأبحاث لا بدّ من أن نمر على دروس الحساب وتنميتها ليتسنى لنا معرفة تلك الأمور ولا سيما إذا تعقدت الأبحاث ووصلت إلى ما نحن عليه الآن.

رابعاً: وأما كلمة كل شيء فصَّلناه تفصيلاً.. فهي أن الباقي مَبْثُوثٌ في آيات الكون بالتفصيل، فقط عليكم إعمال العقل والفكر فستجدون لكل شيء حساباً وتفصيلاً أكثر في الكون، وما الآيات إلاّ رموز أو شفرة الكون لا يعلمها إلاّ الله.. **والراسخون في العلم.... يقولون آمنا به...**

هذه هي الدروس التي يركز عليها القرآن وهي دروس وتأملات شاملة مصداقاً لقوله تعالى: ﴿**اقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الذي خَلَقَ**﴾ أي يجب أن تكون القراءة شاملة للقضية العلمية ثم للقضية الإيمانية وما عدا ذلك فهو محض افتراء وإلحاد ووثنية.

صحيح أن هذه الدروس لا بدّ منها في مدينة القرآن وهي في صميم التربية القرآنية.. ولكن الصحيح أيضاً أن القرآن لا يستسلم للملاحدة أو يتركهم يعبثون كما يحلو لهم في خارج المدينة، فهو لا ييأس.. وهو يدخل عليهم بإذن وبغير إذن.. لا بل يخترق الحُجُب والجُدُر.. ومن ثَمَّ يناديهم ويهتف لهم بالحقيقة.

فها هو يدخل على عالمٍ مختص في علم الأجنة يحاول عبثاً أن يخلق آدمياً.. ويسلك في ذلك السبل المتنوعة المشروعة منها وغير المشروعة.. ويضع كثيرٌ من أمثاله أنفسهم تحت تصرفه فقط لتحقيق مآربهم في الأولاد.. ومآربه في التفوق والإلحاد، فها هو يخترع طريقة لجمع الحيوانات الذكرية والأنثوية في أنبوب اختبار.. ومن ثَمَّ يخضعها لجو يشبه جو الرحم – رحم الأم – وفعلاً ينجح في ذلك... ومن ثَمَّ ينقل ذلك بعد الإخصاب إلى الرحم الأصلي. حتى تتحقق المعجزة كما يراها ويسير الحمل بعدها طبيعياً وتنجب المرأة ولداً بسبب أنبوب الاختبار المذكور. بادئ ذي بدء.. هذه حالة، والحالة الأخرى، ولأنه لا يقرأ.. باسم ربه.. فهو لا يعرف الحدود والقوانين والمحرمات، لذا هداه عقله ويا ليته لم يفعل إلى تخزين حيوانات منوية مختلفة ويفتح عيادة لكل من أراد أن يعالج مشكلة في العقم والإنجاب فيستخدم هذه الحيوانات.. وكأنها وسيلة في العلاج. مهما كانت مشروعية تلك الوسيلة أو عدمها.. وهو في ذلك ربما لا يقصد ربحاً مادياً بقدر ما يقصد تفوقاً عقلياً.

هذه هي الحالة المرضية لدى صاحبنا الملحد.. ويأتي القرآن ليعالج هذا الجهبذ في الطب ولا يدري أنه مريض فعلاً ولكنه لا يعرف مرضه فيناديه عن قرب فيقول له: ﴿**أَفَرَأَيْتُمْ مَّا تُمْنُونَ، أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الخَالِقُونَ**﴾ [سورة الواقعة: ٥٨ و٥٩].

طبعاً هو لا يدري من أين هذا الهتاف لأن هذا هو مرضه، فهو لا يحس بأحد في الكون غيره.. وبلطف المجادلة العلمية التي هي خصيصة قرآنية اختص الله بها القرآن.. للإقناع والبرهان القطعي والذي أُهِّل لعصر العلوم والطاقة، يستمر القرآن بالتغلغل إلى قلب هذا الجهبذ الملحد تارة بالترغيب وتارة بالترهيب، فها هو يذكِّرُ بالموت الذي لا ينجو منه أحد.. فيقول في نفس السياق.. وفي آية ٦٠ من نفس السورة.. ﴿**نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ المَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ، عَلَى أَن نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لا تَعْلَمُونَ، وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَى فَلَوْلاَ تَذَكَّرُونَ**﴾ [سورة الواقعة: ٦٠–٦٢].

طبعاً هو لا يذكر النشأة الأولى لأنه لم يشهدها.. ساعتها وبعد هذا الهتاف إما أن يرعوي وإما أن يزداد في الإلحاد.. وإن ازداد في الإلحاد فلا يتركه أبداً بل يتبعه ويلاحقه ويضع أمامه الحقيقة الأبدية التي لا تعجزه وحده.. بل تعجز من هم من بعده أيضاً.. فيقول في أذنيه.. وكذا للناس جميعاً: ﴿**يا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ**

﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [سورة الحج: ٧٣].

وهكذا يسدل الستار على هذا المشهد العظيم، الذي يُظهر الإعجاز العظيم في التربية القرآنية.. وهو يخاطب إنسان العصر المتفوق، وقد ركزنا على قضايا الخَلْقِ والإبداع ولكن هناك الكثير من القضايا التي يعالجها القرآن، وهذه كلها تدرس في مدينة القرآن، ونحن هنا لا يمكن أن نأتي على منهج القرآن في التربية والإقناع وتثبيت العقيدة الإلهية ولكن نؤكد أن ما جاء به القرآن لا يصلح للعالم وحده أو الطبيب أو المزارع أو الطالب أو العامل أو الأب أو الأم.. لا، بل يصلح لكل فئات البشر في شتى العصور، وكلٌّ يرى فيه ضالته. ولكن نحن هنا نقتبس بعض الإشارات التي تذكي روح العقيدة وتؤهل بالتالي أهل مدينة القرآن على اجتياز الجسر الدنيوي ووجوهم ناضرة إلى ربها ناظرة ومن ثمَّ دخول المدينة الأخرى.. مدينة الجنة.

الإنسان بين الوسيلة والغاية

الإنسان وتجربة الاختبار الأولى

تلك الأسس الطبيعية للاعتقاد والإيمان بالألوهية، وقد عرضها القرآن بأسلوب نادر المثال.. والحق هذا غيض من فيض، ولكننا نحيل الأمر، كما هو الجوهر في الإقناع القرآني، إلى أطراف ثلاثة – كما قلنا – وهي كلها من آيات الله وهي: القرآن، العقل، الكون.. وقد يخطر ببال أحدهم سؤالٌ حول وظيفة القلب في هذه المعادلة الثلاثية.

الحق وكما هو واضح. أن الأطراف الثلاثة، وكأنها تعمل لحساب القلب الذي يحس بالبصيرة والفطرة شواذ السلوك والاعتقاد – ومن ثم يفرز الصالح منها – فينزوي في أعزركن من أركانه، وإلاّ لما قال المولى عز وجل: ﴿**أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾ [سورة محمد: ٢٤] وهذا فقط إذا انتصرت المادة على الروح – وران على القلوب صدأ الظلم والطغيان والفساد وحب الشهوات.

هذه الملاحظة كان لا بدّ منها قبل أن نودع البرامج الأولى في أطر الشخصية القرآنية.. ونستقبل البرنامج أو الدرس الثاني في تثبيت هذه الشخصية على الإيمان الإلهي، الذي لا مناص منه في الفوز بالحياتين الدنيا والآخرة.

وأما البرنامج الثاني فهو بداية الإنسان.. وكيف كانت تلك البداية، حتى يعلم القضية من بداياتها.. وفي ذلك رسم الغاية المثلى للوجود الإنساني.. إذ لا يعقل أن نقول للإنسان أعمل كذا وكذا دون أن يعرف السبب وراء هذا الجهد وهذه التضحيات المترتبة على وجوده.. خاصة إذا علمنا أن الغاية الكبرى تمر عبر تضحيات وعبادات وسلوكيات محددة لا خروج عنها ولا انفلات، وهي التي تؤهله لدخول المدينة العظمى مدينة الآخرة «الجنة» وإلاّ لبدأ الإنسان في حياته بداية بوهيمية لا أول لها ولا آخر، هي أقرب إلى الحياة المادية الدنيوية ليس غير.. الأمر الذي يرتب شذوذاً أخلاقيّاً أو سلوكيات لا أساس لها في الأديان والمعتقدات لأن الهدف أصبح في صميم الوسيلة.. وعليه لا بدّ من الاغتراف من شهوات الحياة قبل فوات الأوان، وهذا هو صميم الإلحاد والكفر لأنه إنكار للبعث.. وإنكار للحساب.. وإنكار للألوهية

جملة وتفصيلاً.. وعليه لا بدّ أن ندرس التجربة الأولى للإنسانية.. تلك التجربة الفريدة – للأب الأول – مع الخالق.. ولكن المشكلة هنا هي: من أين نأتي بتلك التجربة؟ هل، مثلاً العقل قادرٌ على إظهارها، من الآثار مثلاً، أو الطبيعة أو العلوم أو غير ذلك؟؟

إذ كيف يمكن التكهن بالبدايات الأولى للإنسانية ولم يكن من أحد قد شهد المشهد الأول حتى يكون الرأي جازماً، قاطعاً؟؟.

وهذا من صميم الإقناع والاقتناع، على الأقل هو منهج يعترف به إنسان العصر الذي يؤمن بالبراهين الحسية الواقعية أو التجربة أو الملاحظة ليس غير.

من هذا نستنتج أن العقل لا يكفي في هذا الصدد.. وإذا فلا بدّ من الرجوع إلى مستند حقيقي له القدرة على إبراز القصة من أولها.. وهذا يرجعنا إلى المستند القرآني الذي جاء بالغيب من عند الله.. فهو وحده القادر على بسط الأمور من بداياتها، صحيح أن الكتب السماوية الأخرى قد تكلمت في هذا الموضوع ولكن المستند الأخير الذي تعترف به السماء هو القرآن لأنه شامل لكل الوقائع والوثائق والحقائق، حتى إن القارئ لآيات القرآن بهذا الخصوص يرى تناسقاً في الأحداث.. ولنبدأ على بركة الله.. وكانت البداية في السماء أو الملكوت السماوي. ﴿**وإذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْملائِكَةِ إنّي جَاعِلٌ في الأرْضِ خَلِيفَةً**﴾[سورة البقرة: ٣٠].

وهنا تدهش الملائكة كما نرى: ﴿**قالُوا أتجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ**﴾[سورة البقرة: ٣٠].

الحق لا ندري لِمَ هذا التخوف من قِبَل الملائكة؟ وكيف توقعوا هذه الأحداث؟ وربما هناك شيء خفي.. وهو الذي حيَّر العلماء والمفكرين حول هذه التوقعات قبل حصولها، ولكن يسعني القول هنا أن الله بسط الأحداث كلها أمامهم وكأنها شريط متكامل.. وإن لم تُذْكر في الآية إلاّ أنها تُفْهَمْ من السياق.. ساعتها حصل التخوف من قتل وفساد وإفساد.. إذا قورن بعمل الملائكة!! ﴿**ونَحـنُ نُسَبِّحُ بِحَمْـدِكَ ونُقَـدِّسُ لَكَ قَـالَ إنِّـي أعْلَـمُ مَـا لا تَعْلَمُونَ**﴾[سورة البقرة: ٣٠].

وتتوالى الأحداث.. فيكون الخليفة هو آدم، وطبعاً لا بدّ من تزويده بالتعليمات والعلوم الضرورية لعملية الاستخلاف فكان أن وضع في روعه الأسماء كلها.. كما نرى: ﴿**وَعَلَّمَ آدَمَ الأسْمَاءَ كُلَّها ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الملائكة فَقَالَ أنْبِئُونِي بأسْماءِ هؤلاءِ إنْ كُنتُمْ صادِقِينَ، قَالُوا سُبْحانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إلاّ ما عَلَّمْتَنَا إنَّكَ أنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ**﴾ [سورة البقرة: ٣١ و٣٢].

الواضح هنا هو امتياز آدم على الملائكة بإحرازه هذه الخصوصية في امتلاك الأسماء كلها.. هذه الخصوصية هي التي أذكت روح الحسد والبغضاء لدى بعض الملائكة وعلى رأسهم إبليس وتظهر هذه النزعة في نفس إبليس في المشهد التالي. ولكن لنكمل قصة آدم أولاً: ﴿**قَالَ يا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِم فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقل لكُمْ إِنّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ وأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ ومَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ**﴾ [سورة البقرة: ٣٣].

من هذه الأحداث نؤكد صحة تصورنا في توقعات الملائكة وتخوفهم من إفساد آدم في الأرض لأن هذه الآية توضح أن الأمور كلها كما الأسماء كلها بسطت أمام الملائكة وعلى مشهد ومرأى من الجميع الأمر الذي حصل فيه التخوف.

وهكذا يبرز تفوق آدم على الملائكة مما أثار حفيظة إبليس كما ذكرنا وها هو قمة الاحتجاج. ﴿**وإِذْ قُلْنا لِلْمَلائكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى واسْتَكْبَرَ وكَانَ مِنَ الكَافِرين**﴾ [سورة البقرة: ٣٤].

ومن هذه اللحظة نقم إبليس على آدم وذريته حتى في التجربة الحياتية الأولى.. ولنلاحظ هذه الأحداث في المشهد الآتي: ﴿**وَقُلْنا يا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجَكَ الْجَنَّةَ وكُلا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا ولاَ تَقْرَبا هذه الشَّجَرَةَ فَتَكُونا مِنَ الظَّالِمين**﴾ [سورة البقرة: ٣٥].

والحق هناك تفاصيل هذه الجنة في آية أخرى حيث يقول تعالى: ﴿**إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرى، وأَنَّكَ لاَ تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلاَ تَضْحَى**﴾ [سورة طه: ١١٨ و١١٩].

فكان موقف إبليس من آدم موقف العداء الذي يحاول إخراج آدم من الجنة فبدأ يوسوس لآدم بأن الشجرة التي ذُكرت في سياق التحذير الإلهي ليست إلاّ مصدر الخلد والملك الذي لا يبلى – فقط – إذا آدم أكل منها.. وطبعاً كان مقصده إغواء آدم وإخراجه من الجنة ولنقرأ هذه الآيات. ﴿**فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى، فَأَكَلاَ مِنْهَا فَبَدتْ لَهُمَا سَوْءاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَان عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى**﴾ [سورة طه: ١٢٠ و١٢١].

ومن ثَمَّ.. ﴿**ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى**﴾ [سورة طه: ١٢٢].

هذه هي القصة الجديرة بالاعتبار في أسس الاعتقاد الديني وهذه تصنع الالتزام الخلقي والوازع الديني لدى الإنسان في مدينة القرآن.. والسبب يكمن في الآيات الآتية: ﴿**قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِنّي هُدىً فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلاَ**

يَشْقَى، ومَنْ أعْرَضَ عَنْ ذكْري فإنَّ له معيشةً ضنكاً ونَحْشُرُهُ يومَ القيامةِ أعْمَى﴾ [سورة طه: ١٢٣ و١٢٤].

من هنا لا بدّ من الاهتداء والاقتداء بالوحي القرآني، لأنّه الكتاب الذي وضع الحدود والالتزامات التي تؤهل الإنسان للمفازة الكبرى.. بعد هذه الخطيئة الكبرى للأب الأول.. التي انطوت على مخالفة الأمر الإلهي.. واتباع أوامر الشيطان.. يكون الإنسان في الأرض في محك الاختبار والتجربة كتلك التي حصلت في السماء لأن عناصر التجربة هبطت أيضاً مع آدم إذ تبعه الشيطان وسرى في عروق ذريته سريان الدم.. يوسوس لهم في كل مناسبة.. ويقعد لهم في كل صراط وهذا الالتزام قطعه على نفسه في الآية الآتية: ﴿**قالَ فَبِما أغْوَيْتَني لأقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ المُسْتَقيمَ، ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِنْ بَيْنِ أيْديهِمْ ومِنْ خَلْفِهِمْ وعَنْ أيْمانِهِمْ وعَنْ شَمائِلِهِم ولاَ تَجِدُ أكْثَرَهُمْ شاكِرينَ**﴾ [سورة الأعراف: ١٦ و١٧].

وهذا حدث كثير منه من قبل مع أبناء آدم الأوائل ويحدث مثله اليوم وكل يوم مع أبنائه الأواخر.. وسنرى تفصيلاً لذلك..

الإنسان وتجربة الإبن في الاختبار

أما تجربة الابن في الأرض – بعد تجربة الأب في السماء – فكانت حافلة هي الأخرى بالمخالفات للسنن والنواميس الإلهية التي جاء بها آدم من أجل التكفير عمّا اقترفت يداه منها حين سمع لهتاف الشيطان وأذعن للشهوة ومن ثَمَّ خالف الناموس الإلهي.. وكأن ما يفعله ابنه في الأرض ليس إلاّ تكراراً لما فعله الأب، وكان الأحرى بالإبن أن يدرك خطيئة أبيه.. إلاّ أن الأمر جاء معاكساً للمطلوب، ومن ابني آدم المباشرين قابيل وهابيل.. إذ وسوس لهما الشيطان في شخص قابيل الذي حسد أخيه على امرأته الجميلة – كما ذكرت بعض التفاسير – مما أدّى بهما إلى عمل قرابين للمولى عز وجل، ومن يُقْبَل قربانه يأخذ الفتاة المتنازع عليها.. وفعلاً تَقبَّل الله قربان هابيل ولم يتقبَّل من الآخر.. وهو قابيل.. فأضمر له الحسد في نفسه مما أدّى إلى نزاع خطير بينهما ومن ثم جريمة قتل نفذها قابيل بأخيه هابيل.. فكان المسلسل قد ابتدأ من غواية الشيطان أولاً، ومن ثَمَّ الحسد، بعدها جريمة القتل، وفوق كل ذلك كانت الشهوة هي السبب الرئيس في المشكل.. تماماً كما كانت الشهوة هي الأساس في خطيئة آدم في السماء.. ولا بأس هنا أن نأتي على الآيات القرآنية التي تحكي هذه القصة: ﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بالْحَقِّ إذْ قَرَّبا قُرْباناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أحَدِهِمَا ولَمْ يُتَقَبَّل مِنَ الآخَرِ قالَ**

لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ من الْمُتَّقِينَ﴾ [سورة المائدة: ٢٧].

وفي آخر النزاع بينهما كانت جريمة القتل الأولى على ظهر الأرض كما نرى: **﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أخيهِ فَقَتَلَهُ، فأصْبَحَ مِنَ الخاسِرين﴾** [سورة المائدة: ٣٠].

ويمكن الرجوع إلى تفاصيل القصة في الآيات من ١٧-٣١ من سورة المائدة.

وهكذا تبقى الشهوة وسيلة الشيطان لغواية الإنسان عن الطريق المستقيم، وكل ذلك حسداً من عند الشيطان لآدم وذريته الأمر الذي نفث نار الحقد في صدره فجعله يكتب عهداً على نفسه بالاستمرار في هذا الطريق إلى أن يرث الله الأرض ومَنْ عليها.

والحق، لاحقت الشهوة الإنسانية في كل مراحل حياته ولبست ألف لبوس ولبوس.. تارة في المال، وتارة في الولد، وتارة في الجنس، وتارة في الملك، مما أدَّى إلى إرسال الرسل والأنبياء والمصلحين إلى الناس مبشرين ومنذرين.. مبشرين بالجنة لمن يهتدي إلى سواء الصراط ومنذرين بالنار لكل من يتبع الشهوات أو لا يمتثل لأوامر المولى عز وجلّ التي كان يحملها إليهم أولئك الأنبياء والمرسلون.

فكانت الرسالات الأولى تتدرج مرحلة بعد مرحلة تعلم الناس أولاً الامتثال والتوحيد كما جاء في زمن قوم نوح وعاد وثمود، حيث انصبت الرسالة السماوية في زمنهم على التوحيد بالله. كما نرى في الآيات الآتية: **﴿لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إلى قَوْمِهِ فَقَالَ يا قَوْمُ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إله غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافَ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾**.

واستمر الأنبياء والمرسلون زمناً طويلاً يدعون بدعوة التوحيد أولاً وقبلَ كل شيء، وهي نفس العقيدة التي تلقاها آدم في السماء. حين وُضعَ بين خيارين؛ إما أن يسمع لنداء الله وبذلك يكون التوحيد الإلهي، أو يسمع لنداء الشيطان وتكون بذلك بداية العصيان.

وإن اختلفت وسائل الدعوة والمشاهدة والدعاة إلاّ أن الفحوى – فحوى العقيدة الإلهية – تكاد تكون متشابهة، فقط هناك شيطان واحد لإنسان واحد هو آدم، وهنا ملايين الشياطين لملايين من البشر، والشياطين يسرون في الإنسانية مسرى الدم في العروق فقد يأخذ هيكل الإنسان شكلاً ولكن هو شيطان رجيم – موضوعاً وإلاّ لما قال المولى عز وجلّ: **﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَياطِينَ الإِنْسِ والْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾** [سورة الأنعام: ١١٢].

نعم هذه البدايات الأولي للعقيدة الصحيحة وهي التوحيد، الامتثال، ونفس الشيء ما جاء به هود لقوم عاد: **﴿وإلى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَومِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ**

أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾ [سورة الأعراف: ٦٥].

وكذا حصل مع ثمود حين جاءهم أخوهم صالح: **﴿وإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صالحاً قَالَ يا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيرُهُ قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِنَةٌ من ربِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تأْكُلْ في أَرْضِ اللَّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَليمٌ﴾** [سورة الأعراف: ٧٣].

هذه التجارب الحياتية للإنسانية لا بدّ منها لإذكاء روح التوحيد في ذهنية الإنسان في مدينة القرآن حتى تؤهله للسلوك والطريق المستقيمين.

وحين تُحكى له قصة البشرية وسلوكها على مدار الزمان والأعوام فإنه يأخذ العبرة من الأمم والشعوب التي سبقته ليتعظ ويرعوي ويعرف كيف يكون الثواب في الدنيا وكذا العقاب، هذا عدا عن العقاب الأخروي.

وأما القضايا الأخرى التي فشل الإنسان الأول في معالجتها في حياته الدينية، فهي تتمثل في مشكلة الشهوات وما تنطوي عليها من ممارسات غير طبيعية.

فها هو شعيب يشكو شهوة حب المال لدى بني قومه والذي يترجمونه في التطفيف والغش في الكيل والميزان وهذه طبعاً إحدى وسائل الشيطان في تضليل الإنسانية ومن ثَمَّ ما يترتب على ذلك من جرائم بشرية تأتي استتباعاً لتلك الشهوات تماماً كما حصل في جريمة القتل الأولى.. التي كان أساسها حب الشهوة، وكذا الخطيئة الأولى في السماء وهي الشهوة في الامتلاك لِمُلْكٍ لا يبلي.

فها هو شعيب يخاطب قومه بالنص القرآني: **﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ ولاَ تَنْقُصُواْ الْمِكْيَالَ والْمِيزَانَ إِنّي أَراكُم بِخَيْرٍ وإِنّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحيطٍ، ويَا قَومِ أَوْفُواْ الْمِكْيَالَ والْمِيْزَانَ بالْقِسْطِ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاس أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تَعْثَوْاْ في الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾** [سورة هود: ٨٤ و٨٥].

ونلاحظ هنا أنه أضاف إلى التوحيد – والغش والتطفيف – مشكلة أخرى وكأنها نتيجة نهائية، لتلك الشهوة وهي الفساد في الأرض لأن الجريمة تبعث على أخرى والخطأ يجر إلى أخطاء أخرى قد تكون أخطر، فالسارق قد يقتل، وشارب الخمر قد يفعل كل المنكرات، لأن الأخطاء تتلاحق حين لا يردعها رادع.

تلك إذا مشكلة شعيب مع قومه وقد تمحورت حول الشهوة والفساد في الأرض، ومن قبله قوم لوط وقد جاؤوا من الفعل ما كان بمثابة قمة الاستبداد والنكوص عن المباديء والقيم

التي يفترض أن يتحلى بها أبناء آدم من بعده وقد أخذ عليهم ربهم عهداً من أول يوم استخلفهم في الأرض وذلك في قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُم قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ القِيامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غافِلِين**﴾ [سورة الإعراف: ١٧٢].

صحيح أن هذا في صميم العقيدة والتوحيد، ولكن مجموعة المخالفات تعني أول ما تعني الانحدار الخطير عن الطريق السوي الذي أمر به الخالق، وما فعله قوم لوط إن هو إلاّ أسوأ المثل في هذا السبيل.. ولا يجب أن نغض من فحوى السلوك الإنساني بحيث لا يرقى إلى الكفر والإلحاد عند مخالفة القيم والمباديء السوية لأن الدين والاعتقاد والسلوك عناصر الإيمان والتوحيد، ولا غرابة فكم من نبي لم يأت إلاّ من أجل قضايا سلوكية أبرزها القرآن دون غيرها في سياق آياته كقصة سيدنا يوسف مع إخوته، فقد أبرزت قمة الصراع الإنساني بين الحق والباطل الذي أشعل فتيله الأول الحسد والبغضاء، فهذا أمر سلوكي ولكن لأهميته أورده الخالق بسورة منفصلة وخاصة، ونبيٍّ خاص، لأن المولى عز وجلّ أرسل أنبياء ورسلاً، وقد ركّز كلٌّ منهم على قضية سلوكية معينة، وكلها مجتمعة تمثل الصراط المستقيم الذي جاء به القرآن.. من قضية التوحيد أولاً والشهوة كقضية سلوكية ثانياً إلى وسوسة الشيطان. وإذكاء روح الفتنة والحقد والحسد وهي أعلى وسائل الشيطان في الفتنة لأن بعدها يبدأ الصراع بين الحق والباطل، ويصبح الصراع علناً وعلى مرأى الأشهاد، أما في الشهوات فهو صراع مع النفس ليس إلاّ، والحسد هو صراع مع الغير، والتوحيد هو صراع مع الألوهية، وتتويج ذلك بالإنكار والكفر، وهي مشكلة العصر بعد إحلال الإنسان محلّ الله أو إشراك الإنسان مع الله في الخلق ولا سيما بعد أن تفوق العقل في مجالات الابتكار والإبداع ولكن إن عنى هذا من شيء فهو يعني الجهل أو الخلط بين الوسائل والغايات.

الدنيا وسيلة الإنسان إلى الآخرة

هذه هي الوسيلة المثلى في التربية القرآنية.. يبسط الأمور كما هي دون زيغ أو زلل، ويضع الإنسان أمام مسؤولياته، فيكشف الذين أحسنوا للاقتداء بهم، وكذا الذين أساؤوا للابتعاد عن فعلهم.

ويضع بعد ذلك فرصة الاختيار لعقل وفكر الإنسان.. ماذا بعد هذا المنهج العظيم؟.. حقيقة أنه يؤهل الإنسان إلى المفازة الكبرى.. إلى المدينة المثالية.. مدينة الجنة.

ومن قبل أن نتوه في الحديث علينا أن نتساءل: ما قصة هذه الأخطاء التي يكررها الإنسان؟ ولماذا هي تروق لنفسه؟ وبالأحرى لماذا يلهث جرياً وراء شهواته؟!

الحق أن الإجابة على هذه التساؤلات تضعنا وجهاً لوجه أمام الخلط الإنساني بين الوسيلة والغاية.. بين الدنيا والآخرة.. بين المادة والروح.. بين التكوين الإنساني وعناصره.

لا بدّ من أن ندرك جيداً أن التكوين هو أصلاً من عنصرين، الأول مادي دنيوي، والثاني روحي أخروي، والمطلوب هو تغليب العنصر الثاني على الأول، ووسائل الكفاح من أجل ذلك كثيرة وهي جهاز المناعة الموجود أو المبثوث في ذات الإنسان وهي بذرة الروح التي بثها المولى عزّ وجلّ في جسد الإنسان وكأنها بذرة الإيمان تَوَقَّدَ ساعة إذكائها بوميض العقل وزناد الفكر.. فقط إذا لم تنتصر عليه السطحية الدنيوية المادية.. لأن الظاهر من الكون كما هو الظاهر من الإنسان وظاهر الإنسان تحلو له ظواهر الكون لأنها زخارف ومتاع الحياة الدنيا.. بالنسبة لظاهر الإنسان المادي.. وأمّا العوامل الروحية فهي لا تأتي إلاّ بالجهد والعرق والتأمل والبذل والتضحية، بعكس الجانب المادي المبثوث في كل ركن من أركان الكون، كمن ينصب فخّاً لاصطياد الفريسة، وكذا زخرف الكون هو فتنة، لا بل هو فخ لاصطياد نفسية الإنسان المادية.. وعليه فإن الوسيلة المادية تتحول إلى غاية.. أو غايات.

لذا قال المولى عزّ وجلّ: **﴿وَمَا يُلقَّاها إلاّ الَّذينَ صَبَرُوا وَمَا يُلقَّاها إلاّ ذُو حَظٍّ عَظيم﴾** [سورة فصلت: ٣٥].

فالصابرون وحدهم الذين يفهمون مغزى الحياة وفلسفتها، وأما غيرهم فلا ينظرون للكون إلاّ وسيلة وغاية.

نحن لا ننكر على الإنسان ماديات الكون والبحث فيها والتلذذ بمتاعها، لأنها أصلاً مسخرة للإنسان، ولكن هذه الممارسات إذا بقيت في الوضع الطبيعي فلا بأس من وراء ذلك، وأما إذا خرجت عن الوضع الطبيعي والحدود الطبيعية فتصبح وسيلة وغاية على حد سواء وكأنها طغت على الغاية الحقيقية التي لا نقطف ثمارها إلاّ في المدينة الأخرى «الجنة».

وعليه، لا بدّ من أن نلبيّ مطالب الجسد دون المساس بمطالب الروح، فكما للجسد غذاؤه فكذلك للروح غذاؤه.

والآن دعونا نضع النقاط على الحروف لنرى كيف تنظر المدرسة القرآنية – في تربية الإنسان – إلى عناصر الكون ومادياته.

القرآن ينظر إلى الكون وسيلةً حياتية ليس إلاّ.. وقد تحتوي على غايات إلاّ أنها غايات جزئية، فالحصول على القناطير المقنطرة من المال ربما يكون غاية الإنسان ولكنها غاية جزئية.. والغاية الجزئية تبقى جزئية حتى تتراجع إلى صفة الوسيلة، وكذا البنون والخيل والأنعام والملك والنساء كلها زخارف مادية لا تصل إلى حدِّ الغاية الكلية بل تبقى وسائل حياتية لإشباع غرائز دنيوية تنتهي بانتهاء الحياة، ويمكن أن نستعين ببعض الآيات في هذا الصدد: ﴿**إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ، أَجْرٌ عَظِيمٌ**﴾ [سورة التغابن: ١٥]. ﴿**اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ**﴾ [سورة الرعد: ٢٦]. ﴿**إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً**﴾ [سورة الكهف: ٧].

هكذا تترسخ العقيدة في ذهنية الإنسان في مدينة القرآن فيعرف أن أشياء الحياة ما هي إلاّ وسائل، أو بالأحرى هي اختيارات جزئية تنطوي على متاع دنيوي زائل لا يدوم. وبهذا يقارن بين النعيم الدائم والنعيم الزائل.. والحقائق واضحة، فعمر الإنسان محدود، وحتى حياة الغرور التي نوَّه عنها القرآن لا تتعدى الثلاثين، بعدها يبدأ المرض والمسؤولية فلا يصحو الإنسان على نفسه إلاّ وهو في الثمانين وهو أرذل العمر فيفقد كلَّ وسائل اللذة.. يفقد الأسنان التي كان يقطع ويأكل بها ما لذ وطاب من أشياء الكون.. ويفقد العيون. أو تضعف قوتها فلا يرى جمال الأشياء التي كان ينعم برؤياها.. وتضعف الأرجل والأطراف فلم يعد لديه متسع وطاقة للحركة والسير في ملكوت الله.. إلى آخر أدوات وأعضاء الإنسان التي كانت وسائله في متاع الكون.. وبذا يرى آثار أعماله في الدنيا، فإن كانت صالحة فلا يندم على ما فات، وإن كانت سيئة فيأخذه الندم والحسرة.. ﴿**كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ**﴾ [سورة البقرة: ١٦٧].

ساعتها يدرك قوله تعالى: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنْ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ**﴾ [سورة آل عمران: ١٨٥].

نعم يدرك ذلك قبل أن يرحل فيرى متاع الغرور في ممارسات الشباب ليس إلاّ.. وما السنوات الأخرى إلاّ حصاد جزئي دنيوي لما سبق. يتلوه يوم القيامة الحصاد العظيم، عندها تكون الغاية الكبرى وقد احتوت الغايات الجزئية. ولكن الإنسان المؤمن في مدينة القرآن يأخذ الدرس والعبرة من أول يوم يدخل فيه مدينة القرآن في الحياة الدنيا، فيدرك كنه الحياة على

حقيقتها، ويرى فيها ما يراه المولى عزّ وجلّ في قوله تعالى: ﴿**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ**﴾ [سورة آل عمران: ١٤].

وهكذا تتضح الرؤية أمام الإنسان المؤمن – وفق المنهج القرآني في التربية والاعتقاد – وحتى الإنسان العادي إذا تجرد من العواطف والماديات يحس ذلك في أكثر من فترة من فترات حياته ولا سيما بعد فترة أوبداية الأفول والضعف التدريجي الذي يبدأ في الثلاثينات وهي بلوغ الأشد من العمر في العقل والوجدان والتجربة الحياتية.. عندها يبدأ الإنسان بإعادة النظر في كل ما يعتقد، وتظهر له الحقيقة.. حقيقة الدنيا أكثر فأكثر.. ومن ثَمَّ يدرك أن نعيم الدنيا ليس دائماً بل هو عرض زائل لا ينخدع به إلاّ كل مغرور، كيف لا والحياة الدنيا متاع الغرور، فلا يجد الشيطان سبيله إلاّ عند هؤلاء المغرورين. ويعدهم.. وما يعدهم إلاّ غرورا..

أما الإنسان العاقل المستبصر بأمور الحياة فلا بدّ أن ترعوي نفسه وترجع عن الغي والضلال ويدرك الغاية الحقيقية من الحياة فيرجع إلى قوله تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾ [سورة الذاريات: ٥٦].

وكذا قوله تعالى: ﴿**وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا**﴾ [سورة القصص: ٧٧].

وتستمر الآية في رسم الطريق السليم للوصول إلى الغاية المثلى حين يقول تعالى: ﴿**وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ**﴾ [سورة القصص: ٧٧].

وعليه فإن الانتصارات المادية في الحياة هي انتصارات نحو غايات جزئية من مثل المال أو الغنى فهو هدف مادي أو غاية مادية تصلح لأن تكون غاية مبتغاة ولكن هي وسيلة للمؤمن وفق التربية القرآنية لأنه يدرك أن المال مال الله، ويدرك أيضاً أن هذا المال هو من أجل العمل الصالح والبذل والتضحية والعطاء في سبيل الله لأن الغاية الأساسية هي إرضاء المولى عز وجل وكذلك شكره على نعمه، وأما اللّه فإنه غني عن العالمين.. لا يحتاج لمالنا ولا لعملنا وكل فعل نفعله هو رصيد نجده بعد الوفاة التي لا يشك في ظاهرتها أحد، وهي ماثلة للأذهان لكل بني البشر إنْ في موت صديق، أو موت أخ، أو أخت، أو أم، أو زوجة..

الخ. ويعلم القاصي والداني أن مراحل الضعف والأفول للإنسان هي أكثر من مراحل القوة والعنفوان والجبروت.. فلا أحد يبقي غنياً، ولا أحد يبقى في صحة دائمة.. كلنا يتعرض للفقر وضعف الحال، أو المرض وضعف الصحة، أو الهزال، أو غير ذلك من مراحل الضعف، من هنا تبقى الغاية الجزئية.. الدنيوية وسيلة لمراحل الضعف، بعد الغنى وجمع المال يستعد الإنسان لإنفاق ذلك على جمع الحسنات والخيرات من أجل ضعفه في الآخرة، فلا أحد ينقذه من المصير المحتوم إلاّ أعماله، وأما الغاية الجزئية التي تلي جمع المال فهي ترميم الجسد في لحظات المرض والضعف.. فما دام هو هكذا تواق للبقاء والديمومة فعليه أن يفعل فعلاً لترميم الروح الذي – وحده – يبقى في آخر العمر ولا يتخلى عنه.. هذا الروح هو الذي يحتاج إلى تدعيم ليلاقي ربه في أحسن حال وأقوى عزيمة.

وهكذ نفهم أن الغايات تتفاوت وتتدرج، والغاية الدنيا تكون وسيلة الغاية العليا، وهؤلاء هم الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة.. ويدفعون مقابل ذلك ثمناً باهظاً قد يصل إلى بذل النفس – لا المال، وبذا يدفعون الحياة الدنيا.. أو الروح.. مقابل الآخرة.. وكم من الناس من دفعوا مثل هذا الثمن فيصدق فيهم قول الله تعالى: ﴿**فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً**﴾ [سورة النساء: ٧٤].

إذاً فكيف كانت الغاية بالنسبة إلى هؤلاء؟ وكيف كانت الوسيلة لديهم؟؟ لا شك أن هذا يختصر التفسير الحقيقي للغاية المثلى، وأما تفاصيل ذلك فبانت أولاً من المال كوسيلة للبذل في سبيل الله، نفس المعنى أو الغاية. ذاك دَفَعَ النفس في سبيل الله، وأما هذا فقد دفع المال في سبيل الله. ولكن المعتقد في المنهج التربوي القرآني يكاد يكون واحداً في تفسير الغاية القصوى.. وهي أن الإنسان جاء للتكفير عن أخطاء كثيرة، وأولها كان خطأ أبيه الأول، وما لنا لا نقحم الآيات القرآنية في بذل المال – أيضاً – في سبيل الله، كمرادف للنفس التي دُفعت في سبيل الله وهذا في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يقاتلون فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾ [سورة التوبة: ١١١].

وكأني به يختصر الأعمال الصالحات وكذا العبادات في هذا العمل العظيم، فبذْل النفس في سبيل الله أعظم من العبادة، لأن الموت في سبيل الله يختصر المسافة كلها التي

أنيطت بعبادة الإنسان لخالقه، ومن ثَمَّ إحراز الفوز العظيم في مثل هذا العمل العظيم، وما أحسب فوزاً في الآخرة أعظم من هذا الفوز. ﴿**وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِين قُتِلواْ في سَبِيلِ اللَّهِ أمْواتاً بَلْ أحْياءٌ عِندَ رَبِّهِم يُرْزَقُون**﴾ [سورة آل عمران: ١٦٩].

الواقع نحن لا نحرض هنا على القتال فليس هذا مكانه بل ما نقصده هو تفسير الغاية القصوى للوجود الإنساني.. وهذا التفسير كما قلنا يدركه الإنسان في جميع الأديان كما ورد في الآية السابقة، فقط إذا كان الأمر والعمل من أجل نصرة دين الله لا من أجل نصرة المال، أو الإمتداد، أو الغزو، أو السلطان، فهذه غايات جزئية كما قلنا، وأما الغاية القصوى فهي في سبيل الله، وما بذل النفس والمال إلاّ ظواهر التكفير الإنساني للوصول إلى الغاية النهائية.

ولا بأس قبل أن ننهي هذا الموضوع أن نفصّل بعض الغايات الجزئية من أول يوم تشرق فيه الشمس على وجه الإنسان وهو يسعى إلى ابتغاء غايات يحسبها – بعضهم – غايات قصوى، بل هي غايات جزئية تصلح لأن تكون وسائل لغاية قصوى.

مثلاً الطالب في الصف الأول يسعى للنجاح في آخر العام ليؤهله هذا النجاح إلى الصف الثاني.. هذه غاية في حدٍّ ذاتها، ولكنها وسيلة للوصول إلى الأعلى، وهكذا تتوالى الغايات الجزئية حتى مرحلة التخرج الإعدادي، وهي كثيرة، ومن ثَمَّ الانتقال إلى غايات جزئية متتالية في المرحلة الثانوية، وهي أيضاً كثيرة، ومن ثَمَّ الجامعة والدراسات العليا.. الخ. هذا هو الطالب وهذه هي حياته حتى يتخرج فيسعى إلى غاية جزئية أخرى هي المال والوظيفة ومن ثَمَّ غاية أخرى هي الزوجة، وغاية أكبر هي الأولاد.. إلخ. إذاً فهو يعيش سلسلةً من الغايات الجزئية ولكنها في الحقيقة ليست أكثر من وسائل مادية إلى غاية الغايات وهي عبادة الله وممارسة أعمال الخير، ويكون ذلك اتجاهاً مغايراً للإنسان الأول الذي لهث وراء غايات مادية وحسب.

أما هذا فإنه يطور نفسه ليتعلم ويتفقه في دينه ودنياه، ويأخذ الزوجة الصالحة، ويصلح تربيتها على المنهج القويم، وكذا يصلح من شأن الأولاد، ويضعهم على الصراط المستقيم، وما الغايات المادية، إلاّ وسيلة لتحقيق الأهداف الروحية، وليس العكس بحيث ننسى أن الغايات الجزئية ما هي إلاّ وسائل توصل الناس إلى الغاية المثلى.

هذه أمثلة على الحياة العادية لأناس عاديِّين.. وأما أصحاب السلطة الذين سَعَوْا في سبيل

تحقيق هذه الغاية والتي يرون فيها غاية قصوى، فمنهم من تؤهله للتسلط والعنفوان والجبروت، وبذا سلك أهداف ووسائل الشيطان.. ومنهم من يستخدمها كوسائل للعدل، والصلح، والحكم بالقسط بين الناس، ونشر المساواة،والتسامح، فكما يكون المال صالحاً للبذل والعطاء في سبيل الله وكذا السلطة والمسؤولية تصلح أيضاً لذلك. وما هذه إلاّ وسائل الشيطان للفتنة والخطيئة كما هي وسائل الإنسان للخير والإحسان والوصول إلى الغاية المثلى – عبادة الله والإذعان لأوامره.

أجهزة الضبط في الشخصية القرآنية

جهاز المناعة الروحي والمكتسب

في التربية الدينية إيقاظ للإحساس الفطري الذي يرزح تحت وطأة المادية والوثنية، ومن ثَمَّ خلط السلوك المادي البحت بآثار روحية نابعة من أعماق القلب الذي يقبع فيه قبس الإيمان من أول يوم جاء فيه الإنسان إلى الوجود. حين نفخ الله فيه من روحه، وهذه النفخة الروحية هي ولا شك شيء من نور الله تصحو آثارها بالتربية الدينية فتطفوا على السطح تزاحم النزعة المادية أو تردعها، حين لا ترعوي أو ترتدع ذاتياً.

ومن هنا لا بدّ من أن ندرك أن التراث الديني الذي يدرس للإنسان للنهوض به روحياً، ومن ثمَّ تأهيلُه لمدينة القرآن أولاً، ومدينة الآخرة «الجنة» ثانياً، هو التراث الذي يبدأ – كما بدأنا – من المُوجِدِ الأول للخلق بحيث يدرك الإنسان أن خلقه ذو بُعْدَيْن، بُعْدٍ ماديٍّ – حسيٍّ وهو المحدود بحجم وأبعاد معينة، وبعدٍ روحيٍّ يتعامل مع الغيبيات والإلهيات والروحانيات. التي تقبع في ما وراء المادة. مما يجعله يتعامل مع نفسه تجاه الغير بحيطة وحذر ولا تجعله كالدواب أو الأنعام يعيش هكذا. وكيفما اتفق، حتى أن المولى عزّ وجلّ ذكر ذلك بالنص في كتابه العزيز: ﴿**أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى**﴾ [سورة القيامة: ٣٦].

جهاز المناعة – المادي – المكتسب

من هنا يبدأ الإنسان يتحسس الطريق المستقيم وقائده في ذلك روحه وقلبه المفعم بالإيمان المدرك لحقيقة وجوده على ظهر هذه الأرض.

ومن ثَمَّ تبدأ آثار التربية واضحة على السلوكيات الإنسانية، بحيث تتعزز لدى الإنسان بشكل عام المعرفة القرآنية التي تنبه الإنسان إلى أن فيه جهازاً رادعاً ذاتياً ولنقل جهاز المناعة الذاتي أو الوازع الذاتي ولنضرب مثلاً على جهاز المناعة الصحي أو الجسدي، إذ من المعروف للعالِم والجاهل.. المؤمن وغير المؤمن أن الجسم تتنازعه أفواج وأفواج من الجراثيم والميكروبات والفيروسات وإن لم يحسها فهي موجودة وأصبحت غير خافية على أحد،

وهذه الأفواج علمته الكثير من الأمراض.. لا بل أصبح لديه تراث في هذا الصدد، فأين مرض السل الذي كان يقضّ مضاجع الأمم والأفراد؟؟ وأين مرض الجدري والتيفوئيد والكوليرا.. إلخ؟.

صحيح أن هذه الأمراض قد انتهت إلى غير رجعة ولكن أليست آثارها باقية؟ الحق أنها باقية ببقاء الإنسان، بل وجاء عليها المزيد من آثار الحضارة والتلوث والمصانع والغبار والغاز والأشعة إلاّ أن الإنسان يملك جهازاً عظيماً للمناعة، وهذا الجهاز موجود معه منذ بدأ يدب على الأرض.

ونظرة فاحصة إلى العين نرى كم من النكسات تتعرض لها في اليوم أو في الشهر أو في السنة.. ونرى في كثير من نكسات العين أنها تنتهي دون علاج، وكذا في الأنف والأذن، وفي كلٍ أجزاء الجسم وخلاياه وكأن الجسم حين يستشعر الخطر تبدأ أجهزة المناعة بالزحف على المرض أو الخطر أو الفيروس -- هكذا تلقائياً – حتى تقضي عليه قضاءً مبرماً ويشفى الجسم من كلّ الآثار السلبية المترتبة على ذلك.. ويمكن أن نضيف هنا أن ارتفاع درجة الحرارة هو أكبر جهاز مناعة للجسم.. بعد أن أدرك الإنسان مدى أهمية السخونة في علاج كثير من الأمراض ولا بدّ من أنه قد تعلم الدرس الأول من جهاز المناعة المكتسب المبثوث في ذات الجسم.

هذا الطرح لا يبعدنا عن الحقيقة الأخرى وهي أن الجسم كما يملك جهاز مناعة على الصعيد المادي هو أيضاً يملك جهاز مناعة على الصعيد الروحي ويمكن أن يكون ضعيفاً كما يمكن أن يكون الأول كذلك، ويمكن أن نسترعي النظر إلى الضعف في جهاز المناعة المكتسب الذي أصبح ديدن الأمم والشعوب اليوم بعد أن اكتشف تلك الظاهرة المرعبة «الإيدز» ويأتي ذلك موائماً مع ضعف جهاز المناعة الروحي، هذا التواؤم لا شكّ أنه لم يأت بمحض الصدفة وإلاّ أنكرنا التراث الديني برمته وأنكرنا قوله تعالى: ﴿**أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى**﴾ [سورة القيامة: ٣٦].

نحن هنا لا نتخيل ولكننا نقذف بالحق على الباطل فيدمغه.. ومن هنا لا بدّ من أن نوضح جملة من الحقائق.

إن ضعف جهاز المناعة المكتسب الذي سُمِّي «الإيدز» كان من أسبابه كما يقولون: هو الشذوذ أو لنقل من آثار الأشعة أو الحضارة التكنولوجية أو التجارب أو أي شيء من ذلك.. والأرجح هو السبب الأول وهذا السبب ألا يمتُّ إلى الجهاز الروحي بصلة.

إن مسألة الشذوذ في أي مجال من مجالات الحياة هي ظاهرة العصر الحديث وكأنها انفلات من الدائرة الأخلاقية، أو لنقل الروحية، وهذه القضية يحسبها بعض الناس سهلةً وهي كانت في يوم من الأيام سبباً لمجيء رسول اسمه لوط إلى قومه ونهاهم عن هذه الفعلة الشنعاء.. والآن ذهب لوط وقوم لوط، ولكن المرض جاء بمجيء السلوك وكأنها نقمة السماء على أهل الأرض، ومن ثَمَّ تحذير للبشرية من خطر محدق إن هي تركت الحبل على الغارب.

إن قضية الشذوذ – وإن كانت ممارسةً مادية – إلاّ أنها توحي بضعف كبير في جهاز المناعة الروحي قبل أن تودي بجهاز المناعة المكتسب، وما الجهاز الأخير إلاّ وسيلة للإدراك المباشر لمصدر الخطر وآثاره الأخرى. وهذا لا شك يضعنا وجهاً لوجه أمام الوازع الذاتي أو النفسي – فهو الجهاز الروحي الداخلي الذي يوقظ وميض الروح وشعلة الإيمان فتوقف السلوك الخاطيء أو الشذوذ في أي سلوك كان.. هذا إذا رجعنا إلى كنه الإنسان وعرفنا مصادر تكوينه الأولى، المادية والروحية.

فالوازع الذاتي يتكرس بالتربية القرآنية الدينية التي تضع الإنسان أمام حقائق الموجودات. فيعرف مكانه فيها. إن سلباً أو إيجابياً، ضعفاً أوقوةً، وإن كان الوازع يبدأ أولاً بالخوف فلا بأس أن يتحول بعد ذلك إلى الحب وبالتدريج.

وأما المشكلة الأساسية التي يضعها القرآن في الحسبان وهو يربي أفراده في المدينة القرآنية فهي نزوع الإنسان إلى الخوف من غير الله، فيكون الوازع مؤقتاً إلى حين ذهاب مصدر الخوف. وهذا لا شكّ هو نوع من الإحساس المادي للألوهية، فهو يدرك الألوهية ولكن يضع لها أشكالاً من نسج خياله، فقد يضع الشمس أو القمر أو أي شيء يبعث على الخوف والرهبة كظواهر الطبيعة ولكن – الحق – هذا لا يسحق الوازع تماماً بل يضلله ويضعه في كثير من الأحيان في حالة تغييب وإلاّ لما حصل مثل ذلك الشذوذ الذي كان سببه الرئيس تضليل الوازع الذاتي.

والوازع الذاتي يعمل بسرية مطلقة تماماً كما يعمل جهاز المناعة الجسمي، فلا أحد يدري ماذا يدور في الجسم حال تعرضه للمخاطر، وعليه فإن الجسم يكون دائماً في حالة حذر وتيقظ لكل طاريء.

وكذا الوازع الداخلي – النفسي عليه أن يعمل حتى ولو تغيب الوازع الخارجي أو

العقاب الخارجي.

ففي الصوم يكون تحت وطأة الوازع الذاتي الذي كرسه الدين ومن ثَمَّ يسمَّى الوازع الديني المباشر، وعليه لا أحد يدري ماذا يفعل الإنسان، هل فعلاً هو يصوم أو لا يصوم.. من يدري؟ فهذا لا يحكمه إلاّ الوازع، وكذا الصلاة وغيرها من العبادات الروحية هي بحق لتربية الذات والضمير وتنمية الوازع الديني بتنمية وإيقاظ الشعور الديني.

والخوف من الله هو المصدر الحقيقي للوازع الديني – الذاتي، وأما الخوف من الإنسان أو الطبيعة أو الظواهر الأخرى فإنه يبقى في مهب الريح، لذا ينتشر الآن الإلحاد بعد أن تنصل الإنسان من نزعات الخوف التي كانت تأتي من الظروف المحيطة بالإنسان.. أما وقد وصل إلى هذه المرحلة فإنّه لا بد من أن يرعوي فكان لا بدّ من تعطيل جهاز المناعة المكتسب. لعله يعود إلى تقوية جهاز المناعة الروحي وينمي الوازع الديني من جديد.

الحق، لم يكن قصدنا التركيز على الشذوذ بقدر ما هو مثال من أمثلة أمراض العصر الحديث.. وما أكثر الأمثال. ولكن كان مثالنا هذا لأنه كان يوماً ما مصدر شقاء لأقوام وشعوب ضلَّت السبيل وذكرها القرآن – بالنص – وكأنها عبرة لأولي الألباب.

وأما الوازع الحقيقي أو جهاز المناعة الروحي، فإنه لا بدّ من أن يوقف كل الممارسات الشاذة واللاأخلاقية من القتل إلى السرقة إلى الإجرام إلى غير ذلك من الممارسات، الخارجة عن قوانين الأرض والسماء.

وهكذا تكون القواعد الأساسية للوازع الداخلي – الذاتي، قد ارتكزت على أساسات ثابتة بدأت بالأسس الروحية وعلى رأسها تعزيز فكرة الألوهية في الذات الإنسانية، ويليها التجربة الأولى للإنسان في السماء، وهذه أسس روحية بحتة لم يأت بها – أو بتفاصيلها – إلاّ الدين «القرآن» وأما الأسس المادية فهي القائمة على التجربة الإنسانية من أول يوم هبط فيه آدم إلى يوم نزول القرآن. فكانت بحق تجربة مريرة وشاقة خلقت الإرهاصات الأولى للنضوج الديني العقلي الذي احتوته بتمامه وكماله المعرفة القرآنية، لأنها كانت تتويجاً للنضوج الإنساني، لذا لم تشهد الأمم عصراً أفضل من عصر الإسلام خُلُقاً وحضارة، فالتجربة القرآنية مورست في الكون وعلى الأرض وكان لها دولتها المترامية الأطراف اتسمت بالعدل والتسامح ونضوج المعرفة والعقل.

وما دامت التجربة القرآنية هكذا هي سماتها فهي الأجدر بالبقاء، لذا كان لا بدّ من

وضع هذه التجربة على المحك وإخراجها من الفكر إلى التطبيق لأنها تمثل الإشراق الروحي في عالم مادي مظلم آن له أن يزول.

وعليه نقول بوحي من القرآن والتجربة القرآنية أن لا بد من العودة للوازع الديني، بادئ ذي بدء، الذي يرتكز على أسس مادية وروحية تكوِّن الإطارَ الحقيقيَّ للضمير، وداخل هذا الإطار تبدأ التفاصيل ولكن بشرط أن تكون مرتبطة بالتراث الديني والأطر الحقيقية التي نوَّهنا عنها.

ولكن لا يغيب عن أذهاننا – ونحن نخوض في التفاصيل داخل الأطر – أن هناك خوفاً من التركيز على التفاصيل ومن ثَمَّ نسيان الأصل والأطر الحقيقية للدين والضمير، وهو الذي أشقى الإنسان وأبعده عن الحقيقة في هذا السبيل.

فالسلوك الإنساني يجب أن يبقى في إطار المراقبة الذاتية للضمير أو الوازع، والذي يمكن أن نسميه الخوف من الله وعدم نسيان التجربة الأولى للإنسان.

وعمله هذا هو بمثابة تطوير للوازع الديني بشكل متواصل حتى تنتقل آثار الوازع الديني من الباطن إلى الظاهر.. من الفكرة إلى السلوك.. من الإيمان الداخلي إلى المعاملة اليومية، والسلوك الظاهريُّ قد ينمُّ عما بداخل الإنسان إذا كان باطن الإنسان مفعماً بالإيمان، ولكن كيف نفسر سلوك بعض الملحدين الذي يتسم بالدقة والنظام والأمانة وداخله خاوٍ من الإيمان؟!.

الحق، هو لا يعمل بدافع الدين والاعتقاد بل بدافع التقليد أو الخوف أو الحب أيضاً ولكن الخوف من غير الله ربما من العقاب أو الجزاء حتى يصبح السلوك عرفاً عادياً.

وأما الحب فهو حب الوطن أو الإنسان حتى هو أيضاً يصبح سلوكاً عادياً، يطبع الأمم بطابع حضاري – كما يقولون – الحق، هو سلوك مادي لا غير، لأن الوازع الديني أو الرادع الذاتي وهو الحلقة الأولى في الضمير أو الخلق، غير موجود أصلاً، لذا نلاحظ أن سلوكهم يخلو من الرأفة والرحمة والعدل بكل ما تعني هذه الكلمات من معانٍ روحية، ذاتية، وفعله مادي بحت أو سلوك عادي اقتضته طبيعة العصر والآلة والحاسب الآلي.

وهذا قد نراه في تفسير النظرة السادية لديهم ومعاملتهم للغير بشكل مغاير لتعاملهم داخل وطنهم ومع أفراد بلدهم، وكأن النظرة المادية للسلوك لا تمتد إلى الأمم والشعوب

الأخرى، فنراهم يبطشون ويتجبرون ويذبحون في الشعوب الضعيفة دون وازع من خُلُق، فلو قيل لهم أو لأحدهم أو لجيوشهم اذهبوا وأحضروا ثروات البلد الفلاني، لأعملوا فيه قتلاً وتدميراً من أجل الهدف المادي الذي هم ذاهبون إليه، وينسون كلّ القيم والأعراف والأخلاق، وهذا عكس ما كان يحصل في الغزوات الإسلامية، حيث كان القائد المسلم حريصاً على توصية أتباعه بعدم التدمير أو التهديم أو قتل الشيوخ والأطفال أو قطع الأشجار.. لا غرابة فأولئك قاتلوا ويقاتلون في سبيل الطاغوت المادي وهؤلاء قاتلوا في سبيل الله والحق المبين.. ليس إلاّ..

جهاز الحوافز والأجور

وهكذا تبقى خيوط التربية في المنهج القرآني مترابطةً، تماماً كما هي أعضاء الجسم الإنساني، فبعد أن رسم القرآن الأهداف المثلى للإنسانية وميّز بين الوسائل والغايات فجعل دائرة الوسائل في الحياة الدنيا ودائرة الأهداف والغايات القصوى في الآخرة.. بعدها ينتقل إلي السلوك، وديناميكية السلوك، والأسس التي يجب أن يرتكز عليها السلوكُ الإنساني للوصول إلى هذه الغايات المثلى، لذا أشار أن الجسم الإنساني تحكمه دوافع وغرائز، منها ما يؤخذ بالترغيب، ومنها ما يؤخذ بالترهيب، لذا حدد أجهزةً داخلية وخارجية لتدبير السلوك الإنساني وأكد باديء ذي بدء على الحوافز الإنسانية للسلوك، وميّز بين نوعين من الحوافز.

أولاً: الحافز المادي

أي عمل يقوم به الإنسان لا بدّ من أن يدفعه إليه حافز معين أو محرك يحركه باتجاه معين أو محدد من السلوك، فإن كان العمل مادياً بحتاً سُمِّي بالحافز المادي، أو ما ينطوي تحت أسماء الأجر أو الثواب أو غيرها، وهذا الأجر هو الدافع الرئيس لعمل الإنسان وبمقدار قيمة هذا الأجر تكون طاقة الحافز أو قدرته على المنافسة في اتجاهات مختلفة من أنواع السلوك حتى في مجالات الأعمال المختلفة فإن كان الأجر كبيراً في مهنة معينة ترى الناس يتدافعون عليها والعكس بالعكس، وهذا أمر غريزي مطبوع في ذاتية الإنسان وكأنه مثل وإن كان معاكساً للحافز الآخر الروحي فكما أن الله خلق التضادات ليمحِّص الذين آمنوا من الذين كفروا كما هي في كل مجالات الحياة؛ الضعف والقوة.. الخير والشر.. اللين والشدة.. الحر والبرد، وكذا في مسألة الحافز هناك حافز مادي وحافز روحي. وهو الذي سنناقشة في الآتي.

ثانياً: الحافز الروحي

هو الجهاز الذي يعمل تحت إمرة العنصر الروحي من البناء الإنساني وهو في صراع أو تنافس متواصل مع الحافز المادي الذي يغدق على أصحابه عطايا الدنيا من الأموال والبنين والنساء.. إلخ بعكس الحافز الروحي الذي يَعِدُ الإنسان بالثواب والأجر الآجلين الأمر الذي يحمله طاقة في الإقناع أكثر صعوبة.. وربما هي المهمة الرئيسة التي انطوى عليها الجهاد الأكبر وكذا الأصغر، فكل منهما تضحية بالمادة وبالنفس وبكل شيء في سبيل غايات روحية أصيلة ولكنها أيضاً ضمن الأجر والثواب.

الأجر والثواب

هذه هي الحقائق القرآنية حين ترسم الطريق أمام المؤمن، فلا تتركه رهن الهواجس والأفكار المضللة التي تقصر الحياة على الحياة الدنيا بحيث يغرف من خيراتها الحسان ما شاء له أن يغرف فيدخل في متاهة معاكسة للغاية المطلوبة أصلاً. ومثل هذا يعطل كل التراث الديني ويلغي مبادئ كثيرةً من مبادئ القرآن، وكذا الإسلام بشكل عام، لأنه يبقى حريصاً على الحياة الدنيا ومتاعها وشهواتها لا يريد أن يبارحها، وبذا عطل مبدأ الجهاد في سبيل الله وكذا الصدقات والإحسان والبر التي ثوابها يؤجل في الآخرة فتصبح الدنيا أمام هؤلاء لا طعم لها لأنها لا تؤمن إلاّ بالأخذ والعطاء المادي فلا تبقى شيئاً للأجر والثواب في الآخرة.

فقضية الثواب أو الأجر قضية جوهرية وهي تلامس الحقيقة المادية أولاً، ومن ثَمَّ الحقيقة الروحية – الإيمانية ثانياً.

تعالوا معي نتساءل:

أين ثواب الفقراء والمحتاجين، والمساكين والضعفاء الذين لم ينالوا من الدنيا إلاّ النزر القليل لا يكاد يكفي تلبية حتى المطالب الأساسية للعيش الكريم؟!.

ومن ثَمَّ أين ثواب الجنود المندفعين إلى القتال في سبيل الوطن – على الأقل – نعم، أين يأخذون هذا الأجر والثواب؟

هذه التساؤلات ضرورية لإرساء دعائم المجتمع المؤمن الفاضل القائم على القيم والمبادئ العظيمة التي يبثها القرآن في مجتمع المدينة القرآنية الفاضلة.

وهذه أيضاً ضرورية لشحذ الهمم والتضحية في سبيل الآخرين لأن مثل ذلك له ثواب

عظيم ولكن في مكان آخر وهو ما يسمَّى بالآخرة، ولنسمع بعض الآيات القرآنية في هذا الصدد!. ﴿**قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ من ذَلِكُم لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهارُ خالدينَ فِيهَا وأَزْوَاجٌ مُطَهَرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ واللَّهُ بَصيرٌ بالْعِبَادِ**﴾ [سورة آل عمران: ١٥].

هذه هي الأسس الحقيقية للعقيدة، لأن الإنسان مطبوع أصلاً على الأجر والثواب، نفسه هي الأخرى مطبوعة على هذا المنوال، هب أنك أحضرت كوباً من الماء.. حتى لوالدك، إن لم يقل لك كلمة إطراء أو شكر فإن نفسك لا ترتاح أبداً وتأخذ بتفسير الأمور وتصويرها على أكثر من وجه، هذه جزئية بسيطة من الثواب والأجر، تحدث كلَّ يوم ومثلها كثير، وكأن نفوسنا مجبولة أصلاً على ذلك، تارة ترضى بالكلمة الطيبة، وتارة ترضى بإيماءة أو إشارة أو ابتسامة، وكلها نوع من الثواب أو الأجر، وأحياناً يستبدل الإنسان الطيب المؤمن الكلمة الطيبة بالأجر المادي، وهذه من السنن التي بثها المولى عزَّ وجلَّ في البشرية، ونفوسهم، ويغرسها المنهج التربوي القرآني في نفوس مواطنيه والمؤمنين بعقيدته، تعالوا نسمع هذه الآيات: ﴿**قَوْلٌ معْروفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُها أذىً**﴾.

وهذا تفضيل للكلمة على المادة المغموسة بالذل والمن والأذى، هذا هو العرف الإلهي، وهو الذي يعلّمه للمؤمنين به: ﴿**الَّذين يقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ، الصَّابِرِينَ والصَّادِقِينَ والْقَانِتِينَ والْمُنْفِقِينَ وَالْمُستَغفِرِينَ بالأَسْحَارِ**﴾[سورة آل عمران:١٦-١٧].

هذه ممتلكات الذين لا يملكون الماديات، وهؤلاء أجورهم عندالله كما رأينا عظيمة، في الآية ١٥ من سورة آل عمران المذكورة آنفاً فالقول المعروف، والقول لا إله إلاّ الله، وربنا آمنا، واغفر لنا ذنوبنا، وقنا عذاب النار، والصابرين، والصادقين، والقانتين، والمستغفرين بالأسحار.

كلها ممتلكات معنوية، لا تزيد عن الصمت والقول بالكلمة المحسوبة، وبعدها يكون الأجر العظيم.

أي شيء أكبر وأعظم من هذا العطاء الجزيل والثواب العظيم، وحتى هؤلاء لا بدّ من أن يكون لهم أيضاً أجرٌ ماديٌ في كثير من الأحيان إما بتخليصهم من ضيق حلَّ بهم، أو مرضٍ كمرض أيوب، أو قلة ذرية، أو رزق مادي.

ففي ضيق الحال، يضرب القرآن مثلاً بحالة يونس، الذي التقمه الحوت ولبث في بطنه

حتى إنه لو لم يكن من المسبِّحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون، وهذا مكتوب بآيات قرآنية كما نرى: ﴿وَذَا النُّونِ إذ ذهَبَ مُغاضباً فَظَنَّ أن لنْ نقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادى في الظُّلماتِ أن لا إله إلاّ أنتَ سُبْحانَكَ إنّي كُنتُ مِنَ الظاَّلِمينَ﴾. [سورة الأنبياء: ٨٧].

وفي آية أخرى توضيح أكثر، حين التقمه الحوت: ﴿فَالْتَقَمَهُ الحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ. فَلَوْلا أنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ في بَطْنِه إلى يَومِ يُبْعَثونَ﴾ [سورة الصافات: ١٤٢ و١٤٣].

أما مرض أيوب، فإنه يروي القصة بلسانه وبالنص القرآني: ﴿وأيُّوبَ إذْ نَادَى رَبَّهُ أنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وأنت أرْحَمُ الرَّاحِمينَ، فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فكَشَفْنَا ما بِه، مِنْ ضُرٍّ وآتَيْناهُ أهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعابِدِينَ﴾ [سورة الأنبياء: ٨٣ و٨٤].

أما حالة زكريا فهي مع الذرية وإنجاب الأولاد، وهي أيضاً بالنص: ﴿وزَكَرِيَّا إذْ نَادَى رَبَّهُ، رَبِّ لاَ تَذَرْنِي فَرْداً وأنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ، فاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إنَّهُمْ كَانُواْ يُسارِعُونَ فِي الخَيراتِ وَيَدعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُواْ لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [سورة الأنبياء: ٨٩ و٩٠].

ومن قبله مريم كانت تحصل على الرزق من عندالله، فكان زكريا يسألها عن مصدر هذا الرزق فتقول هو من عندالله كما نرى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إنَّ اللَّهَ يَرزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[سورة آل عمران: ٣٧].

والحق، الأمثلة كثيرة وتظهر الفرق بين الأجر الإلهي والأجر الإنساني حتى في الدنيا، فالإنسان يعمل عند أخيه الإنسان عدة ساعات ولا يأخذ بعدها إلاّ عدة قروش أو جنيهات، وأمّا عند الله فلا يعمل الإنسان إلاّ خمس صلوات لا تزيد في مدتها عن ساعة وبعض كلمات الاستغفار ومن ثَمَّ يكون الأجر عظيماً لا في الدنيا وحسب بل وفي الآخرة.

أجهزة الردع والعقوبات

عرفنا من قبل في الأجر والثواب أن هناك أجراً في الدنيا وآخر في الآخرة وما الأجر الدنيوي إلاّ مثال للأجر الأخروي، ليس إلاّ، مع فارق القيمة والقدر في الأجرين، فالأول يخضع لحسابات مادية كما هي الحياة الأولى – الدنيوية – وأمّا الثاني فأنه يخضع لحسابات روحية كما هي الحياة في الآخرة، والأخير هو قمة الأجر والثواب في تسلسل الثواب والأجر من الأدنى إلى الأعلى وكأن الأخير في أعلى السلم – سلَّم الدرجات المطلق مع الأخذ في الحسبان أن الدنيا لها سلَّمٌ خاصٌّ بها وكذا الآخرة.

نعم هكذا كانت معالجتنا للأجر والثواب، ونفس الشيء ينطبق على العقاب، فهناك عقاب دنيوي عاجل، وآخر أخروي آجل منذ كتب الله على نفسه الرحمة – فأعفى البشرية من العقاب العاجل الذي كان مثله مع قوم نوح وعاد وثمود حين أجتثَّ تلك الأقوام من الجذور، وأما بعد نزول القرآن فأصبح العقاب العظيم آجلاً، وأما العقوبات العاجلة فهي من باب تخليص الحياة من الشرور والآثام وعلى رأسها عقوبة القتل والقذف والزنا والاعتداء على الأموال، فهذه عقوبات عاجلة لأنها تدخل في صميم الحياة اليومية للمجتمعات، وهي تختلف عن العقوبات الآجلة التي تبقى في يوم لا ريب فيه، وهو يوم الحساب العسير وعلى الظالمين غير يسير.

وهذه العقوبات الدنيوية التي نص عليها القرآن بالآيات، هي لحرصه على حياة المجتمع نظيفة خالية من الدنس والأرجاس، هي قمة العقوبات في سلّم العقوبات الدنيوية، وفيها حياة لأولي الألباب، ويمكن أن نضع الملامح الرئيسة لمثل هذه العقوبات القرآنية.

في القتل مثلا: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنْثَى بِالأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ، مِنْ أَخِيهِ شَيءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ [سورة البقرة: ١٧٨].

ولأن هذه القضية، لا مناص، منها لاستتباب الأمن والسلام في المجتمع إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.. أصرّ عليها في النص القرآني الآتي: ﴿**وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ [سورة البقرة: ١٧٩].

ومن نصوص القرآن في العقوبات أيضاً نأتي على الزنا وقذف المحصنات فنرى أن القرآن قد أولاهما أهمية كبرى حتى تستمر مسيرة البشرية على أحسن ما يرام. ﴿**الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُواْ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [سورة النور: ٢].

فهنا نلاحظ أن العقوبة جسدية – مادية – وكذا نفسية وزاد على ذلك أنه فصلهما عن المجتمع النظيف. فقال: ﴿**الزَّانِي لا يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لاَ يَنْكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [سورة النور: ٣].

وهناك نص خاص بقذف المحصنات، وذلك لإبقاء أعراض الناس وشرفهم بمنأى عن التهم والعبث! ﴿**وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ**

جَلْدَةً وَلاَ تَقْبَلُواْ لَهُمْ شهادةً أَبَداً وَأُولئكَ هُمُ الفَاسِقُونَ﴾ [سور النور: ٤].

هذه بعض النصوص في جريمة الزنا والقذف، ويمكن لمن أراد المزيد عن اللعان مثلاً أوغيره الرجوع إلى سورة النور لأنني لا أقصد من هذه النصوص وضع تفاصيل العقوبات القرآنية بقدر ما أقصد تفسير فلسفة العقوبات الدنيوية أولاً، ومن ثم الأخروية، ولا بأس قبل أن نأتي على ذلك أن نعرض لعقوبة السرقة هي الأخرى كما وردت في النص القرآني، إذ يقول تعالى: ﴿**والْسَّارِقُ والسَّارِقَةُ فاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزاءً بِمَا كَسَبَا نَكالاً مِنَ اللّهِ واللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ [سورة المائدة: ٣٨].

وأما النص الخاص بالمفسدين في الأرض فهو في قوله تعالى: ﴿**إِنَّما جَزَاؤُاْ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ في الأرضِ فَسَاداً أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْديهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنْفَواْ مِنَ الأَرْضِ ذلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ في الدُّنْيَا وَلَهُمْ في الآخِرَةِ عَذَابٌ عظيمٌ**﴾ [سورة المائدة: ٣٣].

وهكذا نرى إصرار القرآن على تحديد العقوبات في أمور لا تستحق التساهل لأنها تحطم المجتمعات إذا بقيت دون معالجة، وقد وضع لها العلاج الناجع، والدواء الشافي، وهذا لا يعني أن القرآن لا يهتم بالأخطاء الأخرى، وأنما وضع لها جهازاً ذاتياً رادعاً يتمثل في التربية أولاً التي تشكل الضمير والأخلاق فتزرع بذرة الوازع الأخلاقي الذي يردع النفس وقبل ذلك الوازع الديني الذي يضيء الطريق أمام المسلمين فيرجعون عن الغيِّ أو الضلال، وفوق ذلك وضع الله جهازاً مادياً يحاسب على الأخطاء المادية، فالعقل أعمل جهده في التشريعات، ووضع من النصوص والعقوبات في الكتب والملفات ما تنوء به الجبال من بداية البشرية إلى يومنا هذا وكلها تعاقب على السلوك الإنساني الذي لا يتحدَّد بأنماط معينة فكما هم الناس أنواع متنوعة في السلوك والأخلاق والضمائر فكذا هي أنواع الأخطاء كثيرة ولا تحصى ومنها الصغير، ومنها الوسط، ومنها الكبير، وأما النص القرآني فقد اختص بالأمور التي تهم كلَّ البشرية، كانت في دين الإسلام أو غيره، وقد كان القرآن سباقاً في وضع قاعدة المثل في العقوبة، إذ يقول: ﴿**وَإِنْ عَاقَبْتُم فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ به**﴾ [سورة النحل: ١٢٦].

وكلُّ الدول تستخدم هذه العقوبة حتى في الأعراف الدبلوماسية بين الدول تستخدم عقوبة المعاملة بالمثل.

وقبل أن نتوه في مثل هذه الأمور فلنرجع إلى العقوبات التي يختص بها العقل، وهذه

أصبحت كثيرة، منها في التجارة، والمعاملات، والصناعة.. سواء ما يتعلق منها بالعمال أو بأرباب العمل، وكذا في أعمال الزراعة والبناء والتشييد، وفي المصالح والمدارس والجامعات، وحتى داخل المجتمع الأسري حيث وضع لرب الأسرة تشاريع وقوانين للعقوبات التي يمارسها على الأبناء والأحفاد أو غيره.

وإن كانت هذه العقوبات ليست بالضرورة من صميم العدل وإحقاق الحقوق إلاّ أنها عقوبات وكفى.. وأما القرآن فإنه يرسخ القوانين والتشريعات التي تهمّ الحقَّ والعدلَ والمساواة.

وما نقصد من هذا القول هو أن العقوبات كثيرة وتتسلسل في درجات حسب المهنة أو الوسط الذي تعيش فيه، ولكن يتبقى كلمة لمن لا يطاله العقاب ويستمر في الظلم والاستغلال والعدوان والتدليس على بني جنسه أو ممارسة القتل والسرقة والزنا.. إلى آخر الممارسات السلوكية – غير الأخلاقية – فمن يا ترى يتكفل بعقاب هؤلاء، هل يذهبون إلى قبورهم دون عقاب وقد نفدوا بجلودهم وهم أفسدوا المجتمعات وأضلُّوها؟

لمثل هؤلاء نقول: إن العقاب الأعظم هو الذي يبقى في الآخرة وهذا يؤكد البعث ويوم الحساب.

هذا هو الفكر العقائدي الذي يكرسه القرآن في مدينة القرآن حين يقول: ﴿**وَلَهُمْ في الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾ [سورة المائدة ٣٣].

وكذا قوله: ﴿**وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خالداً فِيهَا وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ، وَأَعَدَّ لَهُ، عَذَاباً عَظِيماً**﴾ [سورة النساء: ٩٣].

إذا لن يفلت أحد أبداً من العقاب سواء في الدنيا أو في الآخرة ومهما يحاولْ بعضهم الإفلات منه في الدنيا فسيطاله في الآخرة.

وهذا لا يعني أنه لن يعاقب في الدنيا فقد يكون عقابه في مرض عضال ينخر جسده ويحيله إلى ركام أو في مرض يفقده لذة العيش كمرض الأغنياء والمترفين «مرض السكر» أو مرض يفقده راحة النفس فيضيق عليه صدره، في ضغط أو ربو.. أو يفقده ماله في عمل طائش أو خمر يزيل عقله أو في ميسر أو خسارة في تجارة أو زراعة.. وأمثلة ذلك كثيرة في الحياة اليومية أو في القرآن من مثل مال قارون الذي خُسِف به وبداره الأرض، أو كالذي قال حين رأى اخضرار مزرعته لن تبيد هذه أبداً، فأصبحت هشيماً تذروه الرياح. ﴿**فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى ما أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي**

أحَداً﴾ [سورة الكهف: ٤٢].

ولا أرى كَلماً جامعاً في هذا إلاّ قوله تعالى: ﴿**لهُمْ عَذَابٌ في الْحياةِ الدُّنْيَا وَلَعَذابُ الآخِرَةِ أشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ**﴾ [سورة الرعد: ٣٤].

الأطر العملية للأخلاق القرآنية

السلوك الأخلاقي ترجمة عملية للتربية الروحية القرآنية

هنا يبدأ الخلق القرآني يتأطر عملياً بأطر مادية وروحية، أما غير ذلك فهو مادي لا غير مدفوع أو مربوط بأوامر شخص أو كيان. وأما الخلق الروحي أو الوازع الخلقي فهو تطوير عملي لنوازع الديني وكأنه مربوط بعامل روحي أساسه الالتزام بعمل معين ولكن مع مراعاة الوازع الديني في التعامل، لذا قال القرآن وهو يضع بعضاً من السلوك الروحي أو الخلقي – الديني، ما نصه:

﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً﴾ [سورة الفتح: ٢٤].

وهذا تقريباً هو ما فعله الرسول بالكفار حين فتح مكة فقال لهم: «ما تظنون أني فاعل بكم. قالوا: خيْراً، أخ كريم وابن أخ كريم. فقال لهم: اذهبوا فأنتم الطلقاء».

هذا هو السلوك الأخلاقي بوازع ديني ذاتي، وهو عكس ما فعله الأوربيون حين دخلوا الأندلس وأعملوا بالقوم – من المسلمين – بطشاً وقتلاً وتحريقاً حتى إن الباقي منهم ألقوه في غياهب المحيط.

فالوازع الخلقي هو صدى الوازع الديني – الذاتي، الفرق أن الوازع الديني داخلي، وأما الأخلاقي فهو خارجي عملي، وكأنه يمثل المنطقة الظاهرية من الوازع، والأول هو المنطقة الداخلية الباطنة التي تتعرض في كثير من الأحيان للتزييف وإحلال عناصر أخرى غير الله إن على صعيد الخوف أو الحب، كما رأينا.

وبعد أن يطمئن القرآن في تربيته الدينية على الوازع الديني وكذا الوازع الخلقي.. يبدأ بوضع المبادئ والأساسات السلوكية التي تتراوح بين؛ لا تفعل.. وافعل.. لا تفعل كذا وافعل كذا، لأن النفس تكون مؤهلة حتماً للأوامر القرآنية أو الإلهية، كيف لا وقد عايشت التجربة وفهمت تفاصيلها بوحي من التربية القرآنية، التي كانت تمهيداً للإنسان القويم، وكذا السلوك القويم.

الأطر المحددة للسلوك الأخلاقي

وأولى النواهي والأوامر التي حرص عليها القرآن وهو يؤطر للسلوك القويم كان في مجال الاعتقاد – أولاً – ونرى ذلك في النص القرآني الآتي: ﴿**قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وبِالْوَالِدَيْنِ إِحْساناً وَلا تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَواحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْها وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾ [سورة الأنعام: ١٥١].

وأيضاً قال في آية أخرى: ﴿**وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾[سورة الأنعام: ١٥٢].

وهكذا بدأ يضع النقاط على الحروف إذ لا يعقل أن يترك الإنسان هكذا بدون دليل أو مرشد وإن امتلك القدرات الذاتية والأجهزة الروحية المتمثلة في الوازع الديني والأخلاقي ومن قبلها جهاز المناعة الروحي.

لأن هذه الإرشادات هي بمثابة تحديد المسؤولية بفعل كذا أو ترك كذا، بعدها لا بدّ من الجزاء إن خيراً فخير وإن شراً فشر..

وأما النواهي والأوامر بصدد الطعام فهي: ﴿**إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ والدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ به لِغَيْرِ اللّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ وَلاَ عَادٍ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّه غَفُورٌ رحِيمٌ**﴾[سورة البقرة: ١٧٣].

ولكن نرى – أيضاً – أن الله سبحانه وتعالى أوجد فرصة للمضطرين فقط بغير شطط أو إثم.. وهذا إن دلَّ على شيء فإنما يدل على عظمة المنهج القرآني في تسيير حياة الإنسان المادية والروحية، وهناك سلوكيات أخرى غير تلك المذكورة آنفاً وإن لم تكن بنفس الأهمية إلاّ أنها ذكرت بالنص القرآني لأهميتها في الحياة الدنيا.

فقال تعالى: ﴿**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الخَمْرُ والْمَيْسِرُ والأَنْصَابُ والأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ فاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾[سورة المائدة: ٩٠].

إن نظرة سريعة على بعض الأوامر والنواهي – الإلهية – التي تؤلّف الأطر السلوكية للإسلام والمسلمين، لهي تبدو بحق، نادرة المثال، ومن الملاحظات على تلك النواهي والأوامر ما يأتي:

أولاً: الامتثال والتوحيد وعدم الإشراك مع الله أحداً آخر، وكأن كلَّ قضايا الكون لا بدّ من أن تمرَّ عبر هذه الحقيقة، وهي أولى تجارب آدم في السماء، وهي القضية الأهم على ظهر الأرض وبها تسعد الأمم أو تشقى.. تماماً كما شقي الإنسان بغيرها.

ثانياً: قضية الإنسان الذاتية مع نفسه ومع غيره.. إذ الملاحظ من المحرمات أنها لا تغني الله في شيء ولا تهمه أيضاً في شيء.. لكن ما سبب تركيزه عليها كقاعدة من قواعد السلوك والأخلاق؟؟ هذا يرجعنا إلى قوله تعالى: ﴿**لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا ولكن يَنَالُهُ التَّقْوى مِنْكُم كَذلِكَ سَخَّرَها لَكُمْ لِتُكَبِّرواْ اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [سورة الحج: ٣٧].

من هنا نلاحظ أن الله غنيٌّ عن العالمين في كلِّ ما يفعلون وما يهمه هو التقوى منهم، وكذا هو بالدرجة الأولى حريص على حياة الإنسان أكثر من حرص الإنسان على نفسه، وإلاّ لما منع عليه الميتة والدم ولحم الخنزير.

فهذه ولا شك تتعلق بالضرر الذي يلحق بالإنسان من هذه الأطعمة، وأمّا الله فيهمه من الإنسان الامتثال. الذي ما برح يؤكده القرآن في آياته الكثيرة بهذا الصدد.

هذا المذكور عن علاقة الإنسان بربه وعلاقته مع نفسه والحرص على سلامتها أولاً وقبل كل شيء، لأنها أولى ركائز السلوك الإسلامي.

وأمّا علاقة الإنسان مع غيره فقد جاءت في الآيات الأخرى المذكورة في القتل سواء قتل الأولاد من الفقر، أو خشية الفقر، أو قتل الغير لأي سبب كان.

والعلاقة الأخيرة التي حرص المولى عزّ وجلّ عليها هي علاقة الإنسان مع الكون وأشياء الكون، ويكون ذلك بالتعامل مع الأموال أو الممتلكات إمّا أموال الغير أو حتى أموال المرء نفسه، لذا قال تعالى: ﴿**وَكُلُواْ واشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ**﴾[سورة الأعراف: ٣١].

وقال: ﴿**وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ، وأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُلاً**﴾[سورة الإسراء: ٣٤].

والأمر الأول هو قاعدة مثالية في الاقتصاد الأخلاقي الذي يحسب للأجيال حسابها في خيرات الأرض.. وكأنه يقول لا تبددوا هذه الخيرات لأن ذلك من عمل الشيطان، لأن أي عمل زائد أو استهلاك زائد عن قاعدة الاعتدال لهو أكل لأموال وحقوق الغير. ليس ضرورياً أن يكون الغير، هم من هذا الجيل، لأن الكون واحد والرب واحد، والعباد هم عباد الله في هذا الزمن أو غيره، لذا قال تعالى في محكم كتابه: ﴿**وآتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ**

والْمسكِينَ وابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيراً، إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوانَ الشَّياطِينِ وكَانَ الْشَّيطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورا﴾[سورة الإسراء: ٢٦ و٢٧].

وكأننا أمام شجرة الشهوة التي أكل منها آدم في السماء، فقط هناك الخطوط العريضة والنموذج الفردي، وهنا التجربة العملية، والتفاصيل، الأمر الذي يحلو لي أن أنوه عنه هنا بأن أمر آدم في السماء كان مجرد تجربة ليس إلاّ، وقال بذلك بعضٌ غيري، لأن الظواهر تؤيد ذلك حين خاطب المولى عزّ وجلّ الملائكة بقوله: **﴿إنّـي جاعِلٌ فـي الأرْضِ خَلِيفَـةً﴾**[سورة البقرة: ٣٠].

معنى ذلك أن هبوط آدم أمر مقطوع به وما ذلك إلاّ تجربة الاختبار والاختيار ومن ثَمَّ الخطأ والصواب وجزاء الامتثال وعقاب التمرد والارتداد، والخضوع للغير..

هكذا يتراءى لي من «افعل.. أولا تفعل» كلّ أولا تأكل.

نماذج السلوك في الإسلام

هذه السلوكيات وتحديدها بشكل واضح ومحدد تضعنا أمام نموذجين متفاوتين؛ نموذج إسلامي.. أو نموذج المسلم.. ونموذج إيماني.. أو نموذج المؤمن.. ونحن هنا لا نخترع من بنات أفكارنا بل هذا ما يظهر جلياً في سطور التراث الديني برمته أو من آيات القرآن وهذا يمكن أن نحدده كما يلي:

نموذج الإنسان المسلم:

باديءَ ذي بدء، نذكر الآية القرآنية الآتية: **﴿قَالَت الأعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لمْ تُؤمِنُواْ ولكن قُولُواْ أسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإيمانُ في قُلُوبِكُمْ وإنْ تُطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ لاَ يَلِتكُم مِنْ أعمالِكُمْ شَيْئاً إنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رحيمٌ﴾** [سورة الحجرات: ١٤].

هذه الآية ترسم لنا الأطر السلوكية للإنسان المسلم. أو هي بداية الفصل بين الشخصية المسلمة والشخصية المؤمنة.

وإني أرى أن الإنسان المسلم هو الإنسان الذي استسلم للقويّ الجبار، على الأقل في المراحل الأولى للإسلام، ومن ثَمَّ التزم بالأركان الأساسية للإسلام، أو قل امتثل للوجود الإلهي، وأصبح سلوكه ردّ فعل هذه الحيثية الجديدة. صحيح أنه قد يتمرد سلوكياً فيأكل لحم الخنزير مثلاً أو الميتة وهي السلوكيات التي يجب أن يلتزم بالابتعاد عنها المسلم، على

الأقل، إلاّ أنه – وإن فعل ذلك وأكلها عمداً أو غير ذلك – فإن الإسلام لن يخلع عنه هذه الصفة الإسلامية لأنه ما زال مرتبطاً بالخيوط الأولى للإسلام وهو الإذعان للقوي. ومثل هذا لا يخرج عن كونه مسلماً سلوكه سلوك رد الفعل. ورادعه الخوف من الله لا الحب لأنه لم يصل إلى درجة الإيمان الذي يبدّل الخوف بالحب.

من هنا نرى أن درجة الإيمان عظيمة ولا يستحقها أي شخص مسلم. إلاّ بالعمل الصالح الدؤوب وكذا العبادة والامتثال للخالق العظيم.

نموذج الإنسان المؤمن

من هذا نريد أن نقول: إن السلوك يختلف بين الأفراد، فالسلوك الذي رادعه الوازع الديني فقط أضعف من السلوك الذي وازعه الخلق الإيماني الشامل لأن الوازع الخلقي هو وازع المؤمن، وأما الوازع الديني فهو ردود فعل الوازع الديني الذي يخيف الإنسان المسلم من عظمة الله وعقابه يوم القيامة.

وقد تكون بعض الشبهات بين الوازع الديني والوازع الخلقي الإيماني ربما قصوراً في التعبير إلاّ أن ذلك حسمه القرآن حين فصل بين سلوك المسلم وسلوك المؤمن ووضع كلاً منهما في إطار خاص به، وها هو يحدد ذلك بالنص القرآني: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ**﴾ [سورة الحجرات: ١٥].

هنا يدخل الإيمان القلوب، ويحصل الخلوص لله ومن ثَمَّ ينعكس ذلك على السلوك فيصبح في دائرة الوازع الخلقي – المتكامل، كما قيل للرسول وهو أول المؤمنين ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾ وقال الرسول نفسه: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**».

الحق من ذلك وضعت درجة الوازع الخلقي الإيماني في قمة السلم السلوكي من حيث الوازع، وبذا يكون أعلى درجةً من الوازع الديني.. وهو صفة المسلم ليس إلاّ.

وقضية الجهاد بالأموال والأنفس هي بمثابة التفاني في الحب للمولى عزّ وجلّ. ومن ثَمَّ انتقال الامتثال من رادع الخوف إلى وازع الحب، وهو أعلى درجات الإيمان كما قلنا من قبل.

جوهر السلوك الإيماني في مدينة القرآن

وسلوك الإنسان في المدينة القرآنية لا شك أنه سلوك المؤمن الذي تخطّى درجات

الخوف من الله إلى درجة الحب.. حب الله، ولا بأس أن نضع ملامح هذا السلوك كما يوحي به القرآن، وذلك من نص آية الإيمان المذكورة – آنفاً، ويمكن أن نضع عناصر السلوك الإيماني المذكور في ثلاث هي:–

أولاً: انعدام الشك والريبة في الوجود الإلهي الذي هو هاجس الإنسان العادي.. فتارة ينمو.. وتارة يختفي وهو ما نلاحظه في بعض المسلمين الذين لا يعرفون من الإسلام إلاّ أساسه الأول وهو الشهادتان أو الانتماء الوراثي أو الهوية الإسلامية ليس إلاّ، وهذا – ولا شك – يعكسه ضعف الجماعة الإسلامية في عصرنا الحاضر. فلو كان الإيمان واليقين هو رائدها وهاجسها لما كانت هذه الملايين من المسلمين في مثل هذا الضعف والانحطاط والاستكانة للأمم، وهم قد دانت لهم الأمم – يوماً ما – وقادوها إلى برِّ الأمان والسلام، وأما اليوم فلا نحن رواد الحضارة المادية، ولا نحن رواد الحضارة الروحية، وهذا – ولا شك – هو انحطاط روحي ووهن في النفوس المسلمة.. ولا يجب أن يحسب على الإسلام لأن الإنسان المسلم إسلاماً حقيقياً بحيث يصل إلى درجة الايمان الحقيقي لا يمكن أن يقبل لأمته بمثل هذا الضعف والوهن والانحطاط في كلِّ أمور الحياة العلمية منها والإيمانية، ومن ثم قد يقول قائل: «إن الإيمان قد يعوق التوجه العلمي العصري أو الحضاري».

هذه – ولا شك – نبرة وافدة على مجتمعاتنا يمكن دحضها بالرجوع إلى التراث الحضاري – الإسلامي في شتى مجالات الحياة والتعرف على الإسهامات الإسلامية في شتّى الأمصار في الطب والرياضيات والترجمة والفنون والأبحاث الفلكية أو غيرها من الأبحاث.

وأمّا ما نحن فيه فهو التردُّدُ والريبةُ في الدين والاعتقاد ومن ثَمَّ الانتماء إلى عقائد أخرى وهجران العقيدة الإلهية الصحيحة، ومثل هذا يضعف الانتماء الحضاري للمسلم فيصبح كُلٌّ واحد منا في تصورٍ أو عقيدة، الأمر الذي شتَّتَ جهودنا وبعثر إمكاناتِنا إلى عدة انتماءات أو مذاهب.

ثانياً: الوازع لدى المؤمن الحقيقيّ هو وازع إيماني أخلاقي ومثل هذا الوازع ينبع من القلب.. ولذا تجد أكثر السلوك الإيماني سلوكاً تطوعياً حراً بدون رادع أو عقاب خارجي وكأنه العقيدة الراسخة التي لا تحتاج إلى دليل. غير وازع الإيمان والخلق.

فالإسلام، حدد سلوكاً للفرد بكذا أو كذا ولكنه أيضاً أطّلع المؤمن على سلوك أكثر رقياً وأرقى درجةً في السلوك، فحين يقول: ﴿**وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصابِرِينَ**﴾[سورة النحل: ١٢٦].

فالسلوك الأول: هو سلوك المسلم لأنه عقاب بالمثل، وهذا من حقه ولا أحد ينكره عليه. وإن فعله فلا ذنب عليه، ولكن الدرجة الثانية هي أرقى في السلوك، ولكنها تطوعية لمن أراد أن يدخل في سلك الإيمان، وهذه الأخيرة أجرها ليس في الدنيا ولكن في الآخرة، وكأن الأول أخذ حسابه أولاً بأول فلم يبق له شيء في الآخرة تماماً حين يقول: ﴿**مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نصيبٍ**﴾[سورة الشورى: ٢٠]. وكذا ﴿**فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا إِتِنا فِي الدُّنْيَا وَمَالَهُ فِي الآخِرَةِ مِن خَلاَقٍ**﴾[البقرة ٢٠٠].

هكذا يتعلم الإنسان في مدينة القرآن – تُبسط له الأمور كما هي.. ولكن تكشف له وجوه الخير كما تكشف وجوه الشر وتضع للعقل فرصة الاختيار، فلا إكراه في الدين والاعتقاد.

وهكذا حرية تجعل المؤمنين فيها قلوبهم خاشعة تتفانى في حب الله.. أعمالها تطوعية، راجية الأجر في الآخرة وليس في الدنيا.. وبرغم ذلك فإن الله يُجزل لهم العطاء أيضاً في الدنيا.. وها هو مثال على ذلك سيدنا إبراهيم عليه السلام فيقول تعالى: ﴿**وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ والْكِتابَ وآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ**﴾[سورة العنكبوت: ٢٧].

أما العنصر الثالث فهو جهاد النفس والأموال:

قد يتبادر إلى الذهن أن الجهاد هو القتال فقط، ولكن الجهاد يكون مباشرة بالجسد، وهو بمثابة سلاح مادي يعمل في القتال عملاً مباشراً ويكون أيضاً بالروح، وقد يكون الأخير هو أكثر شراسة من الأول لأنه بمثابة انتزاع النفس الشريرة من حنايا الإنسان، ولا تعمل هذه النفس إلاّ في أوقات الراحة والهدوء، وأما في العمل والحركة والجهاد المباشر فلا تستطيع مباشرة أعمالها، لذا قال الرسول العظيم: «**رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر**» وكأني به يريد أن يقول إن الجهاد الأصغر كان مع شياطين الإنس، أما الجهاد الأكبر فهو مع الشيطان الحقيقي الذي أعلن العداء للإنسان على رؤوس الأشهاد.

ويكون ذلك مترجماً إلى سلوكيات أخلاقية أو غير أخلاقية إن كان موضوع السلوك العبادة أو الاعتقاد أو البذل بالأموال. فالشيطان هو الذي يحرك النفس الأمارة بالسوء ويبث فيها روح الحياة الآثمة. هذه الحركة إمّا أن تكون على شكل شهوة الجنس، أو البخل، أو

التراخي في العبادات، أو الارتياب في الوجود الإلهي.. كلٌّ ذلك من أعمال الشيطان ووساوسه التي لا تزدهر إلاّ إبان السلام وليس الحرب، فيكون بذلك جهاد النفس وصراعها.. ومثل هذه الأعمال السيئة تؤدِّي بحياة الإنسان إلى التهلكة.. لهذا ميّز الله بين المسلمين والمؤمنين. وكان هذا التمييز في السلوك الأخلاقي تماماً كما كان يقول لهم: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾.

والمؤمن الحقيقي – يكون جهاز المناعة الروحي عنده في قمة نشاطه وهو الذي يخضع الغرائز ويروِّضها.. ولا يكن تابعاً أو خاضعاً لها.. والغرائز هي الوسائل الطيعة لوساوس الشيطان.. ولكن هذا يتنافى مع السلوك الإيماني، وقد يتجاوب معه السلوك الإنساني الضعيف، الذي تعوزه فعالية الروح الإيمانية، أو النفس اللوامة.

السلوكيات المادية والروحية للإنسان في مدينة القرآن

وحتى مثل هذا القول يبقى في ضمن التعميمات الإيمانية أو الإسلامية في مدينة القرآن. لكن هناك سلوكيات محدَّدة للإنسان المسلم وكذا للإنسان المؤمن، أو هي بمثابة شروط الإسلام، وكذا شروط الإيمان، وهو الدرجة العليا في الإسلام لأننا كما نعرف أن العقيدة أو الاعتقاد الروحي يُغذّي كما يُغذّى الجسد المادي، وكل حالة من حالات التغذية بمثابة مرتبة في الإسلام، فهناك المسلم، وهناك المؤمن، وهناك المتصوف، وهناك الولي، وهناك العارف، وهناك الصديقون، وهناك الأنبياء، وهم أعلى مراتب الإيمان.. وهذه الدرجات في سُلَّم الإسلام أو الإيمان يحتمها العمل التطوعي والنوافل بالدرجة الأولى.. وهذه – ولا شك – تتمحور حول الوازع الخلقي – الإيماني، لذا قال المولى عزّ وجلّ للرسول الكريم: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾ وقال له أيضاً: ﴿**أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرآنَ الفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودا**﴾ [سورة الإسراء: ٧٨].

هذا المذكور هو سلوك المؤمن الملتزم، ولكن سلوك النبي أفرد له ميزةً أخرى حين قال: ﴿**وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً**﴾ [سورة الإسراء: ٧٩].

هذه أيضاً من خصائص المؤمن وامتيازه في النوافل عن المسلم ولكن هي مشتركة مع الأنبياء، ويبقى فضل الأنبياء هو في الذات البشرية، فهي طاهرة مطهرة ربما لا يقع في سلوكياتهم اليومية أدنى خطأ، وعليه فإن النبي قد أحسن تربية الجسد وكذا تربية الروح، وأما المؤمن فهو لا يُعْصَم من الأخطاء السلوكية. وغالباً ما يقع في الكثير منها، وتبقى في

نوافله التي يمارسها العفو والغفران، ولكن القرآن يضع السلوكيات المُثلى.. والوسط.. لأن ما جاء به .. فهو دين الوسط للأمة الوسط.. ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً﴾.

ولكنه لا يمنع على أحد الاستزادة وسلوك الطريق الأمثل فلكلٍّ حسابُهُ وأجرُهُ.

وهكذا يتبدَّى المعنى الحقيقي للأخلاق في سلوك المؤمن وخلقه وهو سلوك روحي لا حدودَ ماديةً له، أي لا تحكمه المصلحة المادية البحتة التي هي هاجس الإنسان غير المؤمن مهما تكن ديانته. فالمسائل الاعتقادية بدأت أول ما بدأت بالرغبة المادية وإشباع هذه الرغبة، لذا انتشر التصور المادي الحسي للألوهية، ولم يتخلَّ الإنسان عن ماديته في الاعتقاد إلاّ تحت وطأة الظلم والظلام الذي لبسه الاعتقاد المادي للألوهية. ومن ثَمَّ بدأ يتحرر من وطأة هذه الطواغيت والكوابيس التي أثقلت كاهله، وكان ذلك يوم بزوغ فجر القرآن، وهو وحده الذي حطم الأوثان.

وبذا للإيمان الإلهي طعم آخر وسلوك أرقى في نقل الاعتقاد المادي لدى الإنسان إلى الاعتقاد الروحي، وهذه الملاحظات لم نذكرها إلاّ توطئة للدخول إلى السلوك الروحي القويم. البعيد عن المصالح المادية البحتة. ولنضرب أمثلة على بعض هذه المصالح في الاعتقاد لعلها تكون أكثر توضيحاً كما نقول:

في المحرمات التي ذكرناها؛ من أكل الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وكذا معها شرب الخمر، أو القتل، أو الزنا، أو الاعتداء على الأموال، نعم فهذه المحرمات لا دخل فيها للجانب الروحي وإنما هي سلوكيات مادية يكون لها انعكاسات مادية، وقد تؤمن بها مجتمعات غير إسلامية، وقد تجد لها مواضع في كثير من التشريعات الوضعية، والسبب أنها ممارسات مادية ينعكس عليها عقوبات مادية بالمثل إن لم يكن من الدولة فمن ذات السلوك، ففي شرب الخمر قد يكون له جانب عكسي أو عقاب عكسي على الصحة مثلاً أو عقاب المجتمع، لأسباب مادية، وكذا أكل الميتة، والدم، ولحم الخنزير، فقد تكون لها جوانب صحية سيئة على الجسم – المادي، لذا قد يلجأ كثير من الناس إلى تركها لا بوازع الخُلُق والضمير ولكن بوازع الحرص على الحياة والصحة ليس إلاّ.

ومثل ذلك – في القتل، والزنا، والاعتداء على الأموال، ففيها جوانب سلوكية معاكسة، فالقاتل قد يُقتل إن لم يكن من قِبَل القانون فمن قِبَلِ صاحب الشأن، وكذا في حالة الزنا، والاعتداء على الأموال.. ومن ثَمَّ ما السلوكيات التي تؤلِّف الخلق القويم والضمير الحي؟؟ إن الإجابة على هذا السؤال تحتاج إلى الدخول في معترك الحياة الدينية والعلاقة مع

الخالق أو ما يسمى بالعبادات الروحية..

سلوكيات الإنسان الروحية مع الخالق

هناك ركن أساسي في خلق المؤمن وهذا يتجلّى مع الخالق، حين بدأ الإنسان بممارسة العبادات، والعبادات هي بحق بداية التربية الخلقية القويمة، لذا قال تعالى عن ركن الصلاة ما يأتي: ﴿**إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عن الْفَحْشاءِ والْمُنْكَرِ**﴾.

والصلاة قد ينظر إليها على أنها حركات ليس إلاّ، ولكنها – وإن كان في الحركات بعض النشاط الجسمي المادي – ضرورة لإذكاء شعلة الإيمان وتوطيد العلاقات والروابط الروحية مع الخالق، وهي من أكثر العبادات روحانية لأنها سلوك روحاني خالٍ من المنفعة المادية البحتة، وكلما استزاد المرء منها زادت عزيمتُهُ وإيمانُهُ، وحَسُنَ سلوكُهُ، وطَهُرَتْ سريرتُهُ، واستقام خُلُقُهُ، ومن ثَمَّ فإنها حقّاً تنهى عن الفحشاء والمنكر. وهي تعكس الإيمان والعقيدة فلا أحد يأتي بعصا ويأمر الناس بالصلاة، ولا أحد يعرف كم ركعة صلّى فلان أو علان، فهذه علاقة مع الخالق لا يعرفها إلاّ الخالق، ولا يبدو فيها مصلحة أو رياء.

لذلك نرى بعض المجتمعات الإسلامية – وقد ضعفت لديها هذه الفضيلة – بدأ روحها يضعف، وهذا يظهر في السلوكيات التطوعية، التي لا عقابَ ماديّاً على تركها ولا ثوابَ ماديّاً على فعلها مثل، الإخلاص، الأمانة، الصدق. فهذه مزايا أخلاقية بحتة أكثر جزاؤها في الآخرة وهي في المجمل العام تمثل طاقة كامنة لدى المجتمعات إن تمسكت بها قويت وازدهرت حياتها، وإن تركتها طالها الخواء الروحي والضعف المادي أيضاً.

صحيح أن أثر الصلاة لا يبدو جليّاً على المستوى المادي إلاّ أنها في المدى البعيد تُظْهِرُ طُهْرَ المجتمع ونقاءه في السلوكيات العامة والخاصة، وبمقدار التطوع في الصلاة والقيام بالنوافل يزداد الروح الإيماني لدى الإنسان، ومن ثمَّ تظهر في سلوكياته، لذا أوصى الله تعالى نبيَّه بالنوافل: ﴿**وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لكَ عَسَى أن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْموداً**﴾[سورة الإسراء: ٧٩].

والصوم، ماذا فيه من الخصائص حتى اعتبر ركيزةً من ركائز الإسلام وهو في المستوى المادي لا يعني إلاّ العطش والجوع والألم والمشقة.

لعمري إنه مصدر التربية الخلقية الحقيقي، ففي ركن الصوم فضيلة الصبر، والامتثال، والطاعة.. وقد يقول قائل: وما مضمون هذه الفضائل المذكورة من فوائد في السلوك

اليومي؟

إن فضيلة الصبر لهي أكبر الفضائل في خُلُقِ المؤمن وسلوكياته، فهي تعوّد كظم الغيظ، الذي يتبعه سلوك طائش من قتل أو سبٍّ أو شتم، وفي ذلك بداية الفتن والمشاكل بين الناس. وفي الامتثال أكبر الفضائل في النظام والسلوك، وهو بذلك التزام سلوكيٌّ يوميٌّ بكذا وكذا دون خروج عن دائرة المعقول، وبذا يعود النظام إلى المجتمع وهو بداية التقدم والازدهار.

هذا، وناهيك عن الفوائد الأخرى في ضبط الوقت وتنظيم الغذاء على وجبات محددة.

كلُّ ذلك يصبُّ في الإطار الروحي للخُلُقِ القويم، ولم نأت على ماديات الصوم في الصحة وتوفير الأغذية والمواد والسلع.

من هذه الأمور ندرك حقيقة الحكمة الإلهية في فرض الصوم وأنه لم يفرض اعتباطاً. وإن كان فيه من حكمة حسنة فهي الحكمة الإلهية الخاصة باختبار المؤمن من غير المؤمن. لأن الصوم هو أيضاً علاقة سرية بين العبد وربه. ولا أحد يجبرك على الصوم، فيمكن للإنسان أن يقفل على نفسه بابه ومن ثمَّ يأكل من الطعام والشراب ما يحلو له. ولكن في الصوم يكون الاختبار الحقيقي كما هو اختبار آدم في السماء حين قال له: لا تأكل من هذه الشجرة، وأعطاه مطلق الحرية في الاختيار، وكذا هو الصوم فالإنسان لديه مطلق الحرية في الصوم أو تركه.

وحتى ركن الزكاة يكون فيه الإنسان بحيث لا أحد يطلع على أسراره، وبذا فهي محك عمليٌّ للمؤمن وسلوك المؤمن، وهي وسيلة لإذكاء روح البذل والتضحية والعطاء لدى المؤمن ، وهذه أيضاً لها سلوكيات روحية أخرى من مثل؛ القناعة، وعدم التهافت على السلع والمواد والشهوات، لأن الإنسان حينئذ يكون قد اعتاد التنازل عما يملك، ومن ثم يكون قد تربَّى على فضيلة التضحية لأن الشح والبخل من أسباب الشرور في المجتمعات وكذا هي طرائق الحقد والحسد والفساد في الأرض.

ومن هنا كانت الحكمة في فرض الزكاة، فهي إذكاء لروح المؤمن ناهيك عن الجوانب المادية الأخرى من مثل، تزكية الأموال، ومساعدة الفقراء والمحتاجين والضعفاء.

وكذا ركن الحج فيه صبر وامتثال وطاعة، وهي عناصر الاعتقاد والإيمان الحقيقي.

وحتى هذه عبادة روحية – لا يُجبر المرء على القيام بها. لذا قال المولى عزّ وجلّ في النص القرآني: ﴿**وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً**﴾[سورة آل عمران: ٩٧].

إذا فهو ركن اختياري، وكذا اختباري للمؤمن الحقيقي لأن تركه لا يترتب عليه عواقب دنيوية مادية كالتي نوّهنا عنها من قبل، لذا فهو في صميم الأخلاق الحميدة للمؤمن.

هذه هي عناصر الإيمان الحقيقي، وفيها يبعث الضمير حيّاً في روح الإنسان ومن ثمّ تنعكس على سلوكياته اليومية في التعامل مع الخالق أولاً، ومع النفس ثانياً، ومع الآخرين ثالثاً، وكلها مرت عبر المبدأ الإسلامي العتيد ﴿**لا إكْراهَ في الدّين**﴾.

المبادئ والمثل التي تحكم سير العلاقات الإنسانية في مدينة القرآن

مبدأ التسامح هو الذي يحكم العلاقات الإنسانية في مدينة القرآن

مما سبق يظهر لنا مدى الحرية التي تنطوي عليها العبادات أو العلاقات مع الخالق. وكأني بها تمهد لأمر عظيم.. وفعلاً هي تمهد لخروج الإنسان المؤمن من صومعته مع خالقه إلى ساحة التعامل مع البشر في شتى النواحي السلوكية وفي كل الأماكن التي يوجد بها الإنسان.. وكأنه يخرج وقد ربته العبادة تربية صالحة. بعدها يكون بوسعه التعامل مع الناس بحرية وانطلاق ودون خوفٍ على المجتمع من أمثال هؤلاء. كيف لا وهو يقول له: لا بل يربيه على التسامح، بادئ ذي بدء، في قوله تعالى: ﴿**ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ**﴾[سورة المؤمنون: ٩٦].

مثل هذا السلوك يقرب النفوس ويزيل الأحقاد وقد يكون وازعاً للتقارب والتوادّ والتراحم. فيقول له: ﴿**وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عداوَةٌ كأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ**﴾[سورة فصلت: ٣٤].

هذه هي التربية القرآنية.. في مدينة القرآن.. تعطي كل ذي حق حقه ولا تيأس من الإصلاح والهداية والإرشاد، حتى العدو.. الذي يحسبه المرء عدواً لدوداً، قد يكون ولياً حميماً، باللين والتسامح وبالسلوك القرآني الحكيم، وهذه التعريفات السلوكية أمثلةٌ على عناصر الخُلُق الإسلامي القويم الذي تسعى إليه التربية القرآنية، ولم تبق مجالات الوعظ والإرشاد مجرد تهويمات لا أساس لها ولا حدود، ولكن هي تضع أيضاً النقاط على الحروف، فهذا تسمية عنصر التسامح تذكية في روح المؤمن قبل أن ينزل إلى ساحة العمل والتعامل مع الناس، وهو يخلو من الثواب المادي. وكل ما يحمله وينطوي عليه هو ثواب – روحي – ليس إلاّ.

حتى في القول والمجادلة والنقاش لا بدّ من التعامل باللين والحسنى مع العدو قبل

الصديق، فها هو يقول للرسول العظيم وهو يناقش القوم ويجادلهم: **﴿ادْعُ إلى سبيلِ ربّكَ بالْحكْمَةِ والمَوعظَةِ الْحَسنَةِ وجادِلْهُمْ بالتّي هي أحْسَنُ إنَّ ربَّكَ هُوَ أعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سبيلِهِ وَهُوَ أعْلَمُ بالمُهْتَدِينَ﴾** [سورة النحل: ١٢٥].

والخطاب ليس موجهاً للرسول الكريم بل هو دستور أبدي للحوار الفكري بين الناس بحرية وتسامح فيقول: **﴿وَلاَ تُجادِلُواْ أهلَ الكتابِ إلاَّ بالَّتي هِيَ أحْسَنُ إلاَّ الَّذينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ وَقُولُواْ آمَنَّا بالَّذي أُنزلَ إلَيْنَا وأُنْزِلَ إلَيْكُمْ وإلهنا وإلهكُمْ واحدٌ ونَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾**[سورة العنكبوت: ٤٦].

إذا كان في أعز قضية وهي قضية التوحيد، يدعوهم للحوار بحرية وتسامح فما بالك بالقضايا الثانوية الأخرى.

والحق أننا بدأنا بهذا المبدأ – مبدأ التسامح – لأنه مدخل السلوك القويم في البيت، وفي الشارع، وفي العمل، وفي المدرسة وفي كل حنايا المجتمع، ونلاحظ فية العمل التطوعي بشكل جلي، لأنه تنازل للجانب الآخر الذي يخاطب بغلظة وشدة وكان الأحرى أن يعامل بالمثل، ولكن في التربية القرآنية كما رأينا تتجاوز هذه السلوكيات المادية حتى في العقاب الذي ذكرناه من قبل ويمكن أن نذكر بعض حالاته الآن. قال تعالى: **﴿والَّذين يَجْتَنِبُون كبائرَ الإثْمِ والْفَواحِشَ وَإذاَ مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾** [سورة الشورى: ٣٧].

أليس في الغفران يكمن العمل التطوعي المتسامح، الذي يتسم بالخلق القويم، والسلوك الروحي، الذي يطلب الجزاء في الآخرة وليس في الدنيا فهو لا يبحث عن مزايا مادية، وجزاء مثل هؤلاء، جاء في الآية التي قبلها: **﴿فَمَا أُوتيتُم مِن شَيءٍ فَمَتاعُ الْحياةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وأبْقَى﴾** [سورة الشورى: ٣٦].

وبعدها عدّد الأشخاص الذين اختصهم برحمته يوم لقائه.. فكان منهم الذين **﴿وإذا مَا غَضبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾** وتظهر هذه الخصلة الحميدة في سلوك المؤمن في نفس الآية الآتية: **﴿والَّذينَ إذا أصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾**.

هؤلاء يعاقبون بمثل ما عوقِبُوا به ويعتدون بمثل ما اعتُدِيَ عليهم، ولكن تكون نعم العقبى في السلوك الأعلى الأمثل.. حين قال المولى عزّ وجلّ: **﴿وَجزَآءُ سَيئةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وأصْلَحَ فأجْرَهُ عَلَى اللَّهِ إنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالمينَ﴾** [سورة الشورى: ٤٠].

الحق، الأمثلة هي كثيرة في الغفران والتسامح مع الآخرين.. ولكن نحن بصدد الوازع

الخلقي الذي يفعل فعله في السلوك اليومي مع الآخرين، وقبل أن ننتقل إلى مبدأ آخر من مبادئ الأخلاق الإسلامية التي تتبناها المدينة القرآنية في تربيتها للأوائل لا بدّ من أن نقول: إن القرآن يحمل في فحواه مثل هذه النفحات الروحية في السلوك لا بل وكأنه مبادئ السماء تتمحور حول هذا المبدأ، فالعقاب يكون بالمثل ولكن يبقى جزء منه للتسامح ومن ثَمَّ الأجر في مكان آخر أو في مدينة أخرى، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على ارتباط هذه المدينة بالمدينة الأخرى، وهذا يضطرنا لأن نأتي بآية صريحة على ذلك.. فيقول تعالى: ﴿**وَمِمَّن حَوْلَكُم مِنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى النِّفَاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ**﴾ [سورة التوبة: ١٠١].

وهناك آية أخرى تقول: ﴿**قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُكراً**﴾[سورة الكهف: ٨٧].

وحتى في الأعمال التطوعية تُظهر أن هناك أجراً آخر في مدينة أخرى لا سيّما للذين يصفحون ويتطوعون بالأعمال الصالحة ففي الصيام يقول: ﴿**فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُواْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُم تَعْلَمُونَ**﴾ [سورة البقرة: ١٨٤].

وهكذا تتضح فحوى العقيدة القرآنية وفحوى السلوك القرآني. والحق لا يصل إلي هذه المراحل السلوكية إلاّ من هو مواظب على المدرسة القرآنية والتربية العظيمة التي تبثها في روح المؤمن.. لأن الإنسان كما ذكرنا مفطور على حب المادة وهي غريزة في ذاته ولكن أيضاً هناك غريزة روحية، وللأسف كثيراً ما تغلب الأولى فتطبع السلوك بالمادية، ومن ثَمَّ بالجزاء العاجل – المادي – وهذه هي التي تخرب العقائد وتذكي عوامل الإلحاد، لأنها تلغي المراقبة الإلهية، وتنسى أن هناك عقاباً وثواباً في مدينة أخرى.

سير العلاقات الاجتماعية في المجتمع الأسري

بعد ذلك نستطيع أن نطمئن على دخول المؤمن إلى الخلية الأولى من المجتمع، وبذا يبدأ بتكوين مشروع حضاري أخلاقي في البيت مع الزوجة التي يختارها وفق المبدأ الإسلامي العظيم وهو «**عليك بذات الدين تربت يداك**» وكأن في ذلك ضمانة حقيقية لسلوك أخلاقي في أسرة أخلاقية.. إذ لا يعقل أن نبني بيتاً أو أسرة على أركان متهدمة من أخلاق سيئة وروح خاوٍ من الدين والاعتقاد. ومن ثمّ نطالب بمجتمع أخلاقي سليم.

هذا أمر لا يمكن حدوثه في وضع غير سليم.. لأن البيت الإسلامي القوي الأركان لا

بد أن يخلق معه أبناءً بنفس الصفات، ومن ثَمَّ تتجذر المبادئ والسلوكيات الأخلاقية في المدينة قبل البيت، وحتى هؤلاء الذين دخلوا أول خلية في المجتمع يدخل معهم القرآن بالمبادئ والقيم والأخلاق يربيهم ويحسن تربيتهم فيقول: ﴿**وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ**﴾[سورة النساء: ١٩].

وقبل ذلك يقول: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَن خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَوَدَّةً وَرَحْمَةً**﴾[سورة الروم: ٢١].

لا يمكن للإنسان العادي أن يتعامل مع زوجه بمثل هذه الأخلاق فهي أيضاً أعمال تطوعية وروحية، وأما في المجتمعات الأخرى فهي أعمال مادية (خذ.. وهات)، وقلما تجتمع الأسرة على عناصر المودة والرحمة والمعاشرة بالمعروف، فالعلاقة بين الزوجين علاقة مادية بحتة تنتهي حال انتهاء تلك العلاقة المادية، حتى الأطفال قلما يجتمعون مع آبائهم أو أمهاتهم فهم يسرحون ويمرحون كما يقول لهم المجتمع أو يهييء لهم من فرص الحياة الأخرى، وكل ذلك تحت وطأة الحرية.. والحضارة الحديثة.. ونكتفي بهذا التصحيح عن زيف سلوك أولئك الذين يدّعون الحضارة والتقدم وكفانا ما نرى من آثار ذلك السلوك من جرائم العصر الحديث.

القرآن يتعامل مع الأسرة وكأنها صورة مصغرة لمدينة القرآن أو أنها نموذج المدينة.. إن فشلت فلا بدّ أن يكون لذلك أكبر الحوادث على كامل المدينة ولكن – كما رأينا – فإن التمهيد لدخول الأسرة الصالحة كان تمهيداً جاداً وحضارياً وكأنها البذرة الأولى التي يحيطها بكامل الرعاية.. فالمبادئ الأولى للتربية القرآنية والقائمة على أسس عقيدية ودينية لا يمكن إلاّ أن تفرز بذوراً صالحة لمجتمع صالح.

وعليه قلما تظهر ظواهر الفساد في هذا النموذج المصغر لمدينة القرآن إلا أن القرآن احتاط لكل الاحتمالات، فوضع أيضاً مبادئ تحكم هذا النموذج ويمكن أن نضع أمثلة لهذه المبادئ.

مبدأ الشورى

مبدأ التشاور بين أفراد الأسرة الواحدة مبدأٌ يربّي فيهم تبادل الآراء للوصول للتي هي أقوم، والهدف من ذلك هو التربية الخلقية.. وكذا أهداف حياتية بحتة من مثل الاطمئنان والسعادة الزوجية. ولكن لا ننسى أن النجاح في مبدأ التشاور في الخلية الأولى للمجتمع له

انعكاساته على المدينة بكاملها، لا بل على المجتمع بكامله لأنها ترسخ مبدأ الشورى في الحكم وغير الحكم وهو أساس الحرية والمساواة في التربية القرآنية فيقول تعالى: ﴿**وأَمْرُهُمْ شورى بَيْنَهُمْ**﴾[سورة الشورى: ٣٨]. ﴿**وَشَاوِرْهُمْ في الأَمْرِ**﴾[سورة آل عمران: ١٥٩].

صحيح أن هذه أطر السلوك القويم في الأسرة ولكن اجتماع كل هذه العناصر لهي بمثابة الضمير الفردي وكذا ضمير المجتمع، ومن ثَمَّ هي دائرة الأخلاق الحميدة التي لا يخرج عنها مواطنُ مدينة القرآن لأنهم ما دخلوها إلاّ بحرية وعن طيب خاطر، فلا إكراه في الدين، أي أن الإنسان يدخل إليها عن طواعية لا كُرهاً، لذا تجدنا نكرر كلمة – عن تطوع أو طيب خاطر – وهو نفس المعنى الذي جاء في كلمة «عن طواعية»، أي بحرية مطلقة، والحق أن هذه سلوكيات متقدمة في الإيمان ولكنها تُفْرَضُ فرضاً على أفراد المجتمع الإسلامي لأن المولى عزّ وجلّ قال كذا وكذا.. فإن لم يفعلوا فإن ذلك له عقاب وخيم في الدنيا والآخرة.. هذا ترهيب من أجل الالتزام الخلقي في المجتمع الإسلامي، ولكن المؤمن لا يحتاج لذلك بل قد يزيد على تلك الحدود التي يفرضها الإسلام فيصبح العمل عن رغبة وحب وطواعية وهو أساس الخلق في مدينة القرآن.

وهكذا تكون الصورة كاملة في هذا النموذج المثالي والمصغر لمجتمع أو مدينة القرآن.. ومن ثَمَّ تكون النتائج باهرة في السلوك بين الأفراد بحيث ترتقي فيها المبادئ الأخرى من مثل مبدأ العدل بين الأفراد، وهذا المبدأ هو مهم في داخل الأسرة كما هو مهم في خارجها، لا بل إن الدروس الأولى في مبدأ العدل تؤخذ في مجتمع الأسرة حين التعامل بين الأب وابنائه، فلا بد أن يعدل بينهم حتى لا يزرع الأحقاد وبذور الحسد والغيرة وهي أساس الفساد في الأرض حتى إن العدل لا بدّ من أن يمارس على الحقوق بين الرجل والمرأة في داخل البيت وإن لم تحدد بكذا وكذا إلاّ أنها تفهم بالقلب وبالتعامل في قوله تعالى: ﴿**وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذي عَلَيْهِنَّ بالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ واللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ [سورة البقرة: ٢٢٨].

والدرجة التي يذكرها القرآن بما فضل الله بعضهم على بعضٍ في الرزق والسعي، وهي خصيصة لصيقة برب الأسرة وهو الرجل، وفيها فائدة للمرأة وليست مجلبة للعار أو الحيف أو الظلم، لأن ظروف كل منهما تختلف عن الآخر.

وحتى معالجة المشاكل الزوجية تتم بالإحسان والعدل والرحمة وها هو يشجعهم على الاستمرار في حالة الخلاف والشقاق فيقول لهم: ﴿**وَعَاشِرُوهُنَّ بالْمَعْرُوفِ فإن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أن تَكْرَهُواْ شَيئاً وَيَجْعَلَ اللّهُ فيه خَيْراً كثيراً**﴾[سورة النساء: ١٩].

ويرسم لهم صورة فضّ المنازعات بالتي هي أحسن قبل الوصول إلى أبغض الحلال – الطلاق – فيقول لهم: **﴿وإن خفتُمْ شقَاقَ بَينِهِمَا فَابْعَثُواْ حكَماً مِنْ أهْلِهِ وَحكَماً مِنْ أهْلِها إنْ يُريدا إصْلاحاً يُوَفِّقِ اللّهُ بَيْنَهُمَا إنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً﴾** [سورة النساء: ٣٥].

والحق ، إن الخلافات الصغيرة لهي عوامل مساعدة على تجنب الخلافات الكبيرة لأنها تساهم في تربية النفس على ضبط النفس وتعودهم الحل الأمثل للنزاعات والخلافات فتصبح لديهم أموراً عادية ومن ثم يفضُّونها من تلقاء أنفسهم ودون تدخل من أحد.

وقبل أن نطوي صفحة الأسرة على الطريقة المثلى للتعامل بين الابن والأب وكذا الأبناء وبعضهم بعض لا بدّ من أن نعرج على بر الوالدين.

البر والإحسان

وقضية البر والإحسان للوالدين قضية متبادلة لا بدّ من أن نأخذها بعين الاعتبار، فاليوم نحن أبناء، وغداً نحن آباء والذي يجري على آبائنا لا بدّ من أن يجري علينا، فكل واحد منا لا بدّ من أن يمر بهذه المرحلة، وعليه فإن قضية البر والإحسان هي لضمان الحياة السعيدة للإنسان الذي تبدأ حياته بالأفول، إذ لا يعقل أن ننكر لصاحب الفضل.. فضله وإلاّ نقع – نحن الآخرين – في نفس المحذور.

من هنا جاءت هذه القضية بالنص القرآني، وكأنها مثال مصغر على تكريم الألوهية. وكأنه يقول لهم إذا أنكرتم فضل الآباء فهي بداية الطريق نحو إنكار رب العالمين ولذا هو يدربهم على الطاعة في أمثلة صغيرة. ومن ثَمَّ لا بدّ من أن تكون الطاعة المثلى لرب العالمين ولم نبعد كثيراً وهي قضية أساسية في الإيمان نفسه لأنها اقترنت في الآية – مع العبودية للمولى عزّ وجلّ، قال تعالى: **﴿وَقَضى رَبُّك ألاَّ تَعبُدُواْ إلاَّ إيَّاهُ وَبالوالِدَيْنِ إحْساناً﴾**[سورة الإسراء: ٢٣].

وعليه حذار أن يصل حب الوالدين إلى درجة العبادة وإنما هي في موضع وقيمة أخرى هي ضمن إطار البر والإحسان، وكأنها لفتة إلهية أو مقارنة بين العاجز والقوي، العاجز أوصى له بالبر والإحسان والقوي أوصى له بالعبودية والتعبد له وليس لأحد غيره.

هكذا هي مدينة القرآن تضع كل واحد في مكانه الصحيح دون زيغ أو زلل فهي ميزان الحق والعدل والإحسان

ويشرح القرآن بنصوصه الواضحة أسباب هذه الرعاية الإلهية للوالدين بعد أن قطع في

أمر العبادة، وأنها فقط للخالق العظيم.. وعليه يقول في أسباب الرعاية للوالدين – عدا أنهما في مرحلة العجز والضعف – ما يأتي: ﴿**وَقَضى رَبُّكَ أَلاّ تَعْبُدُواْ إِلاّ إِيَّاهُ وبالْوالدَيْنِ إحساناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُلْ لهما أُفٍّ وَلاَ تَنْهرْهُمَا وَقُل لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً، واخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل ربِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَاني صَغِيراً**﴾[سورة الإسراء: ٢٣ و٢٤].

إعجاز عظيم لا مثيل له، كيف لا وهو دارس للنفسيات الإنسانية، فكم من عاصٍ عقّ والديه وقال لهما: أفٍ لكما وألف أفٍ وصال وجال أمامهما ومن ثم نأى بجانبه عنهما لا بل نهرهما.. وقال أفٍ لكما.. نعم كل ذلك حدث ويحدث، وأما في مدينة القرآن حيث الخلق والإيمان فلا أعتقد أن أحداً يفعل مثل ذلك.. وها هو يتابع المولى عزّ وجلّ وكأنه يعاتب أولئك الأشرار فيقول لهم: ﴿**وَوَصَّيْنَا الإنسانَ بِوالديْه حَمَلَتْهُ أُمّهُ وهناً على وهنٍ وفِصالُهُ في عامَيْن أن اشْكُرْ لي ولوالديكِ إلى المصيرُ**﴾ [سورة لقمان: ١٤].

وهكذا لاحظنا كيف يرسم المولى عزّ وجلّ صورة الأم وهي تتقلب في حملها وهناً على وهن أو ضعفاً على ضعف.. أو كرهاً على كره.

وهذه تذكرة للإنسان الخشن العاق بوالديه الذي نسي فضلهما على حياته، ولكن أين يذهب من عقاب الله في الدنيا والآخرة فسيكون عقابه نفس العقاب في الدنيا، ومن أبنائه أيضاً فهو غير ملتزم بالحدود والأطر الأخلاقية العادية الأولى فما بالك مع الآخرين، وفي خضم المجتمع.

هكذا تعلمنا في البيت «الأسرة» مبادئ العدل والإحسان والبر والتقوى والشورى والتشاور والمساواة وكلها عناصر سلوكية تغذي القيم الروحية التي هي أطر الخلق القويم والضمير الحيّ إن للفرد أو المجتمع.

ومثل هذه المبادئ لا نراها في غير مدينة القرآن، وهي المدينة الفاضلة المثلى التي ارتضاها الله لعباده، فهي نموذجٍ المدينة الأمثل، وهي نموذج السلوك الأمثل وكذا نموذج الإنسان، وخلق الإنسان.. حري بنا أن نعيد هذه المدينة إلى ماجد عهدها، وسالف عصرها، يوم افتتحها النبي العظيم بالتسامح والإحسان فقال للناس: اذهبوا فأنتم الطلقاء.. ونسي الأحقاد والعداوة وأحل محلهما كلّ المباديء والقيم التي ينطوي عليها هذا الكتاب العظيم.. كتاب الله وكلماته.. القرآن العظيم.

التطبيق العملي للمبادئ والمثل في مجتمع المدينة القرآنية

وأخلاق المجتمع هي نفسها أخلاق الأسرة ينقلها الأفراد من بيوتهم إلى أماكن وجودهم في المجتمع.. وما المجتمع إلاّ انتقال أفراده من بيوتهم إلى مراكز العمل.. ومن ثَمَّ فهم مجتمع الأسرة في الليل ومجتمع المدينة في النهار.

فإن صلحوا في بيوتهم بين ذويهم فلا شك أنهم سيفعلون ذلك في أماكن حضورهم في النهار.. لذا كان المنهج القرآني في المدرسة القرآنية حريصاً على تنمية الأخلاق الحميدة في المجتمع الأسري، كما رأينا، وتلقوا في ذلك المجتمع الصغير مباديء العدل، والشورى، والإحسان، والبر، والرحمة، والتسامح.. وعليه يخرجون من بيوتهم وقد تسلّحوا بهذه المبادئ والقيم ولكنها تتطور وتنمو بالتدريب والمران والسلوك اليومي في المدرسة الأخرى.. مدرسة المدينة أو المجتمع الكبير، الذي يتوزع فيه الأفراد على مجالات الأعمال المختلفة فمنهم من يذهب إلى مزرعته، بحرية ونشاط، مفتوح القلب والعقل وقد تعلم الدروس الأولى في التسامح والعفو تنفعه مع زملائه في العمل، وكذا الطالب الذاهب إلى المدرسة وقد تعلم الشورى والمواظبة على الدروس والكتب، والتعاون بينه وبين زملائه في المدرسة وغير المدرسة.

والمهندس هو أيضاً يخرج من بيته في الوقت المحدد له، يحدوه الأمل في خدمة الوطن والمواطنين، باذلاً الغالي والرخيص في كل ما يرفع من قيمة أمته وعزتها وشرفها، ومتعاوناً مع زملائه يسمع آراءهم ويناقش أفكارهم، ويقوي من عزيمتهم، ولا يدع فرصة إلاّ ويغتنمها في سبيل تنمية العمل، إن كان في المصنع أو في الحقل أو في المعمل.

وهكذا تتكاتف الجهود وتتعاون الأيدي بحيث تكون كالبنيان المرصوص تكوِّن كتلة واحدة ذات طاقة فعالة مستفيدة من تعاليم القرآن ومبادئه ومساعيه إلى السعادتين.. في الدنيا والآخرة.

مثل هؤلاء، هم بحق عرفوا السلوك القرآني القويم، والخلق الإسلامي الحميد، وازعهم الدين، ورادعهم الخلق القويم.

هذا هو السلوك الذي يُفتَرض أن يكون في مدينة القرآن ومن ثَمَّ يصبح عرفاً عادياً.. ولكن حتى وإن فهم كل واحد منهم طريقه الصحيح نحو المجتمع فإن القرآن لا ينفك عن متابعة التقويم ووضع الأطر السلوكية في المجتمع الكبير، بعد أن تعلم المرء الدروس الأولى في

المجتمع الصغير، وأول ما تظهر التعاليم القرآنية سلوكاً وآداباً وأخلاقاً حين مقابلة الناس، كذا وهم الناس في الطريق ينسلون إلى أعمالهم فأولى الوصايا هي: كظم الغيظ.. ﴿**والكاظِمينَ الغَيْظَ والْعَافِينَ عَنِ النّاس واللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾.

طبعاً هذه الوصية هي في صميم الخلق الإنساني القويم وجاءت على صورة ترغيب وتطوع من الإنسان لذا قال: ﴿**واللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾ فهي عملية إحسان للناس ومن ثم العفو عنهم والمغفرة لهم.. وقد جاءت – قبل دخول هذا الموقف الذي جاء في الوصية المباشرة – حال الخروج من البيت حين قال: ﴿**قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أبصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ**﴾[سورة النور: ٣٠].

وهذه جاءت أيضاً كنصيحة وهي من باب الترغيب.. فقال ﴿**ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ**﴾ وكذا هو مع النساء حين قال: ﴿**وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبائِهِنَّ أَوْ، آباءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَواتِهِنَّ أَوْ نِسائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمانُهُنَّ**﴾[سورة النور: ٣١].

وهكذا نلاحظ التفاصيل بخصوص المرأة.. وإن كان يعني ذلك من شيء فهو الحرص على كرامتها وأخلاقها وشرفها من الامتهان والتعرض أو التشهير.

التحية والسلام

وطبعاً بعد ذلك يأتي إلى التحية حين الدخول إلى البيوت أو إلى أماكن العمل أو حتى في الطريق... فيقول تعالى: ﴿**وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ حَسِيباً**﴾[سورة النساء: ٨٦].

أما عند دخول البيوت فيقول تعالى: ﴿**فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُواْ عَلَى أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللّهِ مُبارَكةً طَيِّبَةً كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾[سورة النور: ٦١].

الرحمة والمودة بين المؤمنين

هذه الأمور الصغيرة هي في واقع الحال كبيرة وعظيمة لأنها تشيع الأمن والسلام والطمأنينة بين الناس. وتنزع الأحقاد من النفوس وتزيل بقايا الخلافات والمشاحنات اليومية التي لا بد من حدوثها في أي مجتمع ولكن العبرة في علاجها، وكيفية علاجها: بالتسامح،

والعفو، والإحسان، ولا غرابة فالقرآن يقول عن صفات المؤمنين إنهم أذلّة على غيرهم من المؤمنين رحماء بينهم لكنهم أشداء على الكفار فيقول بالنص: ﴿**مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ**﴾ [سورة الفتح: ٢٩].

وفي آية أخرى يقول: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾ [سورة المائدة: ٥٤].

هكذا هو سلوك المؤمن مع أخيه المؤمن لا حرج ولا غضاضة من التنازل عن بعض كبريائه في سبيل إرضاء أخيه المؤمن، ومثل هذه السلوكيات هي عملية تطويرية للسلوك القويم الذي تعلّمه الإنسان من مدرسة الأسرة.

آداب الزيارة

وقبل أن ننهي هذا الموضوع إلى موضوع آخر لا بد من أن نضع بعض الومضات القرآنية حول آداب الزيارة بعد الانتهاء من أعمال النهار في المجتمع الكبير. ومن ثَمَّ كيف تكون تلك الآداب. وهي المرحلة المتوسطة بين مجتمع الأسرة ومجتمع المدينة، أو هي خليط بين السلوكين فلا بد من أن تكون لهذه المخالطة بعض الوصايا والأحكام والآداب، إذ لا يعقل أن تدخل البيوت.. بيوت الآخرين دون حساب أو هكذا خبط عشواء.. ودون إنذار مسبق فهذا يخالف الفطرة الدينية أو الوازع الديني، وكذا الوازع الخلقي، وعليه يمكن وضع بعض الوصايا والآداب، في البنود الآتية:

أولاً- إذن الدخول: لا بد من أن يؤخذ هذا الإذن من قبل الزيارة أو قبل دخول البيت لأن للبيت حرماته وفيه الرجل وكذا فيه المرأة وترتيباً على الوصايا السابقة بخصوص محاذير الاختلاط والاجتماع بين النساء والرجال.. نعم ترتيباً على ذلك لا بد من أخذ إذن الدخول.. كما ورد في النص القرآني ﴿**فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَداً فَلاَ تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ**﴾ [سورة النور: ٢٨].

ومن قبل ذلك يقول عن الاستئناس والتسليم وهو المرحلة التالية للإذن: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾ [سورة النور: ٢٧].

طبعاً هو خالق البشر وهو أدرى بمصالح البشر، لذا قال: ﴿**ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ**﴾ ربما لا نعلم الفائدة من ذلك.. اليوم أو غداً ولكن قطعاً حين نمر بالتجربة الحياتية لا بدَّ من أن ندرك

مغزى هذا الذي هو خير لنا.

ثانياً: التحية والسلام، وهذه ذكرنا بعضها فيما سبق وهي صالحة في كل حال، عند الزيارة أو عند دخول أماكن العمل.

ثالثاً: آداب الطعام والأكل في بيوت الغير: ﴿**وَلاَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُواْ مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَو بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالاَتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُواْ جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً**﴾[سورة النور: ٦١].

ومن المستحسن حال الانتهاء من الطعام ـ الانتشار، اقتداء بسنة الرسول حيث كان ينزعج من القوم الذين يمكثون بعد تناول الطعام فيستحي منهم فنزلت الآية: ﴿**فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُواْ وَلا مُسْتَئْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لاَ يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ**﴾[سورة الأحزاب: ٥٣].

وصايا عامة في الأخلاق

حتى الآداب في داخل البيت لها قواعدها وتقاليدها الأخلاقية إذ لا يمكن أن يترك الحبل على الغارب في الدخول والخروج لأن أعضاء الأسرة هم من النساء والرجال والشيوخ والأطفال، وهم يؤلفون نموذجاً مصغراً للمجتمع الكبير وعليه، فإن آداب الدخول والخروج لا بد من أن يؤخذ بها من قبل أعضاء الأسرة جميعاً وهذه رسمت بآيات واضحة لا لبس فيها ولا غموض، يقول المولى عزّ وجلّ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَئْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ مِن قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاءِ ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلاَ عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾[سورة النور: ٥٨].

وقد يطعن أحدهم فيقول هذا للعبيد والإماء ولكن ها هي أيضاً للأحرار منكم فيقول: ﴿**وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَئْذِنُوا كَمَا اسْتَئْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾[سورة النور: ٥٩].

وهكذا لم يترك المجتمع للصدفة أو للتجربة والخطأ أو الخبط العشواء، ولكن وضع حدوداً للآداب وحدوداً للزيارة والدخول، وكل هذه تكوّن عناصر السلوك والخلق القويم

الذي ينبغي أن يلتزم به المؤمن كما أنه لا بدّ من ملاحظة أن هذه العناصر السلوكية والأخلاقية تتّسم بالديمومة والثبات على مر الأزمان لأن القرآن صلاحيته لا تتحدد بمكان وزمان معينين، بل هو فوق الزمان والمكان وهو صالح لكل العصور وفيه يرى الإنسان الطريق السوي الذي ارتضاه الله للإنسان المؤمن والملتزم هو طريق الحق المطلق في كل العصور.

ومن ثم لا أعتقد أن هناك من حرج أو ضرر إذا التزمنا بهذه الأصول التربوية والأخلاقية في السلوك اليومي إنْ في البيت أو في المجتمع الكبير، لا بل يجد الإنسان فيها راحته وملاءمتها لأوضاع الإنسان وحركاته وسكناته الطبيعية والمثلى.

وهكذا نرى تطوراً في السلوك الإنساني وكأنه يمر بمراحل تدريبية إذ مر أولاً بالمدرسة الأولى – الأسرة – وتعلم فيها الإنسان ألف باء الأخلاق والسلوك القويم ومن ثمَّ أُخْضِعَ لتجربة أخرى في داخل مدرسة المجتمع بين أقرانه وأصحابه. وأضيف إلى سلوكياته أيضاً عدة مبادئ ذكرنا قواعدها الأساسية ومن أنها تحوم حول المبادئ الأولى في العدل والمساواة والبر والإحسان والتسامح. ولكن الآن لا بدّ من وضع بعض الملاحظات الأخرى التي نحسبها صغيرة ولكنها مهمة لكل مجتمع يسير نحو الأفضل ومن هذه الملاحظات التربوية والأخلاقية:

أولاً: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهذه ضرورة من ضروريات الإيمان الحقيقي إذ لا يعقل أن نرى الأمور تسير نحو الخطأ والزلل ومن ثم نسكت عليها كالسكوت مثلاً على شارب الخمر أو بائعه ولو كان ذلك سراً. فلا بد من استرعاء النظر إلى هذه الأمور الشاذة والمنكرات التي لا تليق بالمجتمع الإسلامي لأن الفاحشة إذا استشرت في المجتمع تصبح كالنار تأخذ في طريقها الأخضر واليابس، من ثم يكون اللوم على المجتمع ككل وليس على فرد من أفراده وهذا ورد في قوله تعالى: ﴿**وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾ [سورة الأنفال: ٢٥].

وقد يعجل الله العذاب أو العقاب فيعم أهل المدينة دون استثناء ساعتها لات حين تدارك.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يجب أن تبقى خصيصة تلازم المؤمن أينما سار وأينما ذهب. قبل أن يقع المحذور. وقد قال الله تعالى في ذلك: ﴿**وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ**

﴿الْمُفْلِحُـون﴾[سورة آل عمران: ١٠٤].

وهكذا تكون المدرسة القرآنية قد نشرت دعوتها في خارج الإطار الذي تعمل فيه. ومن ثَمَّ نقلت ذلك إلى حنايا المجتمع وفي كل ركن من أركانه وكأنها الرقابة الذاتية المباشرة على سير المجتمع.

ثانياً: التعاون والاتحاد بين أفراد المجتمع الواحد، حتى يصبح كالبنيان المرصوص، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿واعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَميعاً ولا تَفَرَّقُوا﴾ [سورة آل عمران: ١٠٣].

وقوله في مكان آخر: ﴿وَلاَ تَكُونُوا كالَّذينَ تَفَرَّقُواْ واخْتَلَفُواْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ البَيِّناتُ وأُولئكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيم﴾ [سورة آل عمران: ١٠٥].

وأما وسائل تدعيم المجتمع وتوحيده فهو التعاون والترابط، فيقول تعالى: ﴿وَتَعاوَنواْ عَلَى الْبِرِّ والتَّقْوى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإثْمِ والْعُدْوان﴾ [سورة المائدة: ٢].

ثالثا: ومثل ذلك ينقلنا إلى ملاحظة أخرى وهي مرتبطة بكيان المجتمع وترابطه، وهذه تتعلق باللغو والثرثرة والغيبة والتنابز بالألقاب والاستهزاء من الغير. وهذا يمكن أن نشير له بالآيات الآتية:

أولاً: اجتناب سوء الظن والتجسس على الغير وتتبع أخبارهم أو الظن بهم أواغتيابهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُواْ اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِ إِثْمٌ وَلاَ تَجَسَّسواْ وَلاَ يَغْتَب بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدَكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أخيهِ مَيتاً فَكَرِهْتُمُوهُ واتَّقُواْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رحيم﴾[سورة الحجرات: ١١].

ثانياً: اجتناب الاستهزاء والسخرية بالغير ﴿يا أَيُّهَا الَّذين آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُواْ خَيْراً مِنْهُمْ وَلاَ نِساءٌ مِنْ نِساءٍ عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَلاَ تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلاَ تَنَابَزُواْ بالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإيمانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولئكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[سورة الحجرات: ١١].

رابعاً: الأمانات – والعهود – والوفاء بهما

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أن تُؤَدُّوا الأمانات إِلى أَهْلِهَا﴾ [سورة النساء: ٥٨].

وقال في العهود والوفاء بها: ﴿وَبِعَهْدِ اللّهِ أَوْفُواْ ذَلِكُمْ وصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تذَكَّرُونَ﴾[سورة الأنعام: ١٥٢].

وقال أيضا: ﴿**وأَوْفُواْ بالْعَهْدِ إنَّ الْعَهْدَ كانَ مَسْئولاً**﴾ [سورة الإسراء: ٣٤].

كل هذه الملاحظات السلوكية هي تفاصيل التعامل الاجتماعي بين الأفراد وإن حكمتها المبادئ والقوانين الأساسية إلاّ أن القرآن أتى على تفاصيل بعضٍ منها وخاصة التي تهم الحياة اليومية والتعامل اليومي بين الأفراد.

وتبقى أخيراً قضايا المال والإسراف والتبذير وأكل أموال الضعفاء واستعمال المال في غير مواطنه الرئيسة بحيث يذهب إلى طرق مخالفة للأصول والشرائع السماوية، وربما تساهم في إفساد المجتمع لأن فتنة المال خطيرة إن لم تراقب في الحال ويقضى على آثارها السيئة – حتى إن المولى عزّ وجلّ ربط بين خراب الأمم والدول وبين فتنة المال والمتعاطين بالمال وهم المترفون، فيقول المولى عزّ وجلّ: ﴿**وإذَا أرَدْنَا أنْ نهلك قَرْيَةً أمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاها تَدْمِيراً**﴾ [سورة الإسراء: ١٦].

لذا حرص القرآن في منهجه التربوي على أخذ الحيطة في هذا السبيل. فيقول تعالى: ﴿**واعْلَمُواْ أنَّمَا أمْوالُكُمْ وأوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وأنَّ اللَّهَ عِنْدَه أجْرٌ عَظِيمٌ**﴾ [سورة الأنفال: ٢٨].

وبعد أن بيّن – فتنة المال – قال تعالى: ﴿**يَا أيُّهَا الَّذينَ آمَنُواْ لاَ تُلْهِكُمْ أمْوالُكُمْ وَلاَ أوْلادُكُمْ عَنِ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذلكَ فأوْلئكَ هُمُ الخاسِرُونَ**﴾ [سورة المنافقون: الاية ٩].

وأما بخصوص التعامل بين الناس في الأموال فيقول المولى عزّ وجلّ: ﴿**وَلاَ تُؤتُواْ السُّفَهَاءَ أمْوالَكُمُ الَّتي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِياماً وارْزُقُوهُمْ فِيهَا واكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً**﴾ [سورة النساء: ٥].

وقال أيضاً: ﴿**ولا تأكُلُواْ أمْوالَكُمْ بَيْنَكُمْ بالْباطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَا إلى الْحُكَّامِ لِتأكُلُواْ فَرِيقاً مِنْ أمْوالِ النَّاس بالإثْمِ وأنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ [سورة البقرة: ١٨٨].

وأما بخصوص الإنفاق: فيقول تعالى بصدد الاعتدال في الإنفاق: ﴿**وَلاَ تَجْعَلُ يَدَكَ مَغْلُولَةً إلى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً محْسُوراً**﴾ [سورة الإسراء: ٢٩].

وهذا يدخل ضمن التبذير والإسراف... قال تعالى في مكان آخر: ﴿**وآتِ ذَا القُرْبى حَقَّهُ والْمسْكينَ وابْنَ الْسَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذيراً، إنَّ الْمُبَذِّرينَ كَانُواْ إخْوانَ الشَّياطين وَكَانَ الْشَّيْطانُ لِرَبّه كَفُورا**﴾ [سورة الإسراء: ٢٦ و٢٧].

وأما بخصوص أموال اليتامى، فيقول: ﴿**وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إلاَّ بالَّتي هِيَ أحْسَنُ حَتَّى**

﴿يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ [سورة الإسراء: ٣٤].

هذه بعض الملاحظات السلوكية اليومية وقد ختمناها باستعمالات المال ومساوئ ذلك الاستعمال.

تطبيق المبادئ والقيم الخلقية في إدارات المصالح

بدأت التربية القرآنية في المؤسسة التربوية الأولى وهي الأسرة، فهي النموذج الأول في الحياة الاجتماعية ووضعت لهذه المؤسسة المنهج الأخلاقي القويم الذي يخدم الوسيلة بادئ ذي بدء «الدنيا» وكذا يخدم الغاية «الآخرة» وبحيث يكسب الإنسان السعادتين في الدنيا والآخرة، ووضعت لهذا الأطُرُ والسمات الرئيسة للخلق القويم. ومن ثم نقلت الإنسان إلى مجتمع أكبر وكانت نقلة نوعية. تحتاج إلى تراث قيمي وأخلاقي يُحسن التصرف في المجتمع الكبير وعلى جميع المستويات، مع الأفراد – أولاً – ومع أدوات الحياة ثانياً فيتعلم أشياء جديدة لم يتعلمها في البيت لأن العلاقات الأولى كانت أخوية مع إخوته وأبويه، مع والديه، وأما في المجتمع فقد كانت أيضاً علاقات أخوية ولكنها من نوع آخر ومتطورة أكثر من العلاقات الأولى لأنها تمتاز بالحساسية، لا بل وضعت الغرائز والرغبات الإنسانية وتصادمها في المحك العملي.

فتلاقى الحسد والحقد مع الحب والتعاون في منافسة شديدة ومن ثَمَّ انتصر الحب على الحقد، وكذا تلاقي التفاني في جمع المال والحرص على امتلاكه مع التضحية والبذل والعطاء فدخلاً معاً في منافسة شديدة فانتصرت الثانية على الأولى، ودخل الظلم والظلام مع العدل والمساواة في صراع مرير كان نتيجته انتصار العدل والحرية والمساواة وكذا دخل أخيراً الحق مع الباطل في صراع طويل فانتصر الحق، وهزم الباطل، إن الباطل كان زهوقاً.

نعم هكذا تكون الحركة اليومية في مدينة القرآن ومجتمع القرآن، وفي كل مساء تعلن نتائج هذه الحركة اليومية ويبقى النصر دائماً للحق والعدل والحرية والمساواة وتتكرر هذه الظواهر يومياً حتى يركن أعداء الحق إلى السلام ويعودوا إلى حظيرة الأمة والأمان والاطمئنان.. ولو أننا افترضنا أن المدينة خالية من مثل هذا التناقض،، والحق أن التناقض باقٍ إلى الأبد.. ولو كان بصورة نسبية.. المهم أن الحق هو المنتصر في كلِّ جولة.. لا بل في آخر المطاف.

وما دام الأمر كذلك فإن الأمور تكاد تكون مناسبة لتعيّن أرباب الإدارات والمصالح

والقائمين على خدمة المواطنين.

الحق، إن المسؤول في مدينة القرآن يختلف تماماً عن أي مسؤول آخر – في أي مجتمع آخر – لأن المسؤولية في هذه المدينة هي نفسها الأمانة التي نوه عنها المولى عزّ وجلّ في نص الآية: ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ والْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وأَشفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَها الإنسانُ إِنَّهُ كانَ ظَلوماً جَهُولاً**﴾ [سورة الأحزاب: ٧٢].

صحيح أن الأمانة قد تحمل أيضاً معنى العقل وهو معنى جزئي لأن العقل هوالذي يُخَوِّل الإنسان لأن يكون مسؤولاً، والتكليف جاء من المولى عزّ وجلّ، وهو أن يتحمل الإنسان مسؤولية الأرض بشكل عام، وطبعاً العقل هو المنوط بهذه المهمة في المعنى الجزئي كما قلنا ولكن في المعنى الكلي وأمام المولى عزّ وجلّ فهو الإنسان القادر على تحمل هذه الخلافة أو المسؤولية، وهذا بالنص القرآني أيضاً.. حين قال تعالى: ﴿**وإذْ قال ربُّك للملائكةِ إنّي جاعلٌ في الأرضِ خليفةً**﴾ [سورة البقرة: ٣٠].

إذن فالتكليف الأول وبشكل عام جاء من المولى عزّ وجلّ وأعطاه للإنسان بتحمل مسؤولية هذا العبء، والإنسان من جانبه أعطى المسؤولية والأمانة للعقل فهو الأقدر على تحمل هذه الأمانة والمسؤولية.

وعليه يشترط بمن يتحمل المسؤولية الإدارية أن يكون فاهماً لمعنى تلك المسؤولية، ومغزاها الحقيقي، ولا يضع رجله على أعتابها الأولى قبل أن يفهم التكليف الأول الذي أعطى للإنسان بادئ ذي بدء، ومن ثم هو المنوط أمام الله والجميع بالمسؤولية وعليه أن يحسن رعايتها وسياستها لأن أي خلل أو عبث من جانبه فهو محسوب عليه أولاً ضمن الحق الخاص وكذا محسوب على الناس جميعاً لأن من ساسهم أودى بهم إلى التهلكة –جميعاً – لذا قال المولى عزّ وجلّ: ﴿**واتَّقُواْ فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خاصَّةً واعْلَمُواْ أنَّ اللَّهَ شَديدُ الْعِقَابِ**﴾ [سورة الأنفال: ٢٥].

إذا فالإدارة التي نتصارع من أجل الوصول إليها ليست هي الإدارة والمسؤولية –المفترض أن تكون – لأن الإدارة الصحيحة هي أولاً مسؤولية شاقة وتكليف من المولى عزّ وجلّ ومن ثَمَّ من الإنسان أو المجتمع ككل، وهو محاسب أمام المجتمع في الدنيا وأمام الله في الآخرة، وجزاؤه لا بد من أن يأخذه عاجلاً أم آجلاً، في الدنيا أم في الآخرة: ﴿**مَنْ جاء بالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أمْثالِها ومَنْ جاءَ بالسيئةِ فَلاَ يُجْزَى إلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لا**

يُظْلَمُونَ﴾[سورة الأنعام: ١٦٠].

وهذا حكم عادل.. لا يُظلم فيه أحد..

هكذا هي صورة المسؤولية والإدارة الخلقية كما يعلِّمها القرآن لأبناء المدينة القرآنية.

والحق.. إن الإرهاصات الأولى للتربية.. لا بل البذور الأولى في التربية والتي بثها القرآن **أولاً:** في تربية المجتمع الأسري الصغير، **وثانياً:** في تربية المجتمع الكبير، لا أظنها بعد ذلك إلاّ أن تكون نبتةً صالحة ومؤهلة لارتياد الصعب، ومن ثم تعطي ثمارها النهائية في المصالح والدوائر والإدارات.. كيف لا وقد تربت على ترياق ومباديء القرآن ورضعت من حليب الشورى والعدل والمساواة حتى اشتد عودها بحيث ترسي هذه المباديء عملاً وتطبيقاً في ثنايا المؤسسات والإدارات والمصالح.

فالظلم والأمر كذلك، ينمحي من هذا المجتمع وكذا تتراجع قوى الظلم والظلام وجيوش القهر والعسف والطغيان.

وبذا تتنافس العقول في عمل الخير ونبذ الشر، وتفتح المصالح أبوابها لا لخدمة الشيطان والمال والجاه ولكن لنشر العدل والمساواة بين الناس وتلبية مطالبهم اليومية، دون محاباة أو تسلط أو استغلال.

هكذا تتأطر عناصر الأخلاق القويمة في الأمة بشكل عام والمدينة بشكل خاص وهكذا أيضاً تزدهر آثار الوازع الديني أولاً، وكذا آثار الوازع الخلقي ثانياً، وتظهر نتائجهما في ثنايا البيت، بين أفراده، وفي ثنايا المجتمع بين خلاياه، وكذا في ثنايا الإدارات بين روادها.

ساعتها نقول هذا هو الوازع الخلقي الذي يردع الإنسان بشكل اضطرادي وأولاً بأول وبحيث يحاسب الإنسان نفسه قبل أن يُعْرض على ربه يوم الحساب.. ساعتها لات حين مناص.

نعم كانت البذرة الأولى هي الروح التي بثها الله في نفس الإنسان وجسده، فهذه البذرة إذا تعهدها الإنسان بالرعاية والتقويم تصبح كالنفس أو نواة النفس ولا أبالغ إذا قلت إنها كذلك.. وعليه يمكن أن يصلح بها أو يفسد. قال تعالى: ﴿**ونَفْسٍ وما سوَّاها، فألهمها فُجُورها وتقواها، قَدْ أفْلَحَ مَنْ زَكَّاها، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاها**﴾[سورة الشمس: ٧ و ١٠].

نعم ، حتى إنها تصبح في مرحلة من الطهر والنقاء كما الرادار الذي يتحسس الأخطار

والأشياء.. فهي أيضاً تصبح لديها الشفافية والروحانية، بحيث ترقى إلى ما يسمى بالنفس اللوامة التي تدرك الخير من الشر مباشرة فتحاسب الجسد أولاً بأول، وإذا ما وصلت النفس إلى هذه الدرجة من الشفافية والطهر والنقاء بحيث فهمت التراث الأخلاقي من بدايته الأولى ـ الوازع الديني أولاً، والوازع الأخلاقي ثانياً، نعم إذا وصلت إلى هذه الحال فهي بحق تستحق أن يقسم بها المولى عزّ وجلّ وتصبح قدوة ومثلاً يحتذى. لا بل مقياساً للرقي الروحي والأخلاقي، عندها حقاً تستحق هذا القسم المربوط بيوم القيامة. ﴿**لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيامةِ، وَلاَ أُقْسِمُ بالنَّفْسِ اللَّوامَةِ**﴾[سورة القيامة: ١ و٢].

ولا بأس أن نكمل: ما الأمر الخطير الذي يستخدمه المولى عزّ وجلّ مع هذا القسم؟ ﴿**أَيَحْسَبُ الإنْسانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ، بَلى قادرينَ عَلَى أن نُسَوِّيَ بَنَانَهُ**﴾ [سورة القيامة: ٣ و٤].

الحق، إن هذا القسم عظيم جاء مع أمر عظيم وهل هناك أعظم من البعث إلى الآخرة؟

رواد التجربة القرآنية
(في التربية والسلوك)

تمهيد:

كان محمد بن عبدالله ﷺ، أولّ من افتتح المدينة القرآنية معلناً الانتصار الأبديٌ على الباطل.. فكان ذلك بحقٍّ تتويجاً لانتصارات صغيرة حدثت من قبله هنا وهناك.. ولو أراد الله ذلك النصر العظيم، لكان من قبل، وبدون هذا المسلسل الطويل على طريق الكفاح والنضال، ولكن هي إرادة الله جاءت في آية قرآنية: ﴿**ذَلِكَ وَلَوْ يَشاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلكنْ لِيَبْلُواْ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ**﴾ [سورة محمد: ٤].

نعم هكذا كان الانتصار العظيم، معبَّداً بتضحيات أعظم، وما مجيء الرسول العظيم إلاّ بعد أن حان قطاف هذا الانتصار فكان الإجهاز الأخير على قوى الظلم والطغيان، وقد تمّ على يد هذا النبي العظيم.. وأما من قبله فلا يمكن أن ننسى تضحيات إخوته من الرسل والأنبياء لأن مسيرة البشرية في هذا السبيل واحدة، إذ إن محركها ومصدرها أيضاً واحد.

وعليه استحق أولئك الشرف العظيم والمكانة اللائقة بتضحياتهم.. فانتسبوا كأعضاء شرف إلى هذه المدينة العظيمة.

ولم يكن الرسول العظيم ليفعل شيئاً لولا هذا التراث الحضاري العظيم في جميع الأطر والمستويات؛ الدينية، والاجتماعية، والسياسية، والثقافية، والذي انطوى عليه هذا الكتاب العظيم، الذي فيه القول الفصل.. وما هو بالهزل، ومن ثَمَّ كان فيه ملخص النضال الإنساني على طول الزمان، وما جاء كل واحد من أعضائه المنتسبين إليه إلاّ موضحاً حقيقةً من حقائق هذا التراث العظيم.. إنْ في مسائل العقيدة والتوحيد، أو في مسائل الخُلق والضمير، أو في مسائل الصراع، وطرق الانتصار، أو في مسائل الجهاد والتضحية والتقرب إلى الله، أو في مسائل العبادة، وكلها حيثيات المدينة التربوية، ،ومن معين هذا التراث يغترف المؤمن المنتصر ويطبع سلوكه وأخلاقه بهذا الطابع الحضاري المتكامل خلقاً وعملاً وثقافةً وسلوكاً.

والحق الذي لا بد من أن نقوله هنا: إن مجتمع مكة كان ملخصاً أيضاً للمجتمعات القديمة التي مرت عليها البشرية، فكانت تنتشر فيها كلُّ الموبقات التي عولجت من قبلُ – شيئاً فشيئاً – وعلى يد الرسل والأنبياء والمصلحين فكان لا بدّ من التذكير بتلك المشاكل، ومن ثم طرق معالجتها.. وجاء ذلك بآيات قرآنية كوَّنت في مجموعها تراثاً دينياً حضارياً ينفع في كل حين.. وفي كل مكان، فقط إذا أريد افتتاح المدينة القرآنية من جديد كما فعل محمد بن عبدالله من قبل.

قابيل وهابيل

والمشكلة الأولى التي واجهت البشرية، باديء ذي بدء، هي مشكلة الحسد وكأنها مشكلة المشاكل.. كيف لا وهي تحدث في كلِّ زمان ومكان.. وطبعاً عرفنا ذلك في تجربة الابن الأولى على ظهر الأرض، بعد نزول آدم وهبوطه بسبب الحسد أيضاً.. حسد إبليس له، وقد يستهجن أحدهم استعمالنا هذه الكلمة، طبعاً لعدم إيمانه بشيء اسمه إبليس، ولكن يمكن أن نقول غير ذلك: بأن يتقمص إبليس شخص الإنسان فيحسد الإنسان أخاه الإنسان كما فعل أبناء آدم الأوائل وقد يقول آخر أنا أؤمن بنظرية البقاء للأصلح وما حصل مصداقاً لذلك. فها هو قابيل وهو الطرف الذي حسد أخاه على ميزة أو خصيصة اختصَّه الله بها حين تُقبِّل قربانه فيقول له: ﴿**لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ**﴾ [سورة المائدة: ٢٧].

تماماً هذا القول هو نفس القول.. البقاء للأصلح وكأنه ينهل من معين قابيل وأفكاره.. وأما الحقيقة فهي أنها مسألة اختبار كما نرى من قول المؤمن «هابيل»: ﴿**لئن بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ العَالَمِينَ**﴾ [سورة المائدة: ٢٨].

هذا هو الفرق بين الأخوين.. واحد يؤمن بالله والآخر يؤمن بنظرية البقاء للأصلح، وهي تماماً كما هي شريعة الغاب، ولكن ما الفرق بين الإنسان والحيوان، في هذه الشريعة؟ إنه لا فرق بينهما في تلك الشريعة، التي يأكل فيها القويّ الضعيف، والغنيّ الفقير.. إذاً أين هذا التراث الديني، نذهب به، أم يقولون هو أفيون لا غير؟.

لذا كانت قضية البقاء للأصلح قد انهارت تماماً في مدينة القرآن – برغم أنها جاءت بعد نزول القرآن – ولكن لا ريب أن الله قد أعدَّ لكل أمر عدَّتَهُ في القرآن، فهو صالح لكلِّ زمان ومكان، متنبئ بكلِّ ما يجول في خاطر الإنسان.

بقي أن نقول: إن هابيل قد افتتح ركناً أساسياً من أركان مدينة القرآن، لا بل هو أول من أرسى مبدأ التسامح فيها.. حين قال: ﴿**مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ**﴾.

لم يعامله بالمثل.. بل تطوَّع خيراً وهذا هو صميم التسامح الذي جاء به القرآن في صميم دعوته وفحواها.

وبذا أرسى في مدينة القرآن مبدأ التوحيد أولاً ومن ثَمَّ مبدأ التسامح ثانياً.

هذا الذي قيل لمحمد – ﷺ – وهو يبلِّغ الرسالة إلى الأمم والشعوب السابقة واللاحقة، وكان ذلك من خلال جبريل، فكان ذلك القول بداية الدستور الأبدي في القيم والأخلاق وكذا السلوك.. ومن ثَمَّ فإن هابيل هو من مؤسسي مدينة القرآن.. لا بل هو أولهم.

وهكذا تتوالى الإسهامات في هذا الصرح العظيم.. في صرح هذه المدينة العظيمة وإن كان أولاً على الصعيد النظري إلاّ أن هذا هو بداية كلِّ شيء.. «ففي البدء كانت الكلمة» وفي البدء كانت الفكرة.. وفي البدء كانت الخطة.. بعدها ينطلق البناء والتطبيق العملي والسلوكي، وكان ذلك أخيراً على يد الرسول العظيم محمد بن عبدالله ﷺ.

تجربة نوح عليه السلام مع قومه

وأما نوح فكان بحقٍّ من أوائل الذين صبروا ورابطوا وتجشموا المشاق، من ثم على يديه تعلمنا الدرس الأول في الصبر، وكذا على يديه عرفنا قيمة الصبر عند الله، وكيف يكون الجزاء علي هذه الفضيلة التي هي محور الرسالة القرآنية لأن المؤمن يكون محور التربية الروحية لديه هو الصبر، لأن في الصبر ابتلاءً واختباراً، وأما الملحد أو الكافر فلا يوجد لديه ما يختبر به، تماماً كالفاشل في المدرسة والذي تُعرف نتيجته مسبقاً.

وفضيلة الصبر التي رسَّخَ جذورَها نوح – عليه السلام – عظيمةٌ عند المولى عزّ وجلّ في قوله: ﴿**وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ**﴾.

وتظهر تضحيات نوح.. حين كذّبه قومه ولم يؤمنوا بما جاء به، بل وزادوا على ذلك أن حاولوا طرده من المدينة التي يعيش فيها محاولين تشريده في الفيافي والقفار، فأُوحِيَ إليه بصنع سفينة لأنه قد حَقَّ القول على قومه بالهلاك، إلاّ من آمن معه، وفعلاً هو الذي أنقذ من البشرية ما يمكن إنقاذه فحمل معه في السفينة من كل زوجين اثنين حتى غرق قومه في الطوفان ونجا هو والذين آمنوا معه.. وتخلص بذلك من شرور وآثام الكفرة المجلدين، وبدأت مسيرة الإنسانية على يديه من جديد.

ويبدو أن الطوفان الذي أخذ قومَ نوح كان تطهيراً للبشرية من الأخطاء، ولا سيّما إذا عرفنا أن ذرية قابيل – قاتل أخيه – هي التي تكاثرت بعد حادثة القتل – قتل هابيل – وعليه كان لا بدّ من التطهير.. تطهير البشرية من الحادثة الأولى، بوجه خاص، ومما حدث بعد ذلك

بوجه عام، وعليه كان نوح هو المنقذ الأول للإنسان من الشرور والآثام، لا بل كان مطهراً للإنسانية من آثامها توطئة لتوالد ذرية أخرى تصلح لإعمار الكون ومن ثَمَّ مدينة القرآن.

وطبعاً هذا لا ينفي وجود أخطاء أخرى من بعده، ولكن الأخطاء درجات فأسوؤها ما يستحق التطهير الفوري.. ومنها ما يستحق التأجيل.. وأما قوم هود وصالح فكان عقابهم عاجلاً وليس آجلاً، والحق، أن هوداً وصالحاً قد عانا الأمرَّين من أقوامهما لذا استحقَّا هذه الخصيصة العظيمة بانتسابهما إلى مؤسسي مدينة القرآن الفاضلة.

تجربة إبراهيم وإسماعيل

وأما إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام فهما من أعضاء المدينة الحقيقيين الذين ساهموا في إعمارها بعد أن كانت صحراء لا عيش فيها ولا حياة، جل اعتمادها على التكوين البشري المتنقل أو هي إلى مرحلة البداوة أقرب.

وعليه كان البناء الضخم الذي أقيم في صحراء مكة بمثابة الأسس الأولى لكيان المدينة المكاني. فإن كان نوح قد أرسى الأسس الأولى في كيان المدينة الإنساني بتطهير البشرية من آثامها فإن إبراهيم هو بحق مؤسس الأساسات الأولى في البناء العظيم للمدينة الفاضلة.

فالبناء الذي أقامه وإسماعيل، هو المكان الذي التفَّ حوله الناس جميعاً من ذاك الزمان.. ويلتفون حوله، إلى هذا الزمان.. لا بل هو الذي حوّل حياة البادية إلى حياة استقرار وأمن وسلام فاستأنس القومُ بهذا المعمار العظيم الذي هو بمثابة القلب من المدينة العظيمة. وقد ألمح المولى عزّ وجلّ بهذا الإيحاء في قوله تعالى: **﴿وإذْ يَرْفَعُ إبْراهيم الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ واسماعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا أنَّك أنتَ السَّميعُ العَلِيمُ﴾** [سورة البقرة: ١٢٧].

بعدها جاءت فريضة الحج ولا أبالغ إذا قلت إنها بمثابة تدعيم لكيان المدينة على جميع المستويات والصُعُد المادية والروحية، لذا كان نداء الحج، قال تعالى: **﴿وأذِّن في النَّاسِ بالْحَجِّ يأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يأْتينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَميق﴾** [سورة الحج: ٢٧].

هكذا كانت تُبْنَى مدينة القرآن لبنة لبنة، فمنهم من أسهم في بناء الشخصية الإنسانية المؤهلة لدخول هذه المدينة، ومنهم من أسهم في بناء الرمز المكاني للمدينة. وفعلاً كان إبراهيم يهيىء البشرية للعبادات والصلوات فقال له المولى عزّ وجلّ: **﴿وإذْ بَوَّأْنَا لإبْراهيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أن لا تُشْرِكَ بي شَيْئاً وَطَهِّر بَيْتي للطَّائِفِينَ والقَائمِين والرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾** [سورة الحج: ٢٦].

وبعد هذه التهيئة المكانية لعاصمة المدينة الروحية، أو مركزها الروحي بعدها قال إبراهيم: ﴿**رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ**﴾ [سورة إبراهيم: ٣٧].

هكذا أنهى إبراهيم الأساس الأول للمدينة وهو الأساس المكاني.. ولم يكتف بهذا العمل العظيم بل وكان يبشر أهله وقومه لمساعدته في بناء الإنسان لإعمار هذه المدينة، ومن ثم كانت الدعوة على مستوى الإنسان.. وبنائه.. فكانت البداية بأولي القربى: ﴿**إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً، يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً**﴾ [سورة مريم: ٤٢ و٤٣].

فكان يركز في دعوته على التذكير بالعدو التقليدي الذي أضلّ آدم.

فقال له: ﴿**يَا أَبَتِ لاَ تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً**﴾ [سورة مريم: ٤٤].

وبرغم هذه الدعوة الصريحة لأبيه فإن أباه قد تنكَّر له فقال له: ﴿**قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً**﴾ [سورة مريم: ٤٦].

فما كان قول إبراهيم المؤمن إلاّ قول البار بوالديه وهو يقول: ﴿**قَالَ سَلاَمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً**﴾ [سورة مريم: ٤٧].

وهذا طبعاً من أساسات الخُلُق المؤمن – وهو بر الوالدين والإحسان لهما – هكذا كانت إسهامات إبراهيم على المستويين المكاني والإنساني.

وأمّا الإسهام الآخر والعظيم الذي أسهم فيه إبراهيم فهو تحطيم أركان الوثنية وإحلال أركان التوحيد محلّه، وتحمَّل من أجل ذلك الكثير، وهذا العمل العظيم استحق عليه أيضاً شرفاً عظيماً فكُتب بآيات قرآنية تبقى على مدى الدهر، لا بل ما بقي الإنسان على ظهر الأرض.. وكان ذلك يوم أن حطم الأصنام التي كانت تمثل عهداً غابراً موغلاً في الطغيان والوثنية.. كان لا بد من التطهير والاجتثاث من فوق الأرض، وبذلك تمَّ تطهير الكون من الوثنية.. والنفوس من الظلم والظلام.. حين قال: ﴿**وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إِلاَّ كَبِيراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيهِ يَرْجِعُونَ**﴾ [سورة الأنبياء ٥٧ و٥٨].

طبعاً كانت النتائج وخيمة على حياته ولكن لم يُلقِ بالاً إلى ذلك. فتحمل المشاقُّ والصعاب حتى جاء نصر الله العظيم فأنقذه من نار الحقد التي أوقدوها له توطئة لإحراقه بها.

أيمكن بعد ذلك أن ندَّعي أننا نحن أو غيرنا وحده من أنشأ المدينة القرآنية؟ هي بحق إرث حضاريٌّ ساهم فيه كلُّ مخلص ومؤمن على مدار الزمن والأجيال ولم تُبْن بيسر وسهولة كما يتخيلها بعض الناس، أو في يوم وليلة، بل استغرق بناؤها أجيالاً وأجيالاً.. وما زالت تخضع للتطوير والتطهير من كلِّ شائبة تشوبها من هنا أو هناك حتى تبقى طاهرة مطهَّرة وإن غاب زمانها بعض الوقت.. إلاّ أن مخططاتها موجودة وجاهزة في كلِّ حين، فقط تحتاج إلى عودة سريعة إلى النفس الطاهرة المؤمنة، وأما البناء المكانيُّ الفكريُّ أو الدستور فهما جاهزان للإنسان الطاهر النقي الذي يأخذ زمام المبادرة في أي وقت يشاء، ورحلة الألف ميل تبدأ بخطوة واحدة وربما هي إعلان عودة الدستور القرآني.. باديء ذي بدء.

تجربة لوط عليه السلام

وتتوالى الإسهامات بعد إرساء البناء المكاني الأول في مدينة القرآن.. ويأتي من بعد إبراهيم لوط الذي سلك مسلك إبراهيم في التوجيه التربوي والنهي عن الفواحش، لأن إبراهيم لم ينته بعدُ من البناء الأنساني أو الشخصية الإنسانية.. وهي بحقٍّ أصعب أركان المدينة فابتُلِيَ لوط بقوم مارسوا الرذيلة بأسوأ معانيها فكان عليه أن يصبر.. ويصبر حتى فرغ فؤاده من الصبر أو كاد، وظن أن الله قد غضب عليه لأنه لم ينجح في تربية القوم وإبعادهم عن أسوأ الرذائل.. فجاءته البشرى بالخلاص.. ودُمِّر قومُ لوط، ونجا هو وأهله الذين آمنوا معه من الهلاك.والقصة طويلة نقتبس منها الآتي: ﴿**كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ، إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً إِلاَّ آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ، نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ، وَلَقَدْ أَنذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْاْ بِالنُّذُرِ، وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ**﴾ [سورة القمر: ٣٣ – ٣٧].

وفي موضع آخر يعبّر عن صيغة العذاب الشديد بصورة أوضح: ﴿**فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ، فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ**﴾ [سورة الحجر: ٧٣ و٧٤].

وهكذا تخلصت البشرية من شرور هؤلاء وأخلاقهم لأنهم لا يستحقون التوالد وإنشاء ذرية على شاكلتهم، فالمدينة القرآنية لا يسكنها إلاّ المطهرون الذين تخلَّصوا من شرورهم وآثامهم.

وذلك حصل من قبلُ مع نوح حين قال وبنص الآيات القرآنية. ﴿**وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً، إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلاَ يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً**﴾ [سورة نوح: ٢٦ و٢٧].

من هذا نرى أن عملية التطهير مستمرة. وما قول نوح إلاّ ترسيخٌ لسنن الله في الكون.

ولكن برغم ذلك نرى أن تطوراً نوعيّاً قد حصل في عربة البناء الإنساني بعد سلسلة التصفيات التي كانت تهدف إلى تنقية البشرية من الأخلاق والسلوكيات الشاذة، وهذا ما يعكسه زمن شعيب ومدينته التي هي نموذج صغير من المدينة الكبرى التي احتواها القرآن في زمن النبي محمد بن عبدالله ﷺ.

وما رسالة شعيب ونصائحه التي انطوت على نبذ الاستغلال والظلم والطّغيان إلاّ دليل على أن الأمور قد اخذت تستقرُّ شيئاً فشيئاً لتبنَى بذلك ملامح المدينة الكبرى.

تجربة النبي شعيب عليه السلام مع قومه

وهذا يمكن أن نلاحظه من خلال الاستقرار النوعي للبشرية وتهذيب سلوكيات الناس وأخلاقهم.. وهو ما نرى من مجادلات شعيب مع قومه وبنصوص قرآنية تضمنت الإشارة إلى ازدهار الحياة الإقتصادية مما يعكس ميلها إلى الثبات والاستقرار كما قلنا من قبل. وأما المشكلة في هذا الازدهار الاقتصادي هو التدهور الخلقي في التعامل مع الناس ولْنرَ كلَّ ذلك.

قال تعالى: ﴿**وَلاَ تَنْقُصُواْ الْمِكْيَالَ والْمِيْزَانَ**﴾.

طبعاً هذا على لسان شعيب.. ويكمل: ﴿**إنّي أراكُمْ بِخَيْرٍ وإنّي أخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحيطٍ**﴾ [سورة هود: ٨٤].

نعم هكذا كانت أحوالهم مستقرة ومزدهرة ولكن استغلالهم وطغيانهم هو الذي أفسد عليهم الحياة الآمنة. ولنسمع نداء شعيب ونصائحه: ﴿**ويَاقَوْمِ أوْفُواْ المِكْيَالَ والْمِيزَانَ بالْقِسطِ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاس أشْياءَهُمْ وَلاَ تَعْثَواْ فِي الأرْضِ مُفْسِدِينَ**﴾ [سورة هود: ٨٥].

وهكذا كان شعيب ناصحاً لهم يأمرهم بالعدل والميزان لأنه كان يخاف عليهم الهلاك بسبب هذا التطرف في السلوك الاقتصادي الذي قد يؤدي إلى الفساد في الأرض.. ولكنهم ضاقوا ذرعاً بنصائحه حتى قالوا: ﴿**قالُواْ يا شُعَيْبُ أصَلاتُك تأمُرُكَ أنْ نتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أوْ أن نَفْعَلَ فِي أمْوالِنَا مَا نَشاءُ إنَّك لأنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ**﴾ [سورة هود: ٨٧].

والحق، أن شعيباً قد أرسى في مهمته هذه قواعد العدل والإحسان وهي أيضاً عناصر أساسية في الخُلُق القويم الذي يؤلِّف لبنة أخرى على طريق البناء الإنساني المتكامل.. وهذا العمل استحق عليه أن يكون من مؤسسي المدينة الكبرى – مدينة القرآن الفاضلة.

تجربة موسى عليه السلام

وجاء دور موسى عليه السلام وكانت البداية حين ورد ماء مدين بعد أن هرب من القوم الظالمين. ﴿**وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لاَ نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ**﴾ [سورة القصص: ٢٣].

طبعاً فنحن الآن نبحث عن البناء الإنساني، وليس البناء المكاني، أي نبحث عن السلوك وأنماط السلوك المثلى.. لذا تصرَّف موسى بسلوك أمثل حيال الموقف: ﴿**فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ**﴾ [سورة القصص: ٢٤].

الحق، هذا الموقف هو موقف سلوكي ممتاز، لا بل هو سلوك تطوعي، لذا لم يطلب عليه أجراً برغم أن موسى كان يعوزه الأجر في ذلك الوقت، لذا نرى المقارنة بين العمل والموقف الذي كان عليه موسى.. فكان فقيراً، ليس بالمعنى الصحيح للفقر، ولكن في ذلك الظرف كان بحاجة للعون لأنه عابر سبيل وهارب من فرعون وملئه، يضاف إلى ذلك أنه قد قطع مسافة كبيرة بين مصر ومدين.. وبرغم ذلك لم يطلب أجراً على عمله.. الأمر الذي يؤكد ما نقوله أن البناء الأخلاقيَّ لا يؤسَّس على قواعد ومرتكزات مادية. ولكن الله أيضاً لا ينسى أحداً: ﴿**فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لاَ تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**﴾ [سورة القصص: ٢٥].

وهكذا أدرك شعيب من جانبه طريق الصواب أو السلوك الأمثل والأخلاقي حيال ما فعله موسى، صحيح أن الأمر كان من عندالله ولكن أيضاً ينبجس منه تعاملٌ أخلاقيٌّ وسلوكيٌّ بين الناس.. حتى سلوك ابنة شعيب قال عنه في الآية: ﴿**فَجَاءَتْهُ أَحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ**﴾ وخجل.. وقيل إن موسى سارَ أمامَها حتى لا ينظر إليها وهي أمامه.. «تفسير الجلالين». وعقد الاثنين اتفاقية هامة:

أما نصوص الاتفاقيةفهي: ﴿**قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ**﴾ [سورة القصص: ٢٧].

وخيّره بين الأجلين في قوله تعالى – على لسان شعيب: ﴿**قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلاَ عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ**﴾ [سورة القصص: ٢٨]. وتَمَّ توقيع الاتفاقية كما نرى.

وهكذا تزوج موسى ابنة شعيب.. فكان زواج الطيبين للطيبات، وهو نموذج أمثل في اختيار الزوجة الصالحة كما قال الرسول: «**عليك بذات الدين تربت يداك**».

ومن ذاك اليوم زادت تبعات موسى وتلقّى الرسالة من ربه بعد خروجه من عند شعيب، وكانت برفقته ابنة شعيب، وقد تحملت معه الكثير من ظلمة الصحراء وعتمة الليل وبسلوكها كانت نموذجاً عظيماً في الاحتمال والصبر، والطاعة.

وطبعاً بعد أن تسلَّم موسى الرسالة من ربِّه ذهب إلى فرعون ليدعوه إلى الإيمان، وحصل بينهما صراع كبير كان آخره انتصار قضية الحق التي حمل عبئها موسى بعد أن كانت السماء تهيئه سلوكاً وأخلاقاً لهذا النصر الكبير، واندحرت قوى الظلم والطغيان على يد موسى وبعون من ربه، وذهب فرعون بسلطانه، وقارون بماله، وبقي ما ينفع الناس من مباديء وقيم وأخلاق: ﴿**فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً**﴾.

وهكذا كان موسى كغيره من الأنبياء من المؤسسين المشهورين لمدينة القرآن العظيمة لأن له سلوكيات وضعت في القرآن كنماذج خالدة للسلوك القويم.. ليس في مجال الاعتقاد والتوحيد وحسب ولكن أيضاً في عون العبد.. الإنسان.

تجربة داود عليه السلام

وتتوالى الأمثلة النموذجية على السلوك القرآني القويم.. إن في الأسرة أو في المجتمع.. في الحكم أو غير الحكم، فقد ابتُلِيَ داود مثلاً بقضية العدل في الحكم، أرسل الله هذه القضية ليحكم فيها كما يراه مناسباً، ولنسمع القضية من أولها: ﴿**وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ، إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ**﴾ [سورة ص: ٢١ و٢٢].

وأما فحوى القضية فقد جاء في الآية الآتية: ﴿**إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ**﴾ [سورة ص: ٢٣].

ويقال إن هذه هي نفسها فتنة داود وقد جاء الخصمان – المَلَكان – بطريق غيرمباشر، من أجل أن يعود عن ظلمه لأخيه.. فكان حُكْمه حقيقةً حكمَ العادل المنصف، وقد جاءت شهادة السماء بهذا الحكم.. في قوله تعالى: ﴿**قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ**﴾ [سورة ص: ٢٤].

ساعتها شعر بالندم ومن ثمَّ تابَ عن فعلته: ﴿**فاستَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ راكعاً وأنَابَ**﴾ [سورة ص: ٢٤].

وهكذا نجح داود في الاختبار فقال له أخيراً: ﴿**يا داوُدُ إنَّا جَعَلناكَ خَلِيفَةً في الأرضِ فاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبعِ الْهَوى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ [سورة ص: ٢٦].

والحق أن داود قد أرسى في مدينة القرآن مباديء سلوكية – أخلاقية هي في صميم الدستور العظيم للمدينة العظيمة فكانت ثلاثة عناصر أخلاقية في مجمل البناء الإنساني، التوبة، الصبر، العدل وما لنا لا نأتي بأمثلة من غير الأنبياء.

تجارب أخرى

فها هو لقمان الحكيم يضع أمام ابنه توصيات سلوكية مثلى ينبغي الالتزام بها حتى يفوز بالحياة المثلى في الدنيا والجزاء الأمثل في الآخرة. وهذه الوصايا هي:

– عدم الإشراك لأن الشرك بالله لهو من الكبائر لا بل إن الشرك لظلم عظيم كما نرى ﴿**وَإِذ قَالَ لُقمانُ لابنِه وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشرك بِاللّهِ إنَّ الشِّرْكَ لظُلْمٌ عظيمٌ**﴾ [سورة لقمان: ١٣].

– الاتصال مع الله بعبادته أي بإقامة الصلاة ﴿**يَا بُنَيَّ أقِم الصَّلاةَ**﴾ فالصلاة عماد الدين.

– أوصاه بالأخلاق الحميدة والتسامح مع الغير كما نرى ﴿**وَأمُر بِالمَعرُوفِ وَانهَ عَنِ المُنكَرِ وَاصبِر عَلَى مَا أصَابَكَ...وَلاَ تُصَعِّر خَدَّكَ لِلَّناسِ وَلاَ تَمشِ في الأرْضِ مَرَحاً...واقصِد فِي مَشيِكَ واغضُض من صَوتِكَ إنَّ أنكَرَ الأصوَاتِ لَصوتُ الحَمير**﴾ [سورة لقمان: ١٧–١٩].

هذه أهم الوصايا التي وصى بها لقمان ابنه وهي تنطوي على أهمية كبرى في الدين والاعتقاد والسلوك لذا سطرت بأحرف من نور في أعظم كتاب. لا بل في الدستور السماوي العظيم ليحكم به أهل الأرض.

وتبقي قصة أهل الكهف وهي قمة التضحية الإيمانية والخلقية. ﴿**إذْ أوَى الْفتيَةُ إلى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنا آتنَا مِنْ لَدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّء لَنَا مِنْ أمْرِنَا رَشَداً، فَضَرَبْنَا عَلَى آذانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سنين عَدَداً**﴾ [سورة الكهف: ١٠ و١١]. وها هي الآيات تشرح المزيد عن قصتهم ﴿**نَحنُ نَقُصُّ عَليكَ نَبأهُم بالحَقِّ إنَّهُم فِتيَةٌ آمنُواْ بِربِهِم وَزِدنَاهُم هُدىً وَرَبطنَا عَلَى قُلُوبِهِم إذ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنا رَبُّ السَّمَواتِ والأرضِ وَلَن نَّدعُواْ من دُونِه إلَهاً لَقد قُلنا إذاً شَطَطاً**﴾ [سورة الكهف: ١٣].

فكانت قصتهم بحق تجربة ايمانية كاملة باقية عبر الزمن تدلل دون أدنى شك مساهمتهم في بناء المدينة العظيم. إن مثل هذه السلوكيات البشرية لهي نماذج مختارة ذكرت في القرآن لتكون نبراساً لمن يقتدي أو يهتدي.

وقد فعلها من قَبْلُ أُناس كانوا في وسط الظلمة والظلام.. والظلم والطغيان.. وعلى رأسهم أيضاً امرأة فرعون، لم يمنعها جبروت فرعون من الايمان والامتثال فاستحقت شهادة السماء على هذا الإيمان العظيم. ﴿**وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِن الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**﴾ [سورة التحريم: ١١].

وهذا السلوك لهو بحق يستحق أن يُضرب مثلاً، نحتذي به، كيف لا وهي امرأة فرعون الطاغية. كان بإمكانها أن تنعم بالسلطان والجاه والمال وهي كلّ عناصر الحياة ومتاعها، وبرغم ذلك فضلت أجرها في الحياة الأخرى، وقد لاقت – ولا ريب في سبيل ذلك – التنكيل والتعذيب ويقال: إن فرعون ثبت يديها ورجليها وألقى على صدرها رحى عظيمة واستقبل بها الشمس، وبرغم ذلك صبرت وصابرت ومن ثم استحقت هذا الذكر العظيم، في آيات ناصعات من القرآن الكريم.

تدريب القادة على إدارة الصراع

تمهيد:

في موضوع التجربة القرآنية – ونحن نعطي أمثلة على النموذج الأمثل في السلوك القرآني، لاحظنا أن مسألة الصراع لم تكن قد طرحت بشكل متكامل كما هي في هذه الصفحات، وما بعدها ويمكن أن نتذكر شيئاً من ذلك المذكور – في ابني آدم مثلاً – ولا سيما هابيل الذي كان سلاحه التسامح أمام أخيه حين رفض أن يقابله بالمثل ولا حتى بالدفاع عن النفس، وكذا في قصة نوح مع قومه لم نسمع أن صراعاً قد حدث بين قوى الحق من جهة وقوى الباطل من جهة أخرى.

اللهم إلاّ أن حوادث معينة من جانب قوى الباطل أوحت لنوح عليه السلام أن يطلب العون المباشر من السماء، والقصة معروفة طبعاً وكذا مع عاد وثمود، وحتى إبراهيم – الذي يعتبر عهده عهداً متقدماً في التطور الديني والاجتماعي – لم يخض صراعاً معيناً مع قوى الشرك والوثنية، فما كان قوله لأبيه – مثلاً – إلاّ أن ﴿**قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا**﴾[سورة مريم: ٤٧].

ولما جوبهت دعوته بالكفر والإلحاد ما كان منه إلاّ أن هاجر إلى أرض فلسطين، بدل أن يجمع حوله القوى المؤيدة والمؤمنة به ومن ثم مجاهدة قوى الباطل والشرك.

هذه السلوكيات من جانب أولئك الرواد في التربية والسلوك ما هي إلاّ توطئة لبدء مرحلة أخرى من مراحل الصراع الإنساني إذا افترضنا دائماً جدلية الصراع الأبدي بين القوى المتضادة.. في كلِّ المستويات والصعد، تماماً كما هي في النفس الإنسانية ذاتها، لذا سُمِّيَ الصراع الذاتي بين النفس الشريرة والخيرة بمثابة جهاد النفس.. وعليه فالصراع أزلي. لكن، حتى وهو يتسم بهذه السمات، فإنه يتدرج ويأخذ أشكالاً عدة، كما لاحظنا من قصة رواد التجربة القرآنية – وهم الأنبياء مع الأقوام – الأولين وكان في ذلك بيان حدود الحق والباطل أولاً من قبل السماء، ليس غير، لأنه لا يعقل أن تُخوَّلَ هذه المهمة إلى الإنسان

نفسه، فالله وحده – وهو خالق البشرية – قادرٌ على تحديد ما يصلح لهم وما لا يصلح لهم ومن ثم تحديد الواجبات والالتزامات، وفي حالة الإخلال بذلك كانت السماء وحدها هي التي تحسم الصراع.

من ذلك نفهم أن السماء لم تنفك عن تدريب البشرية على السلوك الأخلاقي القويم في كلِّ شيء، لذا لم تفرض القتال والحرب مباشرةً لئلاَّ يختلط الحلال بالحرام.. والحق بالباطل، لأن هذه المسألة هي بمثابة جوهر الحياة.. والسماء – وهي تفعل ذلك – لم تفعله اعتباطاً بل مدروساً ومحكماً بحيث لا يُظْلَمُ فيه أحد، وقد ربَّت رواداً وقادة أفذاذاً في هذا المجال، حتى يكونوا عبرةً لغيرهم لا بل نماذج على طريق الحق، الذي يجب أن يكون، ولئلاَّ يستوي في ذلك الباطل مع الحق.. وحاشا أن يُظلَمَ مع الحق أحد.

وقد توفرت للقادة اليوم عناصر سلوكية شاملة، لعناصر التجربة الأزلية، في إدارة الصراع، من ابني آدم إلى يومنا هذا حتى تصرُّفُ هابيل مع أخيه قابيل ما زال تراثاً يؤخذ به في إدارة الصراع، فالقادة لا تكتمل صفاتهم الاّ بعنصر التسامح والرحمة، حين يتطلب الموقف هذا العنصر، وكان لنا في محمد بن عبدالله ﷺ أسوة حسنة حين قال وهو في أوج انتصاره على قوى الظلم: «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**».

أيمكن أن يحدث ذلك من قوى الظلم والطغيان والشرك؟!! وعليه فإن المعطيات الأولى للحياة القرآنية لا بدّ من أن تعطي نتائج عظيمة في كل المستويات، وما مسألة الصراع الإنساني وتحديد عناصره إلاّ مسألة واحدة.. في الحياة القرآنية.. تتبعها مسائل ومسائل... وكلها يُحسب لها ألف حساب من حيث الدراسة والتخطيط والتدريب.

فكلُّ ذلك يمكن أن ينطويَ على أخلاقيات الإنسان المؤمن الرحيم، اللطيف، المتواضع، العادل، المتسامح، يقابل ذلك الشجاع، العنيد، الشديد – طبعاً على الكفار والشـــرك والظلـــم – ومثل هذا الاتزان في سلوكيات المؤمن جمعته آية قرآنية. فأصبحت كأنها دستور في أخلاق القادة الذين يديرون حلبة الصراع مع قوى الشرك والوثنية ولنقرأ هذه الآية ﴿**مُحَمَّدٌ رسُولُ اللَّهِ والَّذينَ مَعَهُ أشدَّاءُ عَلَى الكُفَّار رُحَماءُ بَيْنَهُمْ**﴾[سورة الفتح: ٢٩] وفي آية أخرى: ﴿**يا أيُّهَا الذينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ منْكُمْ عَنْ دينه فَسَوْفَ يأتي اللَّهُ بقَوْمٍ يُحبُّهُمْ ويُحبُّونَهُ أذلَّةٍ عَلَى المُؤْمنينَ أعزَّةٍ عَلَى الكَافرينَ يُجاهدُونَ في سَبيل اللَّه وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائم**﴾[سورة المائدة: ٥٤].

مثل هذه المعادلة في السلوك لا تأتي بين عشية وضحاها وإنما تأتي بالإيمان العميق وما ينطوي عليه هذا الإيمان. من موازنة حقيقية بين تضادات سلوكية ذاتية أو خارجية. في عناصر الصراع الأزلي. إنْ على مستوى النفس الذاتية أو النفوس الأخرى. التي يتعامل معها المؤمن. وقد حدد لها القرآن اسماً أزلياً لا يتغير في كلِّ الأزمان والأمكنة لأن قضية الصراع الإنساني هي قضية أزلية بين الحق والباطل فسماها «جهاداً في سبيل الله» وإن مر الجهاد وما زال يمر بمراحل وأشكال تتراوح بين الجهاد الذاتي – والخارجي.

والحق كان القرآن واضحاً حين يُهيِّيء القادة أو قل الأفراد من أجل هذه القضية ولْنَرَ كيف يتم ذلك.

قال لهم.. باديء ذي بدء: ﴿**وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيءٍ مِنَ الخَوْفِ والْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنْ الأَمْوالِ والأَنْفُسِ والثَّمَراتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ**﴾[سورة البقرة: ١٥٥].

هذا الكلام الجامع دستور خالد يجب أن يحفظ حفظاً.. إذ كيف تكون المجاهدة النفسية إن لم تمر عبر فرن الالآم والخوف والجوع.. إلخ.

كيف يدفع الإنسان نفسه في أتون المعركة وهو بعد لم يمر على التدريب الجسدي والنفسي الذي يُذكي روح الصبر والمصابرة والجرأة والشجاعة ودحض روح الهزيمة والخَوَر والجبن والوهن.

إن عنى ذلك من شيء فهو يعني الامتثال الحقيقي للألوهية. لا بل هو الخلوص لله الواحد القهار بحيث ينسى الإنسان نفسه وهو يجاهد في سبيل الله.. وما قيمة الأموال والأولاد والثمرات وهو يجاهد من أجل الوصول إلى الجانب الأعلى من الحياة الأخرى والتي قالها المولى عزّ وجلّ: ﴿**وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّه أَمْواتٌ بَلْ أَحياءٌ ولكنْ لا تَشْعُرُونَ**﴾[سورة البقرة: ١٥٤].

قد نكون استعجلنا المعنى الحقيقي للجهاد بحيث يراه الكثيرون في القتال وحده، فلو كان ذلك كذلك لأصبح وجود الإنسان لا معنى له، لأن القتال لا يفرض نفسه دائماً. لا بل ليس هو هواية أو حرفة المؤمن بحيث تترسخ لديه فكرة القتل، وإنما الجهاد الذي يعنيه الإسلام هو الجهاد الكلي المتكامل في كظم الغيظ – مثلاً – فهي مجاهدة نفسية، لأن النفس أمارة بالسوء وتحتاج إلى كبح قبل أن تقتل أو تفسد أو تقطع أو تسرق.

والجهاد النفسي هو تدريب النفس على مواجهة التطرف ومن ثم تحكيم العقل بوازع

من الدين، وخلال أطر الحق والحدود السماوية التي ارتضاها المولى عزّ وجلّ للبشرية.

ويمكن أن نضع أمثلة على مجاهدة النفس. قبل أن نخوض في مجالات أخرى من الجهاد، وقد يتبادر إلى الذهن أن هذا أمر ميسور ولكنه في الحقيقة بمثابة الجهاد الأكبر الذي يستوعب أكثر من نصف عمر الإنسان.

وهو لا شك السلوك الحقيقي الذي يجب أن يكون، في اليسر وفي العسر.. في الحرب وفي السلم، في الضيق وفي الفرج، في الفرح وفي الترح.. وفي كلّ نماذج الحياة وأنواعها وأشكالها. وفي كلّ تعاملات الإنسان تلك تبقى قضية الجهاد مطروحة.

وما تعرضنا لها في هذا المقام إلاّ لأنها عنصر أساسي في حياة المؤمن الذي يتميز عن غيره من الناس، لأنها تؤلّف القضية الحياتية التي يعيش في خضمها المؤمن.. وهذا قد يؤيد ما جاء في الأثر.. «يأتي زمان على أمتي يكون القابض فيه على دينه كالقابض على الجمر» لأنه حقيقة يعاني الكثير وهو يرى حانات الخمر، وبيوت الجنس، ونوادي القمار تنتشر في كل ناحية وفي كلّ شارع.. وهذه ومثلها تلقي عليه تبعات نفسية وعقلية وجسدية، قد تستغرق منه عمره وهو يحاول القضاء عليها، أو إلغاءها من حياته.

وعليه تبقى حياة المؤمن – حتى يرث الله الأرض ومن عليها – في صراع دائم مع الخطأ أولنقل مع الباطل، والخطأ إن لم يأت مباشرة فقد يأتي عن طريق الآخرين، وهذه الأعباء تتطلب أشخاصاً متفردين في صفاتهم وأخلاقهم، وحتى إدارة هذا الصراع تحتاج هي الأخرى إلى أشخاص ملمين بمزايا وصفات سلوكية معينة من مثل الصبر على المكاره أو المحرمات التي تمثل الجانب المهم في عنصر الباطل. فكلُّ ما هو محرم مكروه للإنسان المؤمن. ولا بدّ من أن ينضوي تحت جبهة الباطل، لذا كانت عملية التدريب مستمرة للبشرية تعلمهم، باديء ذي بدء. مواقع الخطأ ومواقع الحقّ فمن يستطيع أن يوضح هذه المفارقة العجيبة في معادلة الصراع النفسي مع أشياء الحياة ومتاعها غير القرآن في قوله: ﴿**فَأَمَّا الإِنْسانُ إِذاَ مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبّي أَكْرَمَن، وأَمَّا إِذا ما ابْتَلاهُ فَقَدرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقولُ رَبّي أَهَانَن**﴾[سورة الفجر: ١٥ و١٦].

أي إنسان لا يعرف القرآن لا بدّ من أن يدرك أن المال وكثرة المال هي مكرمة من الطبيعة أو من الله، الأولى للإنسان المادي، والثانية للمؤمن بالله وبوجوده، برغم أنه لا يعترف بالقرآن – كما قلنا – ولكن هذه المعرفة ناقصة حين يعلم المرء أنه في محك الاختبار

والتدريب وتهذيب النفس.. وإلاّ لانتفى الخير من الدنيا واحتفظ صاحب المال بماله، لذا جاءت الآيات الأخرى توضيحاً للمعادلة الحقيقية للصراع الإنساني – وبخاصة مع النفس وجهادها حين يتنازل الإنسان عن أمواله وطعامه للغير – فيقول المولى عزّ وجلّ في حب المال: ﴿**كَلاَّ بَل لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ، وَلاَ تَحاضُّونَ عَلَى طَعَامِ المِسْكِينِ، وتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَمًّا، وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا**﴾ [سورة الفجر: ١٧ إلى ٢٠].

ولهذه الغرائز التي غرسها المولى عزّ وجلّ في النفس الإنسانية كان لا بدّ من جهاد النفس، الذي يوصل إلى الإيمان عبر الرياضة الروحية المتواصلة والابتلاء المتواصل، وقد حدث ذلك مع كثير من الأنبياء نورد الآن أمثلة منهم.

دروس في التربية الجهادية

قلنا من قبل: إن إبراهيم الخليل لم يرفع سيفاً في وجوه أعدائه بل رفع فأساً حديدية وحطم بها أركان الوثنية. وحصل بعد ذلك ما حصل من محاولات لحرقه أو قتله.. وحتى – وقد فعلوا ذلك – لم يُطْلَب منه قتالهم وجهادهم – بالسيف.. كأن السماء تقول لرجال الحق والإيمان: إن السماء بَعْدُ لم تأمر بذلك، وإن ذلك لا يأتي بدون تمهيد أو تدريب.. فكانت دعوته سلمية مئة في المئة.. فها هو يقول لوالده الذي هدده بالرجم: ﴿**سَلاَمٌ عَلَيْكَ سأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا**﴾.

هذه هي الدروس العظيمة التي يتلقاها المؤمن في مدرسة القرآن العظيمة – وهم – وبرغم ذلك – ينعتون المسلمين بالقتل وحب القتل.. والدستور القرآني يضع المحاذير تِلْوَ المحاذير قبل أن يفعل المسلم ذلك.

لا نريد هنا أن نبتعد كثيراً عن الموضوع الأساسي وهو الدروس الجهادية التي كان يتلقاها إبراهيم الخليل من ربه لتهذيب نفسه وتربيتها التربية القرآنية العظيمة.. فكان أن وضع في محك الاختبار.. وكان موضوع الاختبار ومحوره هو في البنين أو الأولاد.. فبعد أن طال انتظاره حتى رزق ولداً. نعم حتى بعد ذلك الاختبار الطويل جاءه الاختبار الثاني، أيضـاً –في أعز ما يملك – وهو ولده إسماعيل. إذ رأى في المنام رؤيا تدعوه لذبح ابنه العزيز عليه:

فقال له: ﴿**يا بُنَيَّ إِنّي أَرَى في الْمَنَامِ أَنّي أَذْبَحُكَ فانظُرْ مَاذَا تَرى قَالَ يا أبتِ افْعَلْ ما تؤمَرُ سَتَجِدُني إن شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ**﴾ ﴿**فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ**﴾ جاءه هاتف من

السماء يقول أن يا إبراهيم قد نجحت في الامتحان والاختبار: **﴿وَنَادَيْنَاهُ أن يا إبراهيمُ، قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤيَا إنَّا كذلك نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ، إنَّ هَذاَ لَهُوَ البَلاءُ المُبِينُ، وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ﴾**[سورة الصافات: ١٠٢ – ١٠٧].

إذا يكون الابتلاء أو الاختبار من خلال العناصر المكونة لمثل الشجرة التي ابْتُلِيَ بها آدم.. ولتكن هنا شجرة الشهوة – بعناصرها المتنوعة – التي تتراوح درجاتها بين شهوة المال والبنين. والنساء. والقناطير من الذهب والفضة. والخيل المسومة. والحرث. والأنعام. إلخ..

وفي هذه كما ذكرنا يكون موضوع الاختبار الأبدي للمؤمنين والأنبياء والمصلحين.. حتى تكون سلوكياتهم وأخلاقهم فوق الشهوات والمصالح المادية والأنانية فلا يكونوا من صنف الذين أضاعوا الصلوات.. واتبعوا الشهوات..

وفي قصة يوسف عليه السلام درس عظيم في مجال التربية الجهادية النفسية كان في آخرها تتويج يوسف على خزائن الأرض.. طبعاً بعد أن اجتاز الامتحان الصعب.

فكان الابتلاء الذي مرَّ به الصِّدِّيق يوسف من نوع مختلف تماماً إلاّ أنه يصب في القاعدة الأساسية للتربية القرآنية التي تنطوي على دروس في الصبر. وحب الغير. وضبط للنفس. وكلها دروس أساسية لتخريج القادة المتميزين في إدارة الصراع بأنواعه وأشكاله المختلفة.

ففي حكاية الأب مع ابنه تمهيد للدرس العظيم الذي سيجتازه حتى يصل إلى مرحلة العدل في توزيع خزائن الأرض ومن ثَمَّ النبوة وهي قمة السلوك القويم.

ففي قول يعقوب ليوسف: **﴿قَالَ يا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤياكَ على إخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْداً إنَّ الشَّيْطانَ للإنسانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾** [سورة يوسف: ٥].

نعم في ذلك سر عظيم بين الأب والابن احتفظ به يوسف وهو يعلم أنه مقبل على أمر جلل. من قِبَلِ إخوته. وفعلاً حدث ذلك. وحدث غيره الكثير لا مجال لسرده هنا. وكل ما يمكن قوله: إن الاختبار الأول كان مع إخوته ومن تدبير رأس الفتنة – من الشيطان نفسه – الذي هو للإنسان عدو مبين. ولم يبق الأمر كذلك بل انتقل الاختبار إلى بيت العزيز ملك مصر. ومن خلال فتنة النساء. حين همَّت به وغلَّقت الأبواب. والتي بعدها اختار السجن على هذه الفتنة العظيمة. التي لا يستطيع تحمُّلها إلى الأبد. وفي الموضعين المذكورين كان صامداً.. صابراً. فكانت جائزته من السماء عظيمة فأُخْرِجَ من السجن أولاً. ومن ثَمَّ تسلَّم

خزائن الأرض. وحتى في هذه الأخيرة كان في محك الاختبار لأنه كان يؤَهَّلُ لتسلُّم النبوة من المولى عزّ وجلّ. فكانت سلوكياته تُمتَحنُ شيئاً فشيئاً في آخر المطاف ليستحق الذكر في القرآن الكريم فيكون عَلَماً من أعلام المدينة القرآنية العظيمة. وفعلاً تسلَّم النبوة ودام عهده وحكمه سنين طوالاً.

من ذلك نرى أن الأفراد كما القادة في المدينة القرآنية لا بد من أن يمرُّوا على مراحل متتالية من الاختبارات التربوية والنفسية. وكلها تصب في إطار جهاد النفس في شتى المناحي السلوكية.

ومثل ذلك حدث مع أيوب حين ابتُلِيَ هو الآخر بالمال والبنين والأهل والأحباب – عبر الصحة النفسية والجسدية – وخلال رحلة الاختبار نأى عنه أهله وأولاده. وفقد ماله وصحته. وأصيب بمرض لا يشفى منه أو يُخَيَّلُ إليه ذلك حتى في آخر المطاف جاءته البشرى بالنجاة في قوله تعالى: ﴿**ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هذا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وَشَرابٌ**﴾ [سورة ص: ٤٢].

هكذا نرى أن الاختبارات كلَّها متشابهة في فحواها عبر المنهج القرآني في التربية السلوكية.. وكلُّها أيضاً ضرورية لتخريج القادة أو الأنبياء أو المصلحين وكأن السماء لا تركن لمن هبَّ ودبَّ في قيادة الأمم والشعوب إلى برِّ الأمان والحق.

في كلِّ الصراعات المذكورة آنفاً لم يُستخدم السلاح بتاتاً واكتفت السماء ترقب اللحظة الحاسمة. ومن ثَمَّ يأتي الانتصار العظيم. وفي كلِّ ما ذكرنا من حالات الصراع النفسية الذاتية. أو الخارجية مع الغير. نعم في كل الصراعات المذكورة انتصر الحق على الباطل. في صراع نوح مع قومه انتصر نوح. ولكن بمشاركة السماء مشاركةً تكاد تكون مباشرة. وكذا حسمت السماء ظواهر الصراع الأخرى من بعد نوح. فلا نوح استخدم السيف. ولا هود. ولا صالح. كما ذكرنا من قبل. وكذا يوسف وهو يخوض الجهاد الطويل الذي نراه قصيراً في آيات كريمة. قد استغرق سنين طوالاً وشغل أهل ذلك الزمان. وكان في النهاية انتصار يوسف وبدون استخدام السلاح أيضاً.

هذا الرصد المتأني للحركة الإنسانية على مدى الزمن تُظهر للمتأمل بهذه الأمور أن الأمر كان يمر عبر مراحل أي بالتدريج. ولكن كلَّ ذلك ينضوي تحت مسألة الجهاد أو الصراع الأزلي بين الحق والباطل.

وإن عنى هذا الأمر من شيء فلأن النفس الإنسانية عزيزة عند الله في شريعته، وكذا

عند الإنسان.. فلا يمكن أن توضع مسألة الجهاد دونما ترتيب ودراسة أو هكذا دون اعتبار.

وحتى أولئك الذين يتسلمون ناصية الأمور لا بد من أن يمروا على تجارب اختبارية لابتلائهم واختبارهم حتى لا يُظْلَمَ بين أيديهم أحد.

وتعالوا معنا الآن لنرى هذه التجربة الاختبارية لنبي من الأنبياء قبل أن يتسلَّم دفة الأمور والحكم بين الناس، وهو موصوف باديء ذي بدء بالحكمة وفصل الخطاب. ولنقرأ هذه الآيات: **﴿وَهَلْ أَتاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُواْ الْمِحْرابَ، إِذْ دَخَلُواْ عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُواْ لاَ تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلاَ تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ، إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ، قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ، فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَئَابٍ، يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾**[سورة ص: ٢١ و٢٧].

إذاً فحياة الإنسان العادي في مدينة القرآن جهاد متواصل وامتحان متكرر وتهذيب للنفوس، وإصلاح متواصل للسلوك.. وحتى أولئك الذين يتسلَّمون المناصب العالية، لا بدّ من اختبارات يمرون عليها قبل تسلُّم مناصبهم، والمولى عزّ وجلّ – وهو يضرب هذه الأمثلة على نماذج بشرية – كأنه يقول: إذا كان هؤلاء الأصفياء من الناس هكذا يلاقون من مصاعب الحياة ومشاقها وهو المفترض في أعين الماديين من الناس، أن يكرمهم الله طبعاً بالمال والغني والترف واللهو، فإن كان ذلك كذلك فساعتها يكونوا قد أخذوا أجرهم في الدنيا فمالهم في الآخرة من نصيب.

هكذا تُفْهَمُ سيرة الإنسان وحياته الدنيوية والأخروية. وبغير القرآن تصبح الحقيقة مبتورة وعرجاء.

نعم من هذه الأمثلة القرآنية والنماذج البشرية التي تتعرض للفتنة والاختبار لا بد من أن نأخذ الدرس والعبرة فلا نرى في مصاعب الحياة إلاّ ابتلاءً وامتحاناً ليس إلاّ.. وهذا لا يمر فيه إلاّ المؤمن فيطمئن قلبه.. وهذا هو الجهاد الأكبر الذي قال عنه رسول الله ﷺ وهو راجع من إحدى غزواته: «**رجعنا من الجهاد الإصغر إلى الجهاد الأكبر**».

والآن لِنَرَ نموذجاً آخر من مثل أولئك الذين دخلوا فرن الآلام وصبروا وجاهدوا وإن

اعتراهم بعض الفتور والضعف تابوا ورجعوا..

فها هو سليمان يفتن في قضية غريبة بعض الشيء ولكنها من ضمن عناصر الشجرة الأرضية التي نزلت مع ذرية آدم وهي شجرة الشهوة. وأما هذه الفتنة فكانت مع الخيل المسوَّمة.. لا. بل. مع الجياد الصافنات. ﴿**إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ، فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ**﴾ [سورة ص: ٣١ و٣٢].

هذا الإنسان النبي المصطفى من المولى عزّ وجلّ، لم تطمس على قلبه أمواله وجياده، فكان يرقب السماء لحظة لحظة فما إن أخطأ بحق السماء حتى تدارك الأمر واعترف بذنبه. فقال: ﴿**رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ**﴾ [سورة ص: ٣٣].

هذه هي التربية القرآنية العظيمة في مدرسة القرآن. مَنْ منا يفعل ذلك اليوم؟! قد تقولون: إن المال يعمي البصر والبصيرة، ويشغل الإنسان عن ذكر الله.. ولكن المؤمن في مدينة القرآن يتعامل مع الأمور من منطلق كلي متكامل دون المساس بالعقيدة الإلهية ولو بأي سوء. وحتى من أجل ذلك أصرَّ سليمان على الاختبار العظيم. وكأنه يقول سأنجح في الاختبار برغم المُلك العظيم. والأطيان. والخيول. والأموال. فقال ليؤكد ذلك: ﴿**قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ**﴾ [سورة ص: ٣٥].

هكذا كان تعامله مع الخيول بهذه الطريقة العظيمة والسلوك الأعظم.. فبدأ بها ذبحاً. ومن ثَمَّ وزعها على الناس ليكون في ذلك تكفير عن فعلته..، فهذا ومثله هم الذين يستحقون دخول المدينة القرآنية. وما هذا النموذج إلاّ لنرى كيف يكون السلوك القويم وحتى في أدقّ الحالات وأصعبها أو في أعلى ظواهر الفتنة لا. بل في قمتها. وهكذا نرى أن المدينة القرآنية لا يكون عملها وسلوكها إلاّ ضمن الامتثال والإذعان لأوامر الله.. وقد جاءت الأمثلة تغطية لبعض ظواهر الفتنة والتي تحدث في المجتمع مع الفرد، أو المسؤول. أو المصلح، أو النبي، الغني والفقير.

جدلية الصراع بين الحق والباطل

وهكذا نرى من كل ما سبق أن الإنسان هو المحور والأساس في كل الرسالات السماوية.. أو هو بالأحرى مكلَّف بقضية عليه إتمامها.. والتطور البشري الديني يظهر أن التكليف مصدره واحد، وأنه يسعى إلى هدف واحد. ولنقل هو الحق وقضية الحق بكل ما في الكلمة من معنى. وعليه كان لا بد من نقيض للحق. أو عدو للحق، أي الباطل، وبوجود

هذه الأضداد لا بد من أن يوجد أتباع لكل منهما، بحيث يبقى الصراع بينهما إلى أبد الآبدين، ما دامت عناصر الصراع وأطرافه هي الأخرى أبدية الوجود.

والحق، أن الإنسان المؤمن هو – في هذا الموقف – في صراع أزلي مع الباطل، أيّاً كان الباطل، في النفس، أو في المجتمع، أو في دائرة أعلى من ذلك، وكان الأمر يتلخص في الوصول إلى سلوك صحيٍ على جميع الصعد النفسية والاجتماعية، وحتى الجسدية، لذا كانت الإرهاصات الأولى أو التجارب الأولى بمثابة تحديد للحق والباطل وعناصر كلٍّ منهما، ومن ثَمَّ كانت التجربة الأزلية في هذا الصدد.. من ابني آدم حتى يومنا هذا وإن كانت في قمة نضوجها مع نزول الرسالة القرآنية، وإن حدث شيءٌ بعد ذلك فهو تكرار للتجارب الأولى وإن اختلفت في ظاهرها إلاّ أن مضمونها ومحورها صراع بين الحق والباطل.

لكن من فضل الله علينا وعلى البشرية جمعاء أن مراحل الصراع وظواهره وأشكاله كانت تتطور شيئاً فشيئاً كما رأينا، وأن المرحلة الأولى كانت تُحْسَمُ بأمر من السماء ولم يكن للقتال أثر في ذلك. وأما المرحلة الثانية فهي الهداية والإرشاد، والوعظ، ومن ثَمَّ التوبة والغفران، والمرحلة الثالثة هي التي لم نأت عليها فهي مرحلة الجهاد والقتال في سبيل الله، لا في سبيل الطاغوت.

وأما فروع قضية الحق التي لمسناها مما سبق والتي تركز عليها الرسالات السماوية فهي تتخلص:

أولاً: في الصحة الروحية، ومحور هذه القضية هو الإذعان والامتثال، للخالق المبدع، وهذا هو الهدف الأساسي من الوجود الإنساني كما رأينا سابقاً.

ثانياً: الصحة الحسية، فلأن الإنسان مخلوق من الله، إذاً فليس لأحد السلطة والسيطرة عليه، أو التحكم في وجوده إلاّ الله، لذا أوجد شرائع الأكل والمحرَّمات فيها وكذا في الشراب، إضافة إلى ذلك عدم المساس بحياة الإنسان من قتل أو ضرب أو غير ذلك لأن ذلك يدخل في مسائل الإيذاء للإنسان وهو ينافي التشاريع السماوية.

ثالثاً: الصحة النفسية، وحتى هذه – وإن كانت ذاتية بحتة – فإنها تؤلّف الدافع للسلوك القويم أو هي بالأحرى مركز الضمير، فإن سلمت النفس سلمت السلوكيات، وهذه لا يمكن تنميتها بغير التربية القرآنية والوعظ والإرشاد.

والخروج عن فحوى هذه الأهداف هو الذي يضعنا وجهاً لوجه مع الخطأ السلوكي

ومن ثَمَّ مقاومته بكل الوسائل، من هنا تصبح أمام الإنسان قضية الجهاد المشروع الذي جاءت به السماء بكلِّ حكمة وتدبير.

فالنفس كما رأينا من النماذج البشرية المذكورة آنفاً سواء مع سيدنا سليمان وداود أو مع سيدنا أيوب وحتى مع سيدنا يونس صاحب القصة المعروفة. كانت تتعرض للاختبارات وكان محور هذه الاختبارات هو التوبة.. وكأن التوبة هي الوسيلة الجهادية الناجعة مع النفس وتربيتها أو هي نوع أو شكل من أشكال الجهاد، وأما مسألة الصحة الاجتماعية، فجهادها عند الأخطاء يكون في العقاب والقصاص لذا قال المولى عزّ وجلّ: ﴿**وَلَكُمْ فِي القِصَاصِ حَيَاةٌ يا أُولي الألباب**﴾ وحتى الأقوام الأولى التي جاءتها ريح عاتية أو حجارة من سجيل.. إلخ. لم يكن يخرج الأمر عن القصاص والعقاب على جريمة معينة أو فاحشة كفاحشة قوم لوط.

ولما أُخضِعَت البشرية إلى مرحلة الوعظ والإرشاد من بعد قوم نوح وعاد وثمود، كان لا بدّ من نزول الرسالات التي تحدد قوانين الحق، ليسهل فرزه عن الباطل، وبدأت السماء بعد ذلك تخوِّل أمر العقاب إلى الشريعة والنظام حتى إذا اكتملت البشرية نضجاً وتطوراً بدأت مسيرة الجهاد في سبيل الله كمستوى أعلى للعقاب، وهذا الجهاد الذي تعنيه الرسالة القرآنية أمره خطير وصعب لأنه يطال حتى رقاب الناس، فكانت هذه المقدمات والإرهاصات والتجارب الكثيرة على هذا الطريق، لأن المسألة انتقلت تماماً إلى الأرض ولا غرابة، فما دام الحق برز واضحاً في الرسالات السماوية والذي تُوِّجَ في القرآن – وعناصر الحق هي أيضاً اتضحت معالمها – نعم ما دام الأمر كذلك فلا ضير أن ينتقل العقاب إلى أيدي الناس أنفسهم بدل تدخل السماء المباشر، وعليه أخذت الأرض استقلاليتها ولم تأخذ هذه الاستقلالية إلاّ بعد طول عناء على طريق الصراع الأزلي بين الحق والباطل حتى أصبح هذا الصراع ومعالمه تراثاً واضحاً لا يختلف فيه إثنان وإن أدركته البشرية والأمم السابقة، إلاّ أن الظاهرة الجهادية بأوضح معانيها وأخطرها لم تأت ، وقبل ذلك كما قلنا كانت مقدمات أو أرهاصات ليس إلاّ، وأما التشريع الكامل والمحدد فلم يأت إلاّ بنزول القرآن وفي مدينة القرآن بعد أن كشف قوى الباطل.

الإنسان وقوى الباطل

تمهيد:

منذ بدء الخليقة، والأرض تشهد على ظهرها صراعا أزليا يكاد لا ينتهي ... بين قوى الخير من جهة... وبين قوى الشر من جهة أخرى.... بين المستضعفين في الأرض ، وبين المستكبرين فيها... بين قوى الشر والاستغلال والطمع... وبين قوى الفقراء والمحتاجين والبؤساء، بين القلة المالكة لكل شيء وبين الكثرة التي لا تملك شيئاً.

وتواصل الصراع بين تلك القوى ، دون انفكاك أو توقف... والمشكلة الأساسية تتمثل دائماً في الظلم والحيف الواقع على طبقة من طبقة أخرى، حتى يخيل للجميع أن هذا الأمر، وذلك الصراع لا مناص منه... إذ لم تبرز بعد سبل الهداية والإرشاد... ولم تظهر بعد العناصر الأخرى الوازعة والرادعة.... والتي تشكل ضمير الإنسان وخلقه بحيث يرتدع أو يرعوى.....

ولما استمر الإنسان على هذا الحال زمنا طويلاً والصراع يتفاقم أكثر بين تلك القوى... بعد ذلك جاء العون من السماء ليرفع الحيف عن المظلومين.. ويوقف الظالمين عند حدود يجب ألا يتعدوها... ولا بد، حتى ينجح العون والمدد السماوي، أن يكشف عن القوة المحيطة بالإنسان... والتي تراقبه والتي لم ولن يرضيها الذي يحدث على ظهر الأرض، تلك القوة جاء منها ذلك العون... لذا كانت مهمة أول رسول: هي التعريف بالقوة الخارقة التي تحكم الأرض ومن عليها وبالتالي فإن الإنسان لم يخلق عبثا، ليصول ويجول في الأرض بالطريقة التي يشاء وبالعنف الذي يريد... فعليه أن يحاسب نفسه، قبل أن تحاسبه القوة المسيطرة على الجميع، والخالقة أيضاً للجميع.

وكانت دعوة أول رسول هي: التوحيد بالله... وترك عبادة الأصنام والأوثان والطواغيت ولم تكن تلك الدعوة، باديء ذي بدء، إلا بمثابة تحرير الإنسان من عبودية الآخرين لأنها لا تجدي ولا تنفع ، وطبعا منهم من استجاب... ومنهم من بقي على غروره وعناده...

واستمر الرسل والأنبياء على هذا المنوال... يدعون أول ما يدعون إلى التوحيد بالله... أي كان هدفهم الأول هو التعريف بالله ومن ثم التوحيد به، أما هدفهم الثاني فهو تحرير الإنسان من ربقة العبودية والاستغلال والتسلط والفقر والجهل...

وكان لظهور الرسل والأنبياء ، أثرًا كبيراً ونوعياً في تحديد الصراع، لأنه جاء بالفرز والتفريق بين قوى الحق وبين قوى الباطل... ومن ثم تعيّن الذين يقفون وراء هؤلاء... والذين يقفون وراء أولئك.

وكان من المفترض بعد التوضيح والإرشاد الذي جاءوا به، حين فرقوا بين الحق والباطل... أن تنضوي الأغلبية تحت لواء الخير وقواه ساعة بزوغه.... ولكن الذي حصل... هو أن عملية الفرز بين قوى الخير وقوى الشر.... لم تأت بسهولة... أو بدون تضحيات...

والقرآن حافل بأخبار الأولين الذين لم يقفوا الموقف المطلوب ساعة وضوح الرؤية وبزوغ الحقيقة (حقيقة الله) والحق الذي تأتي به من قيم ومبادئ... فكان جزاؤهم وخيما يليق بموقفهم وهو ما حصل مع قوم عاد وثمود.... وغيرهم... فإذن ما الذي حدث للإنسان، وهو المفطور على الدين والتدين وحبه لقوى الخير... حين لم يقف الموقف الإيجابي المفترض فيه ان يقفه إلى جانب الحق....

الواقع ان القضية الأساسية، أو المشكل الأساسي الذي يوقف الإنسان عند حدود هي أقرب إلى السلبية منها إلى الايجابية في كثير من الأحيان ، تتعلق أكثرما تتعلق بقضية الحرية..... وأخص بالذكر هنا حرية الفكر والتعبير... وهذه القضية هي أخطر القضايا في حياة الإنسان ... وفي سلوكه... وغالباً ما يكون فكر الإنسان مقيداً، والقيود التي تطوق عنق الإنسان وفكره كثيرة وقد لا تعد ولا تحصى.... صحيح أن اغلبها قيود مادية حياتية ولكن تأثيرها على عقله وحرية فكره... لا بد أن يكون تأثيرها بنفس القدر الذي تؤثره على حواسه الأخرى. فكيان الإنسان كل متكامل لا يمكن فصل كيانه المادي عن كيانه العقلي والوجداني وهو ما يمكن أن نراه عبر العصور إذ كلما كان الإنسان مكبلا ومقيدا بقيود وأغلال مادية استغلالية تحول بينه وبين حاجاته الأساسية «مأكل، ملبس، مأوى» كلما كان لذلك تأثير سيء على فكره وعقله وغالباً ما تعطله وسنأتي على بعض تلك الاغلال والقيود....

أولا: العادات والتقاليد:

وهي التي أبطلت مفعول العقل حين لم يكن للإنسان معبوداً حقيقياً واضحاً ، اذ دأب الإنسان على عبادة التماثيل التي اشتهر في صناعتها فأصبحت باطلا وإثماً يمارس جيلاً بعد جيل.... وبالتالي منعته من الوصول إلى الحقيقة حين كان وحيداً أو مناصراً الحق حين أتاه الحق.....

ولعلنا في سرد بعض أمثلة الصراع الذي دار بين قوى الخير من جهة وقوى الشر من جهة أخرى.... لعلنا في ذلك نتوصل إلى حقيقة القيود والأغلال التي كانت تحول بين الإنسان وبين نصرته لقضايا الحق والحرية وأخص بالذكر هنا التقاليد والعادات التي ساهمت في تعطيل مهمة العقل....

فنلاحظ من قصة أبي الأنبياء ، إبراهيم الخليل، حين اتجه إلى السماء باحثاً عن خالق الكون... نلاحظ باديء ذي بدء، أنه أطلق العنان لفكره ليتدبر في ملكوت السموات والأرض... أي كانت خطوته الأولى نحو الله... هي تحرير فكره من القيود والأغلال ليعمل عقله بحرية كما سنرى... ﴿**فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا، قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ**﴾ وطبعاً هذا حقه الطبيعي والمشروع وعلى هذا فهو لم يكفر حين قال هذا ربي.... بل بالعكس أعمل الفكر وأطلق له العنان... ولما كان حراً في تفكيره... خارجاً من نطاق القيود والأغلال التي كان يرزح تحت وطأتها أهل قومه وهي أغلال العادات والتقاليد، التي أبطلت مفعول العقل.

نعم... بذلك أمكنه أن يتوصل إلى الحقيقة الكبرى... حقيقة الله... التي تحمل في طياتها حقائق أخرى كثيرة... وهاهو يستمر في ممارسة حقه الطبيعي:

﴿**فَلَمَّا رَأَىٰ الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ**﴾[الأنعام ٧٧].

وهكذا استمر بالدليل والبرهان.... إلى أن توصل إلى ما يريد... هذه هي الفطرة الدينية التي خلق عليها الإنسان... بالعقل فكر بملكوت السماوات والأرض .. فتوصل عن طريق إيحاء الكون إلى حقيقة الله إنها أساسات سليمة للتفكير أدت إلى نتائج سليمة واستمر على هذا التأمل ﴿**فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي... هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ**﴾ [الانعام ٧٨].

هذه هي قصة الصراع الأولى.... كانت أولاً مع النفس... وعنفوانها ولم يتأت فيها الأنتصار إلا بالعقل.... وإيحاء الكون.... والفطرة التي فطر الله الناس عليها... كل ذلك لا يتأتى أيضاً إلا بالحرية..

ولكن هل توقف الصراع عند هذا الحد؟ لا، بل.... اشتد أوار الصراع... إذ بالطريقة التي اهتدى بها إبراهيم إلى الحق والحقيقة بنفس الطريقة حاول إيصال أبيه إلى ما وصل. حاول تحرير عقل أبيه من القيود والأغلال وهي أغلال وقيود التقليد التي تبطل أي مفعول للعقل... فقال له:

﴿... يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً﴾[مريم ٤٢] .

وقال له أيضاً: **﴿إِذ قَالَ إِبْراهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَومَكَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾**[الأنعام ٧٤].

من ذلك كان هدفه أن يوصل والده إلى الحقيقة، بالعلم والإقناع كما وصل هو من قبل فيقول أيضاً: **﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ العِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعنِي أَهدِكَ صِرَاطاً سَوِياً يَا أَبَتِ لاَ تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمنِ عَصِيّاً * يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحمنِ فَتَكُونَ لِلشَّيطَانِ وَلِيّاً﴾**[مريم٤٣-٤٦].

وهكذا كانت خطوات الصراع.... محددة وعلمية تصلح لكل زمان.... ومكان اذ كانت الخطوة الأولى..... الثورة على النفس وجهادها وتحريرها من ربقة الأغلال والقيود التي كرستها ترهات العادات والتقاليد ولكأنى بالإنسان مسخراً للعادات ولتلك التقاليد.... والخطوة الأولى هذه... هي ذاتها الخطوة التي ذكرت في القرآن..... **﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِرُ مَا بِقَومٍ حَتّى يُغَيِرُوا مَا بِأَنْفُسِهِم﴾**.

يا لعظمة هذا الكتاب فيه الشفاء.... وفيه الدواء... لبني الإنسان وهو ما زال محتاراً لا يدري أين الصواب... ولا أين الخطأ ولا أين يوجد أولاهما فيتبعه ولا أين ثانيهما فيرفضه.

وكان طريقه للأنتصار على النفس، كما ذكرنا، التأمل بحرية وانطلاق وبفكر ثاقب وعقل مدرك لكل ما يدور حوله من ظواهر الكون المنظم وسمته العجيبة... وبعد ذلك ها هو يتجه إلى أبيه فيجادله بالتي هي أحسن وبالإقناع المقرون بالأدلة والبراهين الساطعة.

ولكن أنى للقلوب والعقول المقيدة بأغلال العادات والتقاليد... أنى لها الفهم

والإدراك!! فبدل أن يستجيب ، والده، لنداء العقل والبراهين...بدل ذلك آثر الرد والصد والهجران لابنه ولدعوته....

إذ يقول: ﴿.... **أراَغِبٌ أنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنتَهِ لأرجُمَنَّكَ وَاهجُرنِي مَلِيًّا**﴾[مريم ٤٦].

ولكن المؤمن لا يستكين، ولا يحيد عن المباديء ، مهما كانت الصعوبات والعراقيل وإلا كيف يصبح مؤمنا... اذ لا بد أن تُعَبّدْ طريق المؤمن المكافح بالتضحيات وها هو يهدده بالرجم والهجران... ورغم ذلك يقف إبراهيم وقفة المؤمن الواثق فيقول: ﴿.... **سَلاَمٌ عَلَيكَ سَأستَغْفِرُ لَكَ رَبِّي...**﴾[مريم ٤٧] .... كانت تلك هي الخطوة الثانية في قصة الصراع وهي التي رأيناها مع أبيه... وأما قصته مع القوم والمجتمع فهي الخطوة الثالثة..... رغم أن القوى كان البون شاسعاً فيما بينها اذ لا وجه للمقارنة بين قوى الشر والمكر... وبين قوة الخير المتمثلة في إبراهيم... ولكنه لم يضعف أمام جهابذة المكر والاستغلال.... مهما أوتوا من قوة أو صولجان....

وهكذا كان .... فيقول لهم ﴿... **مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ التَّي أنتُم لَهَا عَاكِفُونَ**﴾[الأنبياء٥٢]. وكان ردهم كالعادة أنهم، على الإجمال والعموم، مسخرون لعادات آبائهم لا يحيدون عنها حتى ولو كانت باطلة....﴿**قَالُواْ وَجَدنَا آباءَنَا لَهَاْ عَابِدِينَ...**﴾.

وبالمناسبة لا نريد المسلم أن يكون مسلماً بالعادات والتقاليد لأن ذلك أضعف الإيمان بل نريد المسلم والمؤمن.... كذلك... عن عقيدة راسخة واقتناع ثابت.. لا يتزعزع أمام رياح الشرك والوثنية... إيمان بالعقل وتصديق بالقلب.... إذ لولا ثبات الإيمان في قلب إبراهيم لما وقف هذا الموقف البطولي من قوى الشر والطغيان... قد يكون ذلك لأنه نبي... ولكن الله يضرب الأمثال للناس لعلهم يتذكرون...

وهكذا يستمر التحدي ويشتد الصراع... فيقول لهم:

﴿**لَقَدْ كُنتُم أنتُم وآباؤُكُم فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ**﴾ [الأنبياء٥٤].

﴿**قَالُواْ أجِئتَنَا بِالحَقِّ أم أنتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ**﴾ [الأنبياء٥٥].

﴿**قَالَ بَل رَّبُّكُم رَبُّ السَّموَاتِ وَالأرضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَاْ عَلَى ذَلِكُم مِّنَ**

الشَّاهِدِينَ﴾

هذه هي قناعته... يعرضها عليهم بعد أن آمن بها إيماناً راسخاً لا يقبل الشك.... فهو إذن لم يأتهم لاعباً أو مازحاً وإلا لوفر علي نفسه مشقة الذي يحدث... بل جاءهم بالحق... الذي يستحق النضال لنصرته... فيعلن الحرب على الأصنام التي يعبدون فيقول:

﴿**وَتاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصنَامَكُم بَعدَ أَن تُوَلُّواْ مُدبِرِينَ...**﴾[الأنبياء٥٧].

ويشتد أوار الصراع فيما بينهما فيقولون: ﴿**مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ**﴾[الأنبياء:٥٩].

هذا طبعاً في حكمهم وفي حكم دينهم الذي يدينون به.. ويستأنف بعضهم القول: ﴿**قَالُواْ سَمِعنَا فَتًى يَذكُرُهُم يُقَالُ لَهُ إِبرَاهِيمُ**﴾[الأنبياء٦٠].... فيأمرون بمحاكمته محاكمة صورية لا تستند على دليل بل وتنقصها الشرعية... وتبدأ محاكمته....

﴿**قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِ عَلَى أَعيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُم يَشهَدُونَ**﴾ [الأنبياء٦١] فيستنطقونه أمام الجمع﴿**قَالُواْ أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يا إِبرَاهِيمُ**﴾..... ﴿**قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُم هَذَا فَاسأَلُوهُم إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ...**﴾[الانبياء: ٦٠–٦٣] ... وكان في ذلك مفاجأة لهم..... حين صدمهم بالحقيقة... وهي أن الذي يعبدونه ليس إلا أصناما لا تضر ولا تنفع ، ولا تنطق ولا تسمع، مما أدخل الشك في نفوس البعض:﴿**فَرَجَعُواْ إِلَى أَنفُسِهِم فَقَالُواْ إِنَّكُم أَنتُمُ الظَّالِمُونَ**﴾[الأنبياء٦٤]...

من هنا نرى... أن الذي ينقصهم هو المنطق والعقل الحكيم والتأمل الجاد في سبيل الوصول إلى الحقيقة، ولكن، كان لكثافة ما ران على قولبهم من الزيف والتضليل الأثر العميق الذي أدى، بالتالي إلى تراجعهم....

﴿**ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَى رُؤُوسِهِم لَقَدْ عَلِمتَ مَا هَؤُلاَءِ يَنطِقُونَ**﴾[الأنبياء٦٤].... وهكذا يستمر في إبراز الحقائق لعلهم يهتدون.

﴿**قَالَ أَفَتَعبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنفَعُكُم شَيئًا وَلاَ يَضُرُّكُم**﴾ [الأنبياء٦٤]. ولما لم ينفع معهم اللين، واللطف في المجادلة، واجههم بالعنف الذي يفهمون فيقول: ﴿**أُفٍ لَّكُم وَلِما تَعبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلاَ تَعقِلُونَ**﴾[الأنبياء٦٧].

نعم ، قال ذلك... وهو يدرك معني التحدي الذي يحمله قوله... ولكن كيف يخشى

لومة لائم وقد تغلغل الإيمان إلى قلبه... قال ذلك وهو مستعد أن يتحمل في سبيله اسوأ الاحتمالات واضعاً نصب عينيه تحقيق الإنتصار الذي يصبو اليه... قال ذلك بعنف وشدة حين رأى الا مناص من العنف والشدة حتى ولو حكموا عليه بالحرق وفعلا كان....

﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَانصُرُواْ آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنتُم فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء٦٨]... عند هذا الحد تبقى القصة مجرد قصة كفاح وصراع بين الحق والباطل ولكن العنصر المهم في هذا الصراع هو العنصر الحاسم الذي يقلب موازين القوى ساعة الشدة وهو نصر الله.... ﴿قُلنَا يَا نَارُ كُونِي بَرداً وَسَلاَماً عَلَى إِبرَاهِيمَ﴾.

ثانياً: الظلم والطغيان:

ولكن هل بقي الصراع هكذا،صراعاً دينيا بحتاً؟ أي تغلب عليه النزعة الدينية الداعية للتوحيد... وكفى....؟!

في الواقع كان ذلك في البداية كما لاحظنا ولما اتضح للناس أن هؤلاء المصلحين «الرسل» إنما جاءوا بأهداف واسعة وشاملة لسلوك الإنسان وليس لتصحيح سلوكهم الديني وحسب.... نعم، لما اتضح لفريق كبير من الناس أن تلك الدعوات من بين أهدافها رفع الحيف والجور والعسف عن المظلومين وأن من بين أهدافهم أيضاً تحقيق العدل بين الحاكم والمحكوم والظالم والمظلوم، والسيد والعبد، والفقير والغني والمساواة بينهم في الحقوق والواجبات... لما أتضح لهم ذلك إلى جانب تحقيق الحرية للإنسان على وجه الأرض ... بشكل عام....

بعد ذلك كله... أخذ الصراع يتجه اتجاهاً آخر أكثر تمييزاً وحصراً لقوى الحق وقوى الباطل واتضح أكثر فأكثر ... من الذين يقفون وراء الحق.... وأولئك الذين يقفون وراء الباطل...

والواقع يظهر ذلك جلياً في رسالة موسى ودعوته... وقصة صراعه مع قوى الشر والطغيان الذين نصّبوا أنفسهم آلهة ذلك الزمان وهو فرعون الطاغية... الذي له مثيل في هذا الزمان... بل وما أكثرهم... وطبعاً ساعدته قوى أخرى يهمها انتصاره هي قوى الشر والاستغلال وسنرى ذلك فيما بعد قال تعالى :﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنْ إِئتِ القَومَ الظَّالِمِينَ﴾....

نلاحظ من الآية إتجاه الصراع، كما ذكرنا، يتضح أكثر وأكثر ... فبعد أن كان جل

الاهتمام نحو دعوة التوحيد... ها هو يُطالب موسى بمقاومة الظلم والطغيان المتمثل بطغيان فرعون...﴿**إِذهَب إِلَى فِرعَونَ إِنَهُ طَغَى**﴾[طه ٢٤]... وفي آية أخرى يوجه الخطاب إلى موسى وهارون فيقول: ﴿**إِذهَبا إِلَى فِرعَونَ إِنَّهُ طَغَى**﴾ [طه ٤٣]... [الشعراء٢٨].

﴿**قَالَ فِرعَونُ وَمَا رَبُّ العَالَمِينْ**﴾ ومن خلال الصراع، لا بد من العودة إلى الدعوة الأساسية التي جاء بها موسى: فيقول تعالى على لسان موسى: ﴿**رَبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُما إِنْ كُنتُمْ مُوقِنِينْ**﴾. وقال تعالى على لسانه أيضاً: ﴿**قَالَ رَبُ المَشرِقِ وَالمَغرِبِ وَمَا بَينَهُمَا إِنْ كُنتُم تَعْقِلُون**﴾...[الشعراء: ٢٤، ٢٨].

ولما جاء موسى بهذه الدعوة الحقة والواضحة وبعد أخذ ورد... بعد ذلك كله اتهموه بالجنون ﴿**قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرسِلَ إِلَيكُم لَمَجْنُونٌ**﴾ [الشعراء٢٧]... والواقع أن هذه التهمة تكررت مع كثير من الأنبياء والمصلحين.

ثالثاً: السحر والشعوذة:

وطبعاً الصراع لم يتوقف عند هذا الحد إذ لا بد أن يستخدم «فرعون» كل القوى التي تسانده وتساند الطغيان والشرك والاستغلال، لذا اتجه إلى قوة السحر... والشعوذة والدجل لعلها تنقذه من الورطة: ﴿**فَتَولَّى فِرعَونُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى**﴾ [طه ٦٠]. ولكن مهما فعل.. ومهما جهز من قوى فلن يتأتى له النصر... لا بل، سيفشل في هذه الجولة... كما فشل في الجولة الأولى ... «جولة الحوار» ولنرى نتائج الصراع مع قوة السحر إذ: ﴿**قَالَ لَهُم مُّوسَى أَلقُواْ مَا أَنتُمْ مُّلْقُونَ* فَأَلقَواْ حِبَالَهُم وَعِصِيَّهُم وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرعَونَ إِنَّا لَنَحْنُ الغَالِبُونَ**﴾[الشعراء٤٣-٤٤]...وفي آية أخرى ﴿**قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبالُهُم وَعِصِيُّهُم يُخَيَّلُ إِلَيهِ مِن سِحرِهِم أَنَّهَا تَسْعَى**﴾...

﴿**فَأَوجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيْفَةً مُّوسَى**﴾[طه٦٧]...

وهكذا نرى أن فرعون الطاغية كان يسخر قوة السحر والشعوذة لتخويف الناس وإرهابهم حتى يبقوا عبيداً له، وطوع أمره ولكن فرعون لم يفلح في تحقيق حلمه... بأن يتحقق له النصر على موسى....

﴿**قُلنَا لاَ تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعلَى* وَأَلقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلقَف مَا صَنَعُواْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيدُ سَاحِرٍ وَلاَ يُفلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى**﴾ [طه٦٨-٦٩].... وفي آية أخرى ﴿**فَأَلقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذا هِيَ تَلقَفُ مَا يَأفِكُونَ**﴾[الشعراء٤٥]..

نرى مما ذكر أن السحرة أنفسهم كانوا يفعلون ذلك مكرهين بل ومضللين حتى أنهم حلفوا وأقسموا بفرعون ﴿**وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَونَ**﴾... والملاحظة الأخرى التي يجب أن نلاحظها هي أن، لا قوة فرعون ولا سلطانه، ولا حتى قوة السحر التي استعان بها، قادرة على أن تقف في وجه صرخة الحق، المدعومة بنصر الله وقوته. ﴿**فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ**﴾ [الشعراء٤٦]. والعظمة الأخرى التي يجب أن ندركها وهي، ما أن دخل الإيمان قلوبهم واطمأنت... حتى انتزع الخوف منها انتزاعاً... فاصبحوا لا يخافون.. لا من فرعون ولا من طغيانه ولا من طغيان السحر الذي كبل عقولهم طويلاً .... فاعترفوا بزيف ما يؤمنون.... ولما هددهم فرعون بقطع الأيدي والأرجل والصلب في جذوع النخل لم يثنهم ذلك... عما أجمعوا عليه «الايمان» فقالوا: ﴿... **لاَ ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ**﴾ و ﴿**قَالُواْ لَن نُّؤثِرَكَ عَلَى مَا جَاءنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ....**﴾ وقالوا: ﴿**إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ**﴾ [طه ٧٢-٧٣].

رابعاً: الاستغلال والطغيان المادي:

والواقع أن جبروت فرعون وطغيانه الذي أوصله إلى أن قال: ﴿**فَحَشَرَ فَنَادَى فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى**﴾.... وقال تعالى أيضاً على لسانه: ﴿**يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمتُ لَكُم مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي**﴾[القصص: ٣٨]... وقوله لموسى ﴿**لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيرِي لأَجعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسجُونِينَ**﴾[الشعراء٢٩]. نعم إن القول الذي قاله قطعاً يدلل على جبروته وطغيانه ولكن هل أتى ذلك بالصدفة؟؟.... الواقع لا.... فلولا دعم قوى الشر والطغيان له ، لما وصل به المقام إلى ما وصل ، فكان يتحكم بالسلطة «الحكم». يخوف بها الناس، يضاف إلى ذلك قوة السحر والشعوذة والدجل التي كان يسخرها هي أيضاً.... لزرع بذور الشك والخوف في عقول البشر حتى يسهل السيطرة عليهم.

والقوة الرئيسية الآخرى التي كانت تساعده في التسلط والطغيان هي قوة المال الذي سخر أيضاً من أجل مناصرة الباطل، كيف لا وهو المتحكم بحاجات الإنسان وضرورات حياته فها هو قارون.... كان من قوم موسى فبغى عليهم وتسلط وألحق الظلم والقهر بفئة كبيرة من الناس. حتى أفسد في الأرض .... وطغى وتكبر فيها شأنه شأن فرعون إلا أن هذا استخدم سلطان المال وما أفظعه من سلطان ... فما الظلم والقهر والإستبداد وغير ذلك مما يحيق بالإنسان على مر العصور... إلا بفعل سلطان المال وما يتبعه من جشع الإنسان. ولنرى موقف المال وأصحاب المال من صراع الحق والباطل الذي يتكرر

على مر العصور . ولكن فقط بأشكال وطرق وأساليب متنوعة تأخذ طابع العصر الذي يحدث فيه الصراع

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَومِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيهِم وآتَينَاهُ مِنَ الكُنُوزِ مَا إِنّ مفاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالعُصبَةِ أُولِي القُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَومُهُ لا تَفرَح إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الفَرِحِينَ﴾[القصص ٧٦].

نرى من الآية، أن المال الذي أتى قارون استخدمه في الظلم والطغيان والكبر والخيلاء وكان الأحرى به أن يستخدمه في الإنفاق والإحسان **﴿وَأَحسِن كَمَا أَحسَنَ اللَّهُ إِلَيكَ وَلاَ تَبغِ الفَسَادَ فِي الأَرضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ المُفسِدِينَ﴾**[القصص٧٧]... وكلمة الفساد والإفساد تحمل في طياتها معان كثيرة من التحكم والتسلط والبيع والشراء برقاب العباد واستغلال أموالهم لبذر بذور الشقاق فيما بينهم فتدب بعد ذلك الفوضى والإنحلال والسرقة والإحتيال في ثنايا المجتمع...

وإن كنا قد أتينا على مال قارون، الذي وظّفه للطغيان والاستغلال ومناصرة الباطل.. فإنما كان ذلك مثالا، ليس إلا ، والكتب السماوية وأخص منها القرآن، وحتى الكتب غير السماوية، حافلة بالأمثلة الصارخة التي تدلل على مواقف المترفين «المسرفين» من دعوات المصلحين والرسل، فها هو القرآن يقول بالنص..

﴿وَمَا أَرسَلنَا فِي قَريَةٍ مِنّ نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُترَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرسِلتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾[سبأ ٣٤] وقال أيضاً **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَموَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيهِم حَسرَةً ثُمَّ يُغلَبُونَ﴾**[الأنفال٣٦] وطبعا هذه ليست صفة لصيقة بهم لا تراوحهم فهناك من امتثلوا لدعوات الحق والحرية وأنفقوا قسطاً كبيراً من أموالهم في مناصرة قضايا الإنسان من أمثال عثمان بن عفان وابو بكر وخديجة.... وغيرهم.... ولكن، ونحن ندرس هذه الظاهرة، لابد أن نعتمد فيها على الأغلبية ولسنا قاصدين صنفاً من الناس بعينهم، فهذا لم يدر بخلدنا قط وإنما نقصد وضع اليد على القوى التي تناصر الباطل وتقف موقف العداء من قضايا الإنسان.... حتى يسهل فرز تلك القوى ومن ثم تسهل مقاومتها.

والواقع لو لم تكن هذه مواقف تلك القوى لانتفى «طبعاً» الظلم والاستغلال، والتكالب على المال وجمعه بوسائل مشروعة وغيرمشروعة... وهو الذي أدى إلى التخلخل الاجتماعي بين الطبقات ومن ثم انتشار الأوبئة الاجتماعية الأخرى مثل السرقة والاحتيال والكذب والخداع ناهيك عن جرائم القتل... ونفس الشيء تكرر في زمن رسالة محمد....

نعم نفس القوى التي وقفت تساند الباطل عبر السنين هي نفسها قاومت دعوة الحق التي جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم فها هو القرآن يقول : ﴿**تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَى عَنهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ**﴾.

وقال: ﴿**وَيلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ، الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ يَحسَبُ أَنَّ مَالَه أَخلَدَهُ، كَلاَّ لَيُنبَذَنَّ فِي الحُطَمَةِ**﴾ وغيرها كثير .

الإنسان وقضية الحق

تمهيد:

أوضحنا أن الإنسان في مدينة القرآن يؤهل تأهيلاً نادرَ المثال، لا بل يخضع لتجارب شتّى في الصبر والمصابرة وكأنه يعيش حياة نادرة، هي الأخرى ملؤها العمل والجد والاجتهاد، أو هو بمثابة مشروع يُطوَّر تربوياً وإنسانياً وروحياً، وكأني به أمام قضية كبرى عليه الانتصار لها، وفعلاً هو يعيش من أجل القضية الكبرى -- قضية الحق، بكلٍ ما تعني هذه الكلمة من معانٍ، ومعاني هذه الكلمة تعني الانتصار للضعفاء أو المستضعفين، واليتامى، والمساكين، والفقراء، وأخذ الحق لهم، ومن ثَمَّ الاصطدام بالقوى الأُخَرَ إن لم تنفع وسائل الوعظ والإرشاد والمجادلة الحسنة، وقد تتطور قضية الحق والدفاع عنها إلى صراعات جانبية فرعية، قد تصل إلى حدٍّ قتل النفس، وهذه القضية – لكونها خطيرة جداً – وَضَعَ الدستور القرآني شتى المحاذير والضوابط على هذا الطريق، بحيث جعل المساس بالنفس الإنسانية وكأنه تقويض أو بداية لتقويض أركان المجتمع الإنساني، لذلك، يكون وضع الإنسان في مدينة القرآن وضعاً متميزاً عليه أن يتحرّى حدود الله في مقارعة الباطل، وأن يكون انتصاره للحق دائماً، لا بل كلُّ عمله في سبيل الله. لكن المشكلة الرئيسة هي في التعرض للنفس الإنسانية وهو يدافع عنها. حتى مثل هذا السلوك ضرب القرآن عليه مثالاً أو أمثلة نكتفي منها بمثال موسى عليه السلام وهو نبي من الأنبياء. ولنبدأ حين دخل المدينة: **﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هذَا مِنْ شِيعَتِهِ وهَذَا مِن عَدُوِّهِ، فَاستغاثَهُ الَّذي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسى فَقَضى عَلَيْهِ قَالَ هَذا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مـضِلٌّ مُبِينٌ﴾** [سورة القصص: ١٥].

طبعاً لو أراد الله لعصمه من هذه المسألة، ولكن كانت مثالاً أبدياً يجب الاعتبار به، لأن قضية القتل قضية كبرى في شريعة القرآن، ولنقرأ هذه الآية: **﴿مِنْ أَجْلِ ذلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فكأنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾**. [سورة المائدة: ٣٢].

الحق، لا أدري لماذا سطرت هذه الآية العظيمة بشأن بني إسرائيل وهي تختص بقضية هابيل وقابيل، بخصوص جريمة القتل الأولى على ظهر الأرض، ومن ثَمَّ كانت التوراة هي البادئة بهذا التشريع العظيم. ومسألة القتل قد جاءت كما رأينا في حادثة أخرى مع موسى عليه السلام، وكانت مع رجل من بني إسرائيل برغم مرور آلاف السنين بين الحادثتين.. ولكن هذا لا يعن أن التحذير جاء فقط لبني إسرائيل بل هو شامل كقضية سماوية ذُكِرتْ مرة ثانية في الدستور القرآني. وعليه، فنحن لم نكن البادئين في وضع التشريع الأول في هذا السبيل، ولكن الدستور القرآني رصد ويرصد الحركة الإنسانية إلى أبد الآبدين ويضع الحدود المثلى في هذا السبيل.. ونعني هنا بالقول: إن موسى وغيره من الأنبياء هم أعضاء بارزين في بناء مدينة القرآن العظيمة، وكل من أسهم في هذا البناء الضخم أو وضع لبنة فيه – ذُكر أم لم يذكر في القرآن – لهو بمثابة مناضل في سبيل الله أو لنقل مجاهد في سبيل الله.

وعليه يمكن القول: إن النفس الإنسانية عزيزة في القانون السماوي، جاءت في التوراة أو في غيرها من الرسالات. ومن حسن الحظ أن هذا بدأ في الكتب الأخرى، وفي الأمم التابعة لها قبل أن يبدأ في مدينة القرآن، فإن كان من نقض لهذا الأمر العظيم فعليهم أن يبدؤوا ذلك بأنفسهم ولا سيما إذا تدرجت هذه القضية إلى مرحلة أخرى متقدمة ودخلت في صلب الجهاد في سبيل الله.. علماً أن الجهاد هو تحري الصواب في هذه المسألة التي بدأت مع هابيل أولاً ومع موسى ثانياً، فكان ذلك بداية التفريق بين الحق والباطل في هذه القضية ليسهل الدفاع عنها.. لذلك من يتصدَّى لهذه القضية كان عليه أن يمرَّ في تجارب تربوية شتَّى لئلا يقع في المحذور الذي وقع فيه الغير، وفوق كلِّ ذلك لا بد من أن يعرف حدود الحق الذي يجب أن يدافع عنه وهو يخوض هذه المرحلة الصعبة، فحين قتل قابيل أخاه هابيل لم يكن دفاعاً عن الحق، وإنما عن حسد في نفسه لأخيه، وأما المسألة الأخرى التي دافع عنها سيدنا موسى عليه السلام فهي قضية الحق، ومناصرة الذي من شيعته على الذي من عدوه، وإذا بالقضية في العرف السماوي أو القرآني قد جانبها الصواب. وابتعدت عن الحق الذي يجب الدفاع عنه.. لذا كان لا بد من ذكرها في القرآن.. هذه الدروس العظيمة وإن حصلت مع الغير إلاّ أنها تمثل مضامين المنهاج القرآني، في السلوك الأمثل حين مواجهة هذه القضية، ومنها نرى أيضاً أن الباطل لا بدّ من أن يُزْجَرَ ويُمنع إنْ في مدينة القرآن أو خارجها، ولكن ونحن نفعل ذلك لا بد من تحري الصواب والابتعاد عن الشطط

والغلو.. كما نعلم كانت مراحل الصراع بين الحق والباطل تتطور تدريجياً تماماً كما هي المسائل الأخرى في الحياة، قبل أن يقول المولى عزّ وجلّ في الكتاب العظيم: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسلامَ دِيناً**﴾ [سورة المائدة: ٣].

فهذه الكلمات البسيطة لم تأت بين عشية وضحاها فهي بحق مضامين الحق الذي جاء الإنسان من أجل الدفاع عنه حتى وصل إلى مرحلة إعلان الإسلام كدين عالمي أبدي، ومن ثَمَّ افتتاح المدينة العظمى.. لا بل كانت هذه الكلمات قد عُبِّدَت طرائقُ الوصول إليها بكثير من المشقة والتعب وصراع بين الحق من جهة والباطل من جهة أخرى وإن كان ذلك قد مرَّ هو الآخر بالتدريج.

فهابيل لم يكن سلاحه غير التسامح أمام أخيه وتفادياً لقتل النفس.. وأما نوح وهود وصالح فقد لجؤوا إلى السماء أيضاً تفادياً للقتل، وإبراهيم سلك طريق الوعظ والإرشاد أيضاً تفادياً للقتل.. ويونس اختار الهروب على أن يبدأ صراعاً قد يطول مداه.. إلاّ أن هناك تجارب صغيرة وبدائية بدأت مع موسى أولاً ومن ثَمَّ داود وسليمان عليهم السلام.

تجارب الأمم الأولى في الجهاد أو العقوبة بالقتال

كما نعرف فإن موسى عليه السلام كان قد بدأ عهداً جديداً في مسألة الحق والدفاع عنه، ولم يكتف المولى عزّ وجلّ بتجربته الأولى مع فرعون التي اتسمت بالوعظ والإرشاد، ومن ثَمَّ تدخُّل السماء لحسم الصراع بين الحق والباطل انتهى إلى غرق فرعون ونجاة موسى ومن معه.

الحق، هذه القضية لا تهمنا هنا لأنها قضية حسمتها السماء ولا تصلح في زمن غير زمانها إذا علمنا أن الوحي السماوي قد انقطع عن الأرض يوم جاءت الرسالة العظيمة – رسالة القرآن – وافتُتِحَ عصر جديد مغاير للعصور الأخرى لأنه فيه كثيراً من المسائل أو كلُّها قد اكتملت فيها التشاريع وأصبحت الأرض وكأنها تعيش مرحلة التسيير الذاتي.

التجربة الموسوية

ولكن تجربة موسى في هذا الصدد لهي البدايات الأولى للتشريع المتكامل الخاص بحسم الصراع بين الحق والباطل وبأسلوب أمثل.. ولكن علينا أن نتجاوز في تجربته الجزء السماوي من القضية ولنبدأ التأريخ لهذه الشريعة بقضية الرجلين اللذين اقتتلا أمام موسى، فاختار موسى التحيز لجانب الذي من شيعته علي الذي من عدوه دون أن يعرف الأسباب الأخرى

للقضية، الأمر الذي أدرك معه الخطأ الكبير في هذه المسألة حتى قال: ﴿**قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾ [سورة القصص: ١٦].

طبعاً في هذه أصبح موسى مؤهلاً لأن يقود الجماعة إلى دخول الأرض المقدسة، ولا سيما بعد أن اعترف بذنبه وتاب من فعلته، فقال: ﴿**يا قَوْمُ ادْخُلُواْ الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّواْ عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ**﴾ [سورة المائدة: ٢١].

هذه الدعوة الجهادية التي جاءت على لسان موسى كانت من أجل نصرة الحق، وفي سبيل إعلان كلمة الله.

وعليه يمكن أن نقول: إن مسألة الامتثال للأمر الإلهي لهو في صميم الجهاد في سبيل الله، ولا يهمنا هنا الأقوام التي أُمرت بهذا.. لأن ما يهمنا هو انتصار قضية الحق كائناً من كان المدافع عنها، ومن ثَمَّ يكون الالتزام بالأمر الإلهي والالتزام بالأهداف الأخرى لقضية الجهاد، نعم يكون في ذلك الأسس القويمة للسلوك الإنساني الأمثل في مقارعة الباطل، ويا ليت، لا بل نتمنى أن تنضمَّ كل قوى الحق من أجل الانتصار لقضية الحق، وهو الأمر الذي أدركه الإسلام وشجَّع عليه، لأنه ناسخ لكلِّ التوجهات الأخرى في كل مسائل الحياة.. فدخل الفارسي والحبشي واليهودي والمسيحي، نعم كلهم تحالفوا معاً في بوتقة واحدة وحاربوا قوى الشرك والوثنية وما موسى أو غيره إلاّ البدايات الأولى في هذا الطريق، وفعلاً بين أخذ ورد قالوا له: ﴿**يا مُوسَى إِنَّا لَنْ ندْخُلَهَا أبداً ما دَامُوا فِيهَا فاذْهَبْ أنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا ها هنا قَاعِدُون**﴾ «سورة المائدة: ٢٤].

وعليه لم يبق من جنود موسى إلاّ نفر قليل وهذا ما عكسته الآية: ﴿**قَالَ رَبِّ إِنِّي لاَ أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وأخِي فَافْرِق بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ**﴾ [سورة المائدة: ٢٥].

طبعاً غضب المولى عزّ وجلّ عليهم فتاهوا في الأرض أربعين سنة حتى كانت خاتمة المطاف: ﴿**قَالَ فَإِنَّها مُحَرَّمَةٌ عَلَيهِمْ أَربَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ**﴾ [سورة المائدة: ٢٦].

وهكذا كان الصراع الأول مع فرعون، قد تَمَّ بانتصار موسى عليه السلام على قوى الشرك والوثنية وبعون مباشر من السماء.

وأما الصراع الثاني فكان خاتمته مأساة بني إسرائيل حتى إنه قيل: إن موسى وهارون قد ماتا في التيه.. وبرغم ذلك بعد أن كانت السماء تتكفل بالأمر.

لم تبق الأمور هكذا، بل تطورت بشكل جذري وتدريجي كما سنرى في تجربة داود عليه السلام.

تجربة طالوت وداود عليه السلام

أما هذه التجربة فكانت بشكل مختلف من حيث الإعداد لها وتطويرها بشكل يشبه – إلى حد ما – ما نحن عليه اليوم.. وإن كانت – أيضاً – قد حصلت في زمن بني إسرائيل..

ولنقرأ البدايات الأولى في هذه الآيات: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُواْ قَالُواْ وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّواْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ**﴾ [سورة البقرة: ٢٤٦].

أي أن الأمر قد حدث أيضاً في زمن بني إسرائيل وبرغم ذلك لم يقاتلوا في سبيل الله وقد أُمرُوا بذلك. فكان سؤالهم الأول عن الرجل المؤهل لقيادة الجماعة.. فلما قيل لهم بأمر طالوت المؤمن والمتعلم.. قالوا: ﴿**أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ**﴾ [سورة البقرة: ٢٤٧].

هكذا هم دائماً يبحثون عن المال ومقاييسه حتى في اختيار القادة، وبعد أن انتهى القوم من مسألة القيادة جاءت مسألة أخرى اقتضت اختبار المؤمن من غير المؤمن، فكانت بحق تربيةً نفسيةً يمكن أن تحدث في كل الأزمان، وكأنها الدرس الأول على صعيد التربية العسكرية، لا بل هي الأساس الأول في الجندية المؤمنة بقضايا الحق، بحيث تبذل الغالي والرخيص في سبيل انتصار الحق.. والتجربة كما يأتي: ﴿**فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ**﴾ [سورة البقرة: ٢٤٩].

وبهذا القليل – القليل، سار طالوت بالجنود بعد أن أخضعهم لامتحان صعب، أول ما بدأ في الصبر على المكاره والتدرب على تحمل المشاق والصعاب لأن الجندية لا بدّ من أن تحتمل التقشف والصبر والحرمان، وكل ذلك في سبيل نصرة الحق وقضايا الحق.. الأمر الذي يكون معه القتال مشروعاً ومن ثَمَّ يسمى جهاداً في سبيل الله.

وحتى أولئك الذين ساروا معه، بعد أن اجتازوا مرحلة الامتحان المادي، أُخْضِعُوا لتجربة الاختبار الروحي بحيث يكون الجهاد خالصاً لوجه الله.. فتقاعس نفرٌ آخر منهم حين

قالوا: ﴿لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُواْ اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [سورة البقرة: ٢٤٩].

وهكذا تمَّ الانتخاب الطبيعي في مسألة الصراع بين الحق والباطل، فأما الزبد فيذهب جفاء.. وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض وبقي المؤمنون بالله: ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُواْ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[سورة البقرة: ٢٥٠]. ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ﴾.

هكذا كان الامتحان الصعب الذي خرج منه رجل فذٌّ يصلح لأن يكون نبياً وهو داود، وكان جائزته: ﴿وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ [سورة البقرة: ٢٥١].

من هنا بدأت مسيرة الصراع بين الحق والباطل تنحو منحىً جديداً، وبهذه بدأت شرائع الحياة تكتمل في الأرض وكأنها تمهد للانتصار العظيم.

تجربة سليمان عليه السلام

وهكذا نرى من الدروس القرآنية في مدينة القرآن أن الإنسان دائب الحركة والعمل في سبيل الله إن على صعيد الدين أو الدنيا، ويبرز من هذه الدروس الأسلوب السماوي العظيم في التربية والسلوك توطئةً لتخريج أفواج من القادة والأفراد، وكلٌّ ذلك من أجل انتصار قضية الحق بشقيها الإلهي والإنساني، ويرى القارئ الكريم، والمتأمل بجدٍّ واجتهاد أن قضية الحق ينتصر لها - في العرف القرآني - العربيٌّ وغير العربي، فهي ليست حكراً على العرب لأن رسالة القرآن بالذات جاءت عالمية الأسلوب وعالمية الهدف.. وهي تحتوي القضايا كلَّها من أول يوم بدأ فيه الإنسان يدب على ظهر الأرض إلى آخر يوم في الحياة.. وما الأنبياء والمصلحون وغيرهم إلاّ رجال من أهل القرى - كما يؤكد القرآن دائماً - يسعون إلى تحقيق أهداف الرسالة الأم.. رسالة القرآن.. فها هو النبي سليمان عليه السلام الذي يفصله عن العهد الإسلامي قرون عديدة يسير على نفس الهدي القرآني في الدعوة للإسلام، وكان عمله بمثابة إضافة أخرى على هذا الطريق.. ولنقرأ هذه التجربة بشيء من التأمل..

ولكون سليمان حاكماً على الإنس والجن والطير، فإن إمكاناته كانت واسعة النطاق وكان يشعر دائماً أنه منوط بهداية الأمم إلى طريق الإسلام لا غير، على الأقل في الزمن الذي يعيش فيه، وكانت البداية في الآية الآتية: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ، لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ [سورة النمل: ٢٠ و٢١].

ومجمل القول: إنه أخبر سليمان بمملكة سبأ، وكانت هذه المملكة هي ومَنْ على رأسها من عبدة الشمس.. فكان عمل وجواب سليمان، كما هو في الحوار الآتي، قال الهدهد أولاً: ﴿**إِنِّي وَجَدتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ، وَجَدتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ**﴾ [سورة النمل: ٢٣ و٢٤].

كما قلنا فإن الوضع قد تغيّر عن ذي قبل، فعلى سليمان أن يبدأ صراعاً من نوع مختلف لأن البشرية أصبحت في وضع تتهيأ معه لاستقبال التشريع المتكامل في صدد حسم الصراع بين الحق والباطل والذي تُوِّج بانتصار المدينة العظيمة، مدينة القرآن على أيدي المستضعفين والفقراء من دعاة الحق والحرية، وفعلاً بدأ بالأسلوب الأمثل الذي يعتبر نموذجاً يُحتَذَى في الدعوة للإسلام.. فكانت الخطوات الآتية:

* إرسال الرسائل ودعوة القوم للدخول طائعين في دين الله «الإسلام» حيث جاء ذلك في الآية التالية: ﴿**اذْهَب بِكِتابي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ**﴾[سورة النمل: ٢٨].

وكان مضمون الكتاب واضحاً من خلال السياق القرآني حيث قالت للقوم: ﴿**إِنَّهُ مِن سُلَيْمانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ، أَلاَّ تَعْلُواْ عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ**﴾ [سورة النمل: ٣٠ و٣١].

هذه الدعوة ولا شك واضحة لكلِّ ذي بصر وبصيرة وهي ولا شك مكتوبة في الكتب السماوية الأخرى.. فقط لو لم تحرَّف.

وسنلحظ دائماً أن قضية الجهاد قضية لا مناص منها، وإن شوِّهت حتى أصبحت عاراً على الإسلام والمسلمين، فإن ذلك مسعى الغرب الاستعماري والمستشرقين وقد نجحوا فيه.. إلاّ أن الحق يبقى حقّاً ويجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، وهم بدؤوه أول مرة – طبعاً بدأه المخلصون منهم من أمثال موسى وداود وسليمان وعيسى.. إلخ عليهم السلام. وهم ولا شك في العرف القرآني من رجالات مدينة القرآن المخلصين الذين عبَّدوا الدرب للأمم والشعوب المغلوبة على أمرها حتى جاءهم النصر المبين يوم انتصر الفقير واليتيم والمسكين والمرأة والطفل وكلُّ الضعفاء، وعاشوا في كنف المدينة العظيمة تظللهم رايات الشورى والعدل والمساواة.

نعم، هكذا أُعلِمت ملكة سبأ بالخبر الذي جاء من عند سليمان والذي يدعوها باللين

والحسنى، لأن تدخل في دين الله «الإسلام».. طبعاً لا يهمنا موقفها هنا بقدر ما يهمنا طريقة سليمان في الدعوة للإسلام، وكيفية انتصار الحق بين أول دولتين؛ واحدة تناصر الحق وأخرى تناصر الباطل.

فكانت البداية أن أشارت على القوم بالنظر في دعوة سليمان فما كان جواب قومها، أو القادة منهم إلاّ ما أوردته الآية في النص الآتي: ﴿**قَالُواْ نَحْنُ أُولُواْ قُوَّةٍ وَأُولُواْ بأسٍ شَدِيدٍ والأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تأْمُرِين**﴾ [سورة النمل: ٣٣].

فاختارت بعد ذلك أن ترسل رشوة أو جزية أو هدية حتى تنال منه الاعتراف بدولتها وكيانها والابتعاد عنها، ولكن في قضايا الدين والدعوة للتوحيد، لا حلول وسطاً، كما نرى من تصرف سليمان عليه السلام فقال بالنص القرآني: ﴿**ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرون**﴾ [سورة النمل: ٣٧].

وبهذا كان سليمان قد سار على نهج أبيه فكان الثاني على هذا الدرب.. حيث استعد للقتال والجهاد في سبيل الله، الأمر الذي بدأت معه سيرة الجهاد بالسيف تتعزز شيئاً فشيئاً في سبيل الله ونصرة قضايا الحق، ولكن لم يكن كل ذلك إلاّ بعد تجارب بشرية متوالية منها ما تعثر كما حصل مع الرسول موسى عليه السلام في التيه.. ومنها ما بدأ يشق طريقه عبر الصعاب كما حصل مع داود وطالوت.. وانتصارهما على قوى الشرك والباطل.. وأما قبل ذلك فكان – كما رأينا – الاعتماد دائماً على العون السماوي المباشر بمعجزٍ أو ريح عاتية أو طوفان.. لا يُبقي ولا يذر.

والحق أن سليمان قد استعد للأمر بحيث كاد يحسمه بالجند والجيوش الجرارة، ولكن السماء تدخلت أيضاً هذه المرة منعاً للاقتتال، ووفرت عليه مؤونة السفر ومشقة الدرب فاستخدم وسائله الكثيرة في الإقناع قبل أن يُقْدِمَ على ذلك فكانت البداية هذه المرة مع الجن: ﴿**قَالَ يا أَيُّهَا الملأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أن يأْتُونِي مُسْلِمِينَ، قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أن تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ، قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ، قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِراً عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ**﴾ [سورة النمل: ٣٨ و ٤٠].

كان بإمكانه أن يستخدم هذه الطاقة الفعالة التي يملكها، ولكنه آثر أن يستعدَّ للنفير حين يستدعي الواجب ذلك، وكأنه يقول ويؤمن بالتضحية بالنفس والنفيس في سبيل الله.. أو

هي الإشارات الأولى لبدء الجهاد المقدس في سبيل نصرة الحق إذا دعا داعي الجهاد.. وهو ليس مجلبة للعار كما يصوره الأعداء، ومن حسن الحظ أن الخطوط الأولى للجهاد بدأت مع الأمم الأخرى كما نرى وكأنه يقول لهم كما قال لبني إسرائيل: ﴿**أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ**﴾.

هي إذا قضية عالمية في كلِّ الرسالات، وهي ليست ثغرة تحسب على الإسلام أنه جاء بحدِّ السيف.. فالإسلام هو الذي قال لا إكراه في الدين ولكن، أيضاً، الإسلام هو الذي رسم الحدود والشرائع المتكاملة في الجهاد والدعوة للجهاد.

فالجهاد فقط يكون في سبيل الله وفي سبيل نصرة الحق.. ومن ثَمَّ هم أكثر من أسهم في إشعال الحروب لا لشيء إلاّ من أجل قضايا مادية لا غير، أو للغزو، أو التوسع، وآثارهم مازالت باقية في كلِّ حنايا الأرض.. وأما الإنسان في مدينة القرآن فعليه أن يفخر بأنه منوط أكثر من غيره برفع لواء الجهاد لأنه يدافع عن قضايا الحق والحرية.. وبأسلوب أمثل، وطبعاً – وكما يروي القرآن بأسلوب قصصي ممتع – أسلمت ملكة سبأ لله ربِّ العالمين.. طبعاً بعد أن رأت من سليمان ما أدهشها وعَقَدَ لسانها عن الكلام اللهمَّ إلاّ.. ﴿**رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [سورة النمل: ٤٤].

ولكن الدرس المستفاد من القصة هو أن المنهج القرآني في الصراع – والذي لا بد من أن يلتزم به الإنسان المؤمن في مدينة القرآن – لا بد من أن يمر كما رأينا في الكتب السماوية الأولى وكذا القرآن، بمراحل: أولاها مرحلة الإقناع والمجادلة الحسنة، وإرسال الرسائل كما رأينا.. وثانيها.. إن لم تنفع الأولى، الدلائل الحسية إن وجدت، وآخرها مرحلة الحسم بالقوة.. طبعاً إذا كانت الظروف تستدعي هذا الأمر، وسنأتي على هذه الظروف في مكان آخر، وهذا الأسلوب المتطور في حسم الصراع لا بد من أن يأخذ طريقه في مدينة القرآن، وهو الأسلوب الأمثل، وإلاّ فلا بدّ من أن يقع الإنسان في المحذور الذي لا يجب أن يقع فيه.

وقد يتساءل بعضٌ ممن يصطادون في الماء العكر فيقول أحدهم: أهكذا بعد كلٌ هذه الدراسة حول الإنسان في مدينة القرآن تلجأ في آخر المطاف فتضعه في أتون المعارك والصراع والقتال.

الحق هذا قدر الإنسان المؤمن، فعلى عاتقه تقع المسؤولية الكبرى بعد أن أوكلت القضية برمتها إلى الأرض، ولم توكل المهمة هكذا اعتباطاً بل رُسِمَتْ بأسلوب أمثل بحيث – وكما رأينا – لم تَزُجَّ به في هذا الموقف دون تدريب أو تخطيط، فالدرس بكامله رسم في

القرآن وسنأتي عليه بالتفصيل، وما دام الشر والخير موجودين على ظهر الأرض، في النفس وخارجها فلا بد من أن يوجد هكذا تشريع، وهكذا إنسان لئلا يختلط الحابل بالنابل، ويضيع الحق وسط ضجيج الباطل وعنفوانه وعليه يمكن القول: إن الإنسان الأمثل الذي رضع حليب التسامح والإيمان في مدينة القرآن لا يمكن أن يظلم أو يشطط في قضايا الحق، وحتى إن خاض صراعاً مسلحاً فهو دائماً من أجل الحق المرسوم بالقرآن.

العهد التبشيري

وإلاّ فكيف يكون حال البشرية إن لم يوجد الإنسان النموذج الذي ينتصر للحق، أيعقل أن تخلوا الساحة للأشرار، وما أكثرهم في كل زمان. وتعالوا الآن لنرَ العهد الذي وضع فيه السلاح في غمده، كيف واجه الأشرار أخيار الناس، حتى الأنبياء منهم كما سترى.

في هذا العهد الذي سبق افتتاح المدينة العظيمة – مدينة القرآن – جاء وكأنه تذكرة للأمم بالمعجزات السماوية، ومن ثَمَّ اكتملت الأديان أيضاً بهذه المعجزات، وعلى رأسها – وهي الجديرة بالذكر -- خلقُ عيسى من أم بغير أب، في الوقت الذي كان خلق حواء من غير أم.. هذا، ناهيك عن خلق آدم من غير أب أو أم، قال تعالى: ﴿**ذلكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآياتِ والذِّكْرِ الْحَكِيمِ، إنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**﴾ [سورة آل عمران: ٥٨ و٥٩].

وأما المعجزة الأخرى فهي ما حصل مع زكريا من قَبْلُ حيث قال: ﴿**ربِّ هَبْ لي من لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إنَّكَ سَمِيعُ الدُّعاء، فَنَادَتْهُ الملائكَةُ وَهُوَ قائمٌ يُصَلِّي في الْمحْرابِ أنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بيَحْيى مُصَدِقاً بِكَلِمةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيَّاً مِنْ الصَّالِحين**﴾ [سورة آل عمران: ٣٨ و٣٩].

طبعاً هو نفسه استغرب الأمر في قوله: ﴿**قَالَ ربِّ أنَّى يَكُونُ لي غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وامْرأتِي عاقِرٌ قَالَ كذلكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ**﴾ [سورة آل عمران: ٤٠].

وطبعاً هناك معجزات أُخَرَ لعيسى لا مجال لذكرها هنا، ولكن ما نريد قوله في هذا الصدد، هو: أن هذا العهد كان بمثابة تذكرة للبشرية بالقدرة الإلهية، عن طريق المعجزات التي بثها في خلقه وفي الكون.. تلك المعجزات التي جاء مثلها في المراحل الأولى للبشرية على طريق التدين والتي أهلكَ بعدها كثيرٌ من الأمم، لما كذبوا وكفروا وسلكوا مسالك الزيغ والزلل.. يضاف إلى ذلك كلِّه أنها كانت بمثابة تكملة للناموس كما قال عيسى ما جئت لأنقض الناموس ولكن جئت لأتمِّم الناموس، وفوق ذلك جاء للتبشير بنبي من بعده اسمه

أحمد، أُوكِلَتْ إليه مَهَمَّةُ افتتاح المدينة العظيمة التي ساهم فيها الأنبياء كلٌّ في مجاله واختصاصه، ضمن البناء العظيم للمدينة إنْ في المجال الإنساني – الأخلاقي أو في المجال المكاني، أو في المجال التبشيري، حتى اكتملت أركان المدينة الإنسانية، والدينية، والاجتماعية والمكانية، وجاءت بشرى ذلك على لسان عيسى ابن مريم: ﴿**وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يا بني إِسْرائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مصَدِقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوراةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يأتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ**﴾ [سورة الصف: ٦].

كما ورد في التوراة ذكر هذا الاسم – أن سيأتي من ولد إسماعيل – رسول اسمه أحمد لا بدّ للجميع من الإيمان به، اليهود منهم وغير اليهود.

وهكذا كانت هذه الفترة لتهيئة البشرية لاستقبال العهد الإسلامي الذي ينتصر لكل الضعفاء، والذين هُضمت حقوقهم عبر السنين والأيام، كما هي تحقيق رغبة آدم في الانتصار على العدو التقليدي، ورغبة الأنبياء الذين ذاقوا الأمرَّيْن من الأقوام الأُوَل، مرةً أُخْرِجُوا من ديارهم، ومرةً أوذوا، ومرةً قتِّلُوا – كما نرى – في هذا العهد بالذات، ولا سيما الرسول يحيى عليه السلام الذي كان جريئاً في مجابهة الباطل ولا يخشى في الحق لومة لائم، وهي صفات المجاهدين الأبرار، حيث أعلن استنكاره لتصرف ملك فلسطين الذي أراد أن يتزوج ابنة أخيه، مما أدَّى إلى التآمر عليه ومن ثمَّ قتله، الأمر الذي أزعج زكريا أيضاً فمات حزناً على ابنه الوحيد.

ولم يكن يحيى وحيداً في هذا الأمر، فلقد تعرض عيسى عليه السلام هو الآخر للفتنة والفساد ومحاولة القتل من قِبَلِ القوم الذي جاءهم بالبشرى والخلاص. ولكن الله خلصه منهم فرفعه إليه مكرماً إلى يوم القيامة.

وحتى إن مريم تعرضت من قَبْلٌ للتشهير والتجريح، وبرغم ذلك صبرت وصابرت لأنها واثقة بالنصر من عند الله.

ولكن في هذه القصص المذكورة لم نر عقاب السماء ولا عقاب الأرض، وكأن الأمر كلَّه أُنيط بالعهد القادم الذي فيه القول الفصل، فلا زكريا قاد الجيوش ومن ثم حارب الأعداء، ولا يحيى ولا عيسى فعلا ذلك، وكأنه لم يكن مطلوباً منهم فعل ذلك. برغم الدسائس والمكائد والفتن التي حيكت ضد الرسل والأنبياء بصفة خاصة والحق ورسله بصفة عامة.

وكانت كلُّ وسائلهم لا تتعدى الإقناع والوعظ والإرشاد، وطبعاً قد يُستَغَلُّ هذا الأمر

للتمييز بين العهد المسيحي والعهد الإسلامي من حيث إن الأول اتسم بالتسامح والثاني اتسم ببروز ظاهرة الجهاد بشكل لم يسبق له مثيل، من الصراحة والوضوح في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ﴾.

الواقع أن العهد المسيحي هو مرحلة من مراحل الصراع سبقته مراحل كمرحلة موسى، ومرحلة داود وسليمان عليهما السلام، ومن ثَمَّ جاءت المرحلة الحاسمة على يد نبي عظيم امتلك كلَّ الصفات التي برزت واضحةً في المراحل الأولى، وهكذا نبي لا شك أنه مؤهل لأن يخوض تجربة نادرة تشهد لها الدنيا كلها، من آدم – الأب الأول – إلى آخر إنسان يبقى على ظهر الأرض فيشهد المشهد الأخير – للكون، فسيعلن الانتصار على كلِّ أعداء البشرية، وتصبح تجربته أنموذجاً يُحتَذَى في كلِّ العصور، كيف لا، وقد امتلك الرحمة والقوة في آن واحد، كان رحيماً بالمؤمنين وشديداً على الكافرين وجاهد في الله حق جهاده.. وهو يفخر فخراً لا مثيل له بأنه أدار الصراع بين الحق والباطل بأسلوب أمثل، الأمر الذي أقنع الأمم – كلَّ الأمم – ألاَّ مناص من الدخول في العهد الجديد والمدينة الجديدة. فدخلها الفارسي والحبشي والعربي والعجمي واليهودي والمسيحي وبدون قيد أو شرط اللهم إلاّ شرط الإيمان والتوحيد بالله العلي العظيم.

السلوك الأمثل في إدارة الصراع الإنساني

الإنسان النموذج والسلوك الأمثل في إدارة الصراع الإنساني:

إن الإنسان كان يمر عبر تجارب حياتية متنوعة ولكنها متكاملة في كلِّ المجالات التربوية والنفسية والدينية والجهادية، وبالتالي فإن الإنسان وهو يتسلم الرسالة القرآنية، يكون قد امتلك المبادرة أو امتلك ناصية الأمور حتى الجهادية منها.

وعليه كانت المسألة الجهادية من أعظم المسائل التي أُنيطت بالإنسان، وكأنها الركن السادس من أركان الدين العظيم – الإسلام، ولم تأت هذه المسألة اعتباطاً بل كانت من أدق القضايا التي تطورت بتطور البشرية عبر السنين والأعوام، ولكن الآن وبعد تجارب قاسية جاء دور الإنسان النموذج ليتسلم هذه المهمة بكل تفاصيلها ومحاذيرها. وهذا الإنسان، وهو يتسلَّم هذه المهمة. مرَّ هو الآخر عبر تجارب هي الأُخَرْ قاسية. وكأنها في مضمونها تمثل التجربة الإنسانية برمتها، فالإنسان النموذج، الذي أُهِّلَ لهذه المهمة قد مر بتجارب قاسية من اليتم والفقر وضيق الحال وعليه كان من حيث التصنيف البشري، من طبقة الضعفاء، ولم يكن ذلك من قبيل الصدفة لأنه كان يؤهَّل من أجل الانتصار لقضاياهم. مصداقاً لقوله تعالى: ﴿**وَنُرِيدُ أَن نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ**﴾ [سورة القصص: ٥].

من هذا نرى أن ظلماً قد لحق بفئة من فئات البشر، وقد طال انتظارها ليوم الثأر والانتصار، مهما كان حالها، مقارنة مع حال الطرف الآخر الذي انتصر للباطل، عبر كلِّ العصور.

ولكن هذه الفئة، وهي تتأهب للنصر العظيم، كانت تتوق إلى قائد ملهم أو نبي أو عون سماوي مباشر يعينها على ذلك، غير أن الأرض بعد وصولها إلى مرحلة متقدمة من التطور الديني والعقلي بات لزاماً عليها أن تأخذ هذا الدور ليكون نموذجاً يُحتذى. وفعلاً جاء ذلك على يد النبي العظيم محمد بن عبدالله ﷺ. ولكن هذا النبي – كما قلنا في مقالات سابقة

– لم يكن يحمل كسابقيه معجزة مؤقتة تذهب بذهابه، بل جاء برسالة كاملة شاملة وخالدة عبر السنين.. وهكذا رسالة لا بدّ من أن يكون حاملها من نفس الكيفية. فيه الشدة كما فيه اللين. فيه الرحمة كما فيه العنف. فيه الفقر كما فيه الغنى، كان في ذاته يجمع كلَّ الظواهر الإنسانية التي تجعله أكثر من غيره قرباً من سنن الله في الأرض والإنسان، فهو الإنسان الذي جُبِلَ على السنّة الإلهية في الكون والإنسان والانتصار لقضاياه وحقوقه. حتى تجاربه قبل البعثة كانت تَنُمُّ عن رجل ينتصر لقضايا الحق والإنسان، لذا حكم على المجتمع الجاهلي بالتغيير، وإلاّ لما لفظه وسار نحو الغار يتلمس طريق النور، تماماً كما هم إخوته من أصحاب الكهف. فكانت تجربته فريدة في نوعها وكأنها كل التجارب، حتى إن المستضعفين في الأرض كانوا كلهم ينظرون إليه على أنه المخلِّص.. هذا قدره، كانوا الضعفاء والفقراء والمساكين كلهم يتوقون إلى قيادته، لا بل يرقبونه بفارغ الصبر، حتى إخوته من الأنبياء الذين أُوذوا من أقوامهم كانو يرون فيه محققاً لأهدافهم التي لم تتحقق بكاملها. فانتصر لنوح وآدم من قبله، وهابيل وكذا من بعدهم هود وصالح وإبراهيم وشعيب وموسى وداود وسليمان وعيسى.. إلخ.

وعليه كانت تجربته تمثل دورة كونية أو هي تلخيص للدورة الكونية في التربية والاعتقاد والسلوك. وفوق ذلك كانت مسألة الجهاد هي القضية الفريدة التي صاغها بأسلوب أمثل تماماً كما هي في القرآن الكريم وقبل أن نستطرد في الموضوع علينا أن نتتبَّع طريقه في الإيمان والتربية والدعوة ومن ثم الجهاد في سبيل الله.

التربية النفسية أو جهاد النفس

الحق، إن الرسول الكريم ﷺ كان قد جُبل على الخلق القويم من يوم ولدته أمه، ولقد صهرته الحياة أيضاً وصنعت منه إنساناً رحيماً كريماً صادقاً أميناً.. شهد له بذلك العدو قبل الصديق، فكان يسمى بالأمين، وعليه فإن تجربته الأولى وعلى الصعيد الأخلاقي كانت ناجحة تماماً وكأنها التجربة الكونية الإنسانية على مدار الحياة – كما قلت – يُضاف إلى ذلك أن الله كان ينبته نباتاً حسناً وإن هو مرَّ بأقسى الظروف فلأنه كان يُطوِّر تربوياً وأخلاقيّاً، فكان فقيراً ليشعر بمرارة الفقر، وكان يتيماً ليشعر بقساوة اليتم، وكان وحيداً ليشعر بمرارة الغربة والوحدة، وكل هذا استغرق معه أكثر من نصف عمره وهو يتقلَّب بين نار الفقر واليتم والغربة وضيق الحال.

ولما انتهى من دروس الحياة القاسية ومرارتها خرج منها بمزيج متكامل من الفضائل والأخلاق الحسنة، جاءه بعدها البشير في غار حراء وكأنه يقول له: لقد نجحت في التجربة الأولى، وعليه لا بدّ من أن تتسلَّم الرسالة العظيمة التي تليق بإنسان عظيم، فتسلَّمها بهدوء ورباطة جأش وأخذ على نفسه عهداً أمام البشرية كلها، ألاَّ مناص من افتتاح المدينة العظيمة والفجر العظيم الذي طال انتظاره، ولكن لم يبدأ الدعوة بتسرع الجاهل أو الفرح المغرور بل بدأها بخير ما يُبْدأُ به الأمر العظيم.

الدعوة السرية

كانت البداية الأولى مع المستضعفين في الأرض الذين استُضعفوا وظُلموا من قوى الباطل، فاجتذب من حوله الكثير من فئات المجتمع، الفقير منهم والضعيف واليتيم والمسكين يُضاف إلى ذلك المرأة التي كانت مكسورة الخاطر.. مهيضة الجناح، وبعد هذه المرحلة الأولية توجه إلى المرحلة الثانية.

الدعوة الجهرية

كانت هذه المرحلة من أقسى المراحل ولم تكن لتتم لولا التربية النفسية الجهادية الأولى بحيث جعلت من الإنسان المستضعف إنساناً قوياً بالإيمان لا يتزحزح عن نصرة الحق، فكان الأوائل من المسلمين هم بحق الذين تربوا في المدينة القرآنية ووفق المنهج القرآني العظيم وعلى يد المدرس والمربي النموذج محمد بن عبدالله – ﷺ – فكان يربيهم على التضحية والجهاد والشجاعة والإيمان من جهة، وعلى العطف والرحمة واللين من جهة أخرى، فكان يسلحهم بسلاح ذو حدين، سلاح يقطع الشرك والوثنية من جذورهما، وفي نفس الوقت يرفع الفقير والضعيف واليتيم من وهدة الذل وضيق الحال إلى العزة والكرامة.

وهكذا، كما هي السُنّة الإلهية دائماً.. لم يُطلب من النبي العظيم عليه السلام أن يجاهد القوم ويرفع في وجوههم عصا أو سلاحاً أو سيفاً، وكل ما طُلِب منه، باديء ذي بدء، أن يبدأ بنفسه أولاً، ومن ثَمَّ بعشيرته والأقربين، وبعد ذلك انتقل – كما رأينا – إلى الضعفاء من القوم أو المستضعفين في الأرض، وكل ما فعله – وهو يدعوهم للإسلام – لا يتعدى الأسلوب الحسن في الإقناع والمجادلة الحسنة، وهذا الأمر طبعاً يردُّ على المشككين في الإسلام وفي دعوة الإسلام بأنه بدأ بشق طريقه بالسيف ليس إلاّ.. تعالوا نسمع الآيات الآتية:

أولاً: بدأ القرآن بكلمة جامعة للعلم والفكر والبرهان حين قال: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي**

خَلَقَ، خَلَقَ الإنسانَ مِنْ عَلَق﴾.

حتى وهو يقول ذلك كان مُثْبِتاً ببرهان قاطع يضع الإنسان في مكانه الصحيح حين قال: ﴿**خَلَقَ الإنسانَ مِنْ عَلَق**﴾ وكأنه يقول هذه بداية الإنسان التي لا تعرفونها، وأما نهايته فهي ماثلة أمامكم في ظاهرة الموت، وهذا الأسلوب لطالما ذُكِّرَ به في كثير من الآيات: ﴿**وَجَادِلْهُمْ بالَّتي هِيَ أَحْسَنُ**﴾ وقال أيضاً: ﴿**قُلْ هَاتُواْ بُرْهانَكُمْ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِين**﴾ وقال تعالى اسمه: ﴿**وَلَوْ كُنْت فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّواْ مِنْ حَوْلِك**﴾ [سورة آل عمران: ١٥٩].

هذه المنطلقات والتوصيات الإلهية العظيمة إن عنت من شيء فهي تعني الرحمة بالإنسانية، لذا أرسلت العناية الربانية رسولاً – في آخر المطاف – رحيماً وبدين رحيم: يدور فحواه دائماً في قوله تعالى: ﴿**لا إكْراهَ فِي الدِّين**﴾ وفي قوله: ﴿**يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ**﴾ [سورة البقرة: ١٨٥].

بهذا الأسلوب العظيم – كما قلنا – اجتذب الرسول العظيم الكثير من فئات الشعب المتنوعة الألوان والأجناس بحيث انضم للدين العظيم، في المراحل الأولى العبد والسيد، والفقير والغني، والأسود والأبيض، والعربي والأعجمي.. ولكن حاربته – ولا شك – قوى الشرك والوثنية وقوى الاستغلال والطغيان، حاربته القوى نفسها التي حاربت نوحاً وهوداً وصالحاً، التي كرهت الوحدانية والتوحيد، وانضمت إليها القوى الاستغلالية نفسها التي حاربت شعيباً وموسى، وبمجمل القول اجتمعت القوى الطاغية، التي ورثت الطغيان أباً عن جدّ فحاربت معاً الدين الجديد والنبي الجديد، فمنعته من إقامة المدينة الفاضلة بين ظهرانيها لأنها كرهت توجهات هذه المدينة العظيمة والتي تدعو إلى العدل والمساواة بين بني البشر، التي تضع بلالاً الأسود وسيده في ميزان الحق سواءً بسواء، وتضع الفقير والغني أمام تشريعها.. كُلاً يكمل الآخر، وعليه كرهت تشريع المدينة وتوجهاتها الجديدة، ولا سيما حين أغلقت أبواب ودكاكين اللّهو والترف والخمر والميسر والزنا فضاق المترفون بهذا التوجّه الجديد فحاربوه كما قلنا، مما اضطر النبي العظيم إلى البدء بالمرحلة الثالثة من الدعوة وهي الهجرة في سبيل الله.

الهجرة في سبيل الله

أيضاً، كان هذا الأسلوب بعيداً عن العنف والشدة، لا بل هو تكرار لمسيرة خليل الله إبراهيم عليه السلام حين ترك القوم الكافرين وتوجه إلى الأرض التي بارك الله فيها وهي أرض فلسطين والشام وفعلاً كان مطلب النبي من هذه الهجرة هو اتساع رقعة الدعوة

السلمية للإسلام لأنه لم يُؤمر بَعْدُ بجهاد القوم وقتالهم، تماماً، كما هي البشرية عبر مراحلها الأولى، وكأني بها قد لُخِّصَتْ في مسيرة نبينا محمد عليه السلام في الدعوة حيث كانت البداية – كما رأينا بالتأمل وجهاد النفس وتربيتها حتى خرجت نظيفة طاهرة نقية من شوائب الحياة، بعدها انتقلت إلى دعوة الأقربين سراً – كما هي دعوة إبراهيم لأبيه – ومن ثَمَّ جاءت المرحلة العلنية التي ذاق فيها النبي ﷺ مرارة التشرد والغربة والهجران حتى من أبناء عمومته وأقرب الأقربين إليه، فكانت الهجرة هي المرحلة المتقدمة في الدعوة الإسلامية، وقد نجحت نجاحاً باهراً حيث آمنت جماهير المدينة المنورة بكاملها بالدين الجديد.

مبررات استخدام السيف في إدارة الصراع

وهكذا، دخل القوم في دين الله أفواجاً، دون أن يفرض النبي عليهم شروطاً، فلم يضع مواصفات معينة على أبناء المدينة الإسلامية اللهم إلاّ الإيمان والتقوى، وبدأت مسيرة الإنسان تنحو نحواً جديداً، وبشكل لم يسبق له مثيل، وكأنه إطار جديد بدأ يحكم الكون، وهو إطار التسيير الذاتي، وبدأ العقاب هو الآخر يأخذ شكلاً جديداً، فوقفت السماء عن أخذ الأمور بيدها، وانتقل العقاب العادل إلى يد الإنسان المؤمن فبدأت الآيات تنزل على الرسول الكريم ﷺ، تضع التشريعات الجديدة للعقاب، وإن كانت آثارها موجودة إلاّ أن التشريع أصبح كاملاً في مدينة القرآن، ولأول مرة طُلب من عناصر المدينة وأهلها أن يستعدوا لمعاقبة الكفرة الملحدين وجهادهم، ولأول مرة ظهرت تشريعات الجهاد في سبيل الله.. بأسلوب أمثل، وكأن السماء أصبحت مطمئنة على الإنسان في الأرض بعد أن اكتملت العقيدة وتشريعاتها الحياتية وجاء الإنسان النموذج الذي جُبِلَ على الأخلاق الكريمة.. والذي لا يُظْلَم في حماه أحد، فطلب من القوم القتال والجهاد في سبيل الله، حتى إن الدستور القرآني وضع تشريع الجهاد في المرتبة الرئيسة للإيمان الكامل، تماماً كما خضع أصحاب طالوت لمثل هذه التجربة الإيمانية، حتى أفرزت المرحلة الجهادية التي خاضوها رجالاً عظماء أشداء على الكفار رحماء بينهم فأنجبت تلك التجربة داود نبيّاً كما رأينا، والآن وضع الدستور القرآني عنصر الجهاد في مقدمة العناصر الإيمانية التي تأتي بعد الأركان الإسلامية، ولنقرأ هذه الآيات: ﴿**قَالَتِ الأَعْرابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُواْ وَلَكِنْ قُولُواْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الايمانُ في قُلُوبِكُمْ وإِنْ تُطِيعُواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لاَ يَلِتْكُم مِنْ أَعْمالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غفورٌ رحيم**﴾ [سورة الحجرات: ١٤].

وعليه فإن المرتبة المتقدمة في الإيمان لا بدّ من أن تضع الجهاد نصب أعينها وكأنه العنصر

العملي للإيمان والذي يتعامل مع الكون وحيثيات الكون: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ**﴾ [سورة الحجرات: ١٥].

فيكون الجهاد – في ضوء هذه الآية – تجسيداً عملياً للإيمان أو هو الترجمة الحقيقية للإيمان، وفي حادثة الهجرة النبوية أكثر من مغزى وإن لم تظهر في زمن نبي الله إبراهيم بشكل واضح حين قال: ﴿**فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ [سورة العنكبوت: ٢٦].

وقال: ﴿**وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ**﴾ [سورة الصافات: ٩٩].

إلاّ أن ذلك ظهر جلياً في هجرة نبيِّنا محمد عليه السلام، وكان المغزى الحقيقي من الهجرة هو فرز القوى أو هو تجميع قوى الحق في بوتقة واحدة وتربيتها التربية الإيمانية وفق المنهج القرآني العظيم، ومن ثم الاستعداد للانقضاض على قوى الباطل التي عزلت نفسها عن قوى الخير، يضاف إلى ذلك تربية النفوس المؤمنة تربيةً روحيةً وشحذ هممها بالصبر والمصابرة تماماً كما ورد في تجربة داود وطالوت الجهادية، حين كان الابتلاء في أعز عنصر من عناصر الحياة وهو عنصر الماء، حيث منع عليهم الشرب إلاّ من اغترف غرفة – واحدة – بيده، فإن هذا الاختبار كان بمثابة تعويد النفوس الصبر تماماً كما هم اليوم يعوّدون الجيوش التقشف في الأكل والشراب ووسائل الحياة الأُخَرَ، وكان كل ذلك توطئة لأمر جديد لم يسبق له مثيل، وهو قتال المشركين الذين فرضوا على أنفسهم اللعنة، والمروق، وهم يحاربون قوى الحق والإيمان.

وعليه فإن الرسول الكريم لم يكن مثل إخوته الأوائل، بل كان متفرِّداً عنهم بأمور كثيرة حتى في أسلوب الدعوة والدفاع عنها، فلم يسارع لأن يفعل ما فعل نوح: ﴿**فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ**﴾ [سورة القمر: ١٠]، أو حين دعا على قومه: ﴿**رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً**﴾ حتى أهلكوا بمعجزة سماوية، وهو الطوفان الذي أغرقهم إلاّ آل نوح ومن معه من المؤمنين، وكذلك لم يفعل كما فعل يونس حين هرب إلى البحر فالتقمه الحوت، أو كما فعل موسى حين قال: ﴿**رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَونَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ**﴾ [سورة يونس: ٨٨].

طبعاً استجاب له المولى عزّ وجلّ، فكانت الحادثة الرهيبة التي أودت بفرعون وقومه كما نرى: ﴿**وجاوَزْنَا ببني إسرائيلَ الْبَحْرَ فاتْبَعهُمْ فِرْعَونُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّى إذا أدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لاَ إلهَ إلاَّ الَّذي آمَنَتْ بِهِ بَنُواْ إسْرائِيلَ وأنا مِنْ الْمُسْلِمِينَ**﴾ [سورة يونس: ٩٠].

وكذلك لم يضع معجزة أمام القوم، كما فعل صالح مع الذين كفروا به حتى أُهلكوا بالطاغية، ولم يحلّ بقومه كما حلَّ بقوم عاد وثمود، ولا هُم مثل قوم شعيب الذين أخذهم عذاب يوم الظُّلَّة، ولا قوم لوط الذين أخذتهم الصيحة مصبحين، فجعل الله عاليها سافلها. كما لم يملك من المال والعدد والعُدَّة كما ملك سليمان الذي حُشِرَ له: ﴿**جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ والإنْسِ والطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ**﴾.

نعم، كان محمد بن عبدالله إنساناً آخر، لا بل هو النموذج الأمثل للإنسان عبر العصور من حيث العدد والعُدَّة والإمكانات الذاتية وغير الذاتية، وعليه حين قيل له ادع على قومك لم يكن منه إلاّ أن قال: «**اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون**» كان يعرف أن عليه تبعات الإنسان البسيط الذي لا حول له ولا طول، اليتيم والفقير والذي لا يملك من أمره شيئاً، فكانت تجربته مثالية بكل ما تعني الكلمة من معنى، لأنها بسيطة يمكن أن تحدث في كل العصور، لأن الإنسان المؤمن وإن كان فقيراً ضعيف الحال يمكنه بالقرآن – التشريع الأبدي – أن يشق طريقه بجرأة إلى الحياة ونصرة الحياة.

فكل التجارب المذكورة مع الأولين لا يمكن حدوثها. ولا سيما بعد أن انتصرت الأرض عبر التجربة القرآنية، لأن المعجزات المادية أصبح لا وجود لها، لا بل لا ضرورة لها، في الوقت الذي نضجت فيه التجربة الإنسانية يوم أن بدأت مدينة القرآن، وعليه كان قدر النبي محمد ﷺ وأصحابه رضوان الله عنهم أن يقاتلوا ويجاهدوا بالمال والنفس لا بالمعجزات ولا بصاعقة من عند الله، أو ريح عاتية، أو طوفان كطوفان نوح أو يمٍّ كيمِّ موسى. وعليه كانت هذه التجربة الجهادية العظيمة التي تصلح لكل العصور، فقط إذا توفرت الشروط الآتية:

١– أن يكون الجهاد في سبيل الله ونصرة دين الله كما يظهر في قوله تعالى: ﴿**الَّذينَ آمَنُواْ يُقَاتِلُونَ في سَبيلِ اللَّهِ والَّذينَ كَفَرُوا يُقاتِلُونَ في سَبيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعيفا**﴾ [سورة النساء: ٧٦].

٢– أن يكون الجهاد دفاعاً عن الأهل والوطن والأموال.. وقد آمنت بهذه الشروط كل

الكتب السماوية، التوارة والإنجيل والقرآن في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾ [سورة التوبة: ١١١].

﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُواْ قَالُواْ وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَآئِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [سورة البقرة: ٢٤٦].

وكان هذا الأمر بخصوص بني إسرائيل وقد كتبوه عهداً على أنفسهم أن يلتزموا بهذا الشرط وإذا بالأمور اليوم تنقلب رأساً على عقب، فأصبحوا هم الذين يمارسون العدوان وإخراج الناس من ديارهم.

وهناك النص القرآني العظيم حول الجهاد والقتال جاء في الآية الآتية: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ، الَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [سورة الحج: ٣٩ و٤٠].

فكان هذا هو الإيذان للجهاد ومن ثَمَّ مقاتلة الشرك والطغيان.

هذه الآيات ومثلها كثير، دفعت النبي العظيم أن يُجند الجنود المؤمنين بالله ونصره، ويدخل بهم إلى مكة حيث الكفر والإلحاد ويفتحها بأيسر الطرق وأسهلها.. وكأنها شجرة حان قطافها فاستسلم دعاة الكفر، ودخل منهم مَنْ دخل في دين الله، وعاشوا جميعاً في كنف المدينة العظيم وعاصمتها العظيمة.. فكان عليه أن يفعل ذلك لأن مكة هي المركز الروحي للمدينة القرآنية حيث فيها البيت العتيق وشعائر الحج. وفيها بدأ إسماعيل يضع حجر الأساس لمدينة القرآن العظيمة بعد أن كانت صحراء قاحلة لا عيش فيها ولا ماء.

وهكذا انتصرت مدينة القرآن وبدأ تشريع المدينة الجديد يقلب الموازين رأساً على عقب، ووقف الفقير والغني في رحاب الله جنباً إلى جنب، والأبيض والأسود في شعائر الحج رجلاً برجل، والعربي والفارسي والحبشي في خنادق القتال كالبنيان المرصوص حتى كبرت المدينة القرآنية وتوسعت أطرافها، ولكن بدأ أعداؤها يكيدون لها لوقف هذا الاتساع والامتداد، وكأنهم يريدون أن يطفئوا نور الله، ولكن الله متم نوره ولو كره المشركون.

التشريع المثالي في استخدام السيف

وقبل أن نطوي هذه الصفحة وهي من أهم الصفحات التي ذكرنا، لأنها قامت على التشريع القرآني في مسألة الجهاد والحرب والانتصار، وهي القوانين المثالية في إدارة الصراع بين الحق والباطل، لأنها جاءت – وللمرة الأخيرة – من الوحي السماوي، ومن عند الله. مباشرة ترسم الصراط المستقيم في هذا السبيل، نعم قبل أن نطوي هذه الصفحة لا بدّ أن نتتبع التشريع القرآني في هذا السبيل.

الإعداد والاستعداد

قبل مواجهة العدو، لا بدّ من الاستعداد والإعداد للمواجهة بين قوى الحق والباطل، قال تعالى: ﴿**وأعدُّواْ لَهُمْ ما استَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّه وَعَدوَّكُمْ وآخرينَ مِنْ دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُواْ مِنْ شَيْءٍ في سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وأنتُمْ لا تُظْلَمُونَ**﴾ [سورة الأنفال: ٦٠].

وهذا ما فعله الرسول الكريم في المدينة.

الوحدة والتماسك

والشيء الذي لا بدّ من ذكره هنا هو توحيد الصفوف لمقاتلة العدو ومواجهته كتلة واحدة وصفاً واحدا، وفي هذا يكون الإعداد النفسي أيضاً لأنه عنصر أساسي في رفع المعنويات، قال تعالى: ﴿**إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذينَ يُقاتِلُونَ في سبيلهِ صَفّاً كأنَّهُم بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ**﴾ [سورة الصف: ٤].

وهذه الميزة حرص المولى عزّ وجلّ على إذكائها في صفوف المسلمين، والتحريض عليها في قوله: ﴿**واعتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللَّهِ جَميعاً ولا تَفَرَّقُواْ**﴾ [سورة آل عمران: ١٠٣].

وكان المولى عزّ وجلّ حريصاً على هذه الوحدة حتى ينتصر أنصار الحق في تجربتهم القتالية الأولى والتي ستكون فاتحة عهد جديد للمؤمنين عبر العصور حتى يرث الله الأرض ومَنْ عليها. وفي هذا يكون الانتصار الحقيقي للإنسان على قوى الشر والظلم – طبعاً – بدون معجزة سماوية أو طوفان.

نعم كان المولى عزّ وجلّ يؤكد الوحدة القتالية للمؤمنين فيقول تعالى: ﴿**فإنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذي أيَّدك بِنَصْرِهِ وبِالْمُؤْمِنينَ، وألَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أنفقْتَ مَا في الأَرْضِ جميعاً ما**

﴿أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ولكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [سورة الأنفال: ٦٢ و٦٣].

وحتى إن كان هذا التدخل الإلهي في توحيد المؤمنين إلاّ أن الأمر يوحي بشكل كبير، أن الوحدة أو التماسك عنصر أساسي للانتصار الأبدي على الباطل.

التوجيه المعنوي

قال تعالى: ﴿يا أَيُّها النَّبِيُّ حَرِضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِائَتَيْنِ وإِنْ يَكُنْ منكم مائةٌ يَغْلِبواْ أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ﴾ [سورة الأنفال: ٦٥].

وهذا العنصر لا بدّ منه في رفع معنويات الأفراد وهم يتوجهون إلى مواجهة العدو، ولا سيما أن المؤمنين كانوا يشكون من قلة العدد ولكن التطمينات الإلهية كانت تصل إليهم تباعاً، ففي قوله تعالى (مثلاً) ومن خلال تجربة طالوت وداود الجهادية، قال المؤمنون بالله: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ ملاقُواْ اللَّهِ كَم مِنْ فِئةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرةً بِإِذْنِ اللَّهِ واللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [سورة البقرة: ٢٤٩].

وزيادةً على ذلك كان يوحي لهم دائماً أن الله يرقبهم في عليائه حتى يقول في آية أخرى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جاءتكم جنودٌ فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان اللَّهُ بما تعملون بصيراً﴾ [سورة الأحزاب: ٩].

إن الله قادر على أن ينصر المؤمنين كما نصرهم من قبل، ولكن مدينة القرآن فتحت عهداً جديداً تسلم فيه الإنسان ناصية الأمور لأول مرة ولا سيما الإنسان المؤمن ليصح فيه قوله تعالى الأول: ﴿وإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْملائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾.

فهذا الإنسان النموذج انتظرته البشرية عبر السنين والأعوام ليكون خليفة مستخلفاً على الأرض لإعمارها بالأخلاق والقيم لا بالمال ومشتقاته.

الثبات والصمود

نعم بهذه التوجهات التربوية والنفسية لا بدّ من أن تتم عملية شحذ الهمم ومن ثَمَّ تكون المواجهة والصبر في المواجهة كما في قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُوا وَصَابِرُواْ وَرَابِطُوا واتَّقُواْ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [سورة آل عمران: ٢٠٠].

وقال تعالى أيضاً: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ سأُلْقِي فِي قُلُوبِ

الَّذينَ كَفَروا الرُّعْبَ فاضْرِبُوا فَوْقَ الأعْنَاقِ واضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [سورة الأنفال: ١٢].

الطاعة

قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنازَعُوا فَتَفشَلُوا وَتذْهَبَ رِيحُكُمْ واصْبِروا إنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرين﴾ [سورة الأنفال: ٤٦].

وقد ترجمت هذه الفضيلة في معركة أحد، فحين ترك الجنود مواقعهم التي أمرهم الرسول الالتزام بها هزمهم الأعداء فكانت تلك المعركة درساً لا ينسي في مجال الحرب والقتال.

عدم التولّي يوم الزحف

قال تعالى: ﴿يا أيُّها الَّذينَ آمنُوا إذا لَقِيتُمْ الَّذين كَفَروا زحفاً فَلا تُوَلُّوهُمُ الأدْبَارَ﴾ [سورة الأنفال: ١٥].

ولكن أباح لهم إعادة التنظيم والهجوم، في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إلاَّ مُتحرفًا لِقتالٍ أوْ مُتَحيِّزاً إلى فِئةٍ فَقَدْ باءَ بِغَضبٍ مِنَ اللَّهِ وَمأْواهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [سورة الأنفال: ١٦].

وبعد ذلك الفيض من الآيات القرآنية التي ترسم الطريق المستقيم، ولأول مرة، نحو ملاقاة العدو، وعد الذين يلتزمون بهذه الحدود والقيود بالانتصار العظيم في الدنيا والمفازة الكبرى في الآخرة.

قال تعالى: ﴿يا أيُّهَا الَّذينَ آمنُوا إن تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّت أقْدَامَكُمْ﴾ [سورة محمد: ٧].

وعليه يكون القتال في سبيل الله أمراً ضرورياً لانتصار الحق، وقد وعد الله بذلك الانتصار: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأغْلِبَنَّ أنَا وَرُسُلي إنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [سورة المجادلة: ٢١].

وأما درجة المجاهدين في سبيل الله في الآخرة فهي عظيمة ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ﴾ [سورة التوبة: ٢١].

وبهذا تظهر قيمة الجهاد في التشريع القرآني وفي مدينة القرآن، بعدها لا تبقى حجة لدعاة الإستسلام. والذين قال لهم في آخر المطاف: ﴿فَلاَ تَهِنُوا وتدْعُوا إلى السَّلْمِ وأنْتُمْ

الأعْلَوْن واللَّهُ مَعَكُمْ ولَنْ يَتِرَكُمْ أعْمَالِكُمْ﴾ [سورة محمد: ٣٥].

عالمية التوجه القرآني

والواقع إن آيات القتال والجهاد في سبيل الله كثيرة ومتنوعة، وقد أتت في كثرتها وتنوعها على مختلف قضايا القتال، من أسبابه ومبرراته إلى وسائله وعُدده إلى آدابه، وقد أتينا على كثير منها ولم نأت عليها كلها، ولكن – ونحن نقول ذلك – لا يمكن أن يُؤْخذ علينا أننا دعاة حرب لا دعاة سلام، لو كان الأمر كذلك ما كانت المَهَمَّةُ هذه أنيطت برسول كريم ورحيم بالضعفاء، وهذا ما يشهد به الصديق والعدو، مِمَّنْ درسوا التاريخ الإسلامي على حقيقته حتى إنه لما دخل مكة منتصراً وكان القوم يتوقعون منه التنكيل بهم وذبحهم أو إخراجهم من الأرض التي أخرجوه منها كعقاب بالمثل وهو قانون تؤمن به شرائع الأرض كلها الوضعية وغير الوضعية وكذا شريعة السماء، فما كان منه إلاّ أن قال لهم: «**ما تظنون أني فاعل بكم، قالوا: خيراً أخ كريم وابن أخ كريم، قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء**».

بهذه النفس العظيمة والكريمة على المؤمنين، والشديدة على الكافرين انتصر الإنسان النسوذج، ولا بدّ من أن انتصاره كان بالمبادئ والقيم والأخلاق، وإلاّ فكيف يستطيع هذا الإنسان الأمي، اليتيم، الفقير، الضعيف أن يحقق هذا الانتصار العظيم ومن ثم يقتنع في قرارة نفسه أنه قادر على أساطين الكفر والوثنية فيرسل لهم الرسائل ويدعوهم للإسلام. إن فعلها سليمان مع بلقيس فإنه كان يملك المال والجنود من الجن والإنس والطير، كلهم كانوا تحت إمرته، أما هذا الإنسان فإنه لا يملك المال ولا السلاح اللهم إلاّ آيات قرآنية تشرح صدره للإيمان بالنصر هو ومَنْ آمن معه، وفي ذلك يكون قد وضع الأسس الأولى لانتصار الطاقة الروحية على المادة.. هي حقيقة معركة الروح في مواجهة المادة، ولأول مرة كان الانتصار روحيّاً فبالأعداد القليلة دخل مكة أولاً، وبالأعداد القليلة تحدّى الأباطرة والقياصرة فبعث لهم الرسائل دون خوف أو وجل، يدعوهم إلى الإيمان والإسلام لأن مهمته كانت عالمية التوجه، نعم كان الإنسان الأمثل الذي قاد الإنسان عبر الصعاب حتى دانت له الأمم والشعوب ومازالت البشرية تلهج بالثناء والشكر لله ولرسوله محمد بن عبدالله ﷺ، حتى الرسائل التي بعثها للملوك والرؤساء كانت تنمُّ عن إنسان مؤمن لا يخشى في الحق لومة لائم، أو بطش جبار متكبر.

فكانت رسالته إلى هرقل الروم هي أعظم تحدٍّ للوثنية والطغاة وكانت في فحواها: أن

اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً إضافة إلى الأمر بالصلاة والصدق والأمانة.. إلخ.

وفي هذا تنحية العظيم عن عظمته والكبير عن كبريائه. ومن ثمَّ تبقى هذه الصفات للعظيم المولى عزّ وجلّ لا لأحد سواه، حتى النبي ﷺ لم ينفك عن القول: ﴿**إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّما إِلهاكُمْ إِلَهٌ واحِدٌ فَمَنْ كانَ يَرْجُواْ لِقاءَ رَبِّه فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً**﴾ طبعاً عملاً خالصاً لوجه الله.

ولما سمع هرقل ما سمع. قال: **هو والله الذي بشر به موسى وعيسى. والذي كنا ننتظره. «رسالات تصدق بعضها بعضاً»**.

أما كتابه إلى ملك الفرس، فقد جاء فيه: «**إني أنا رسول الله إلى الناس كافةً لأنذر مَنْ كانَ حيّاً ويحق القول على الكافرين**».

لم يجرؤ أحدهم أن يعلن أنه رسول إلى الناس كافة برغم ما كان يملكه من المعجزات، الأمر الذي يؤكد أنها نابعة من سراج واحد وتوجت آخر المطاف، بهذه الرسالة العظيمة التي لم تحمل من المعجزات إلاّ معجزة الكلمة والفكر وكأنها أيضاً تبشر بعهد للعلم جديد وإلاّ لما بدأت بكلمة «اقرأ».

طبعاً وإن لم يسلم ملك الفرس إلاّ أن نائبه في اليمن أسلم وأسلم أيضاً معه الكثير من أهل فارس.

وأما كتابه الثاني إلى النجاشي فقد رد عليه بقوله:

أشهد أنك رسول الله مصدقاً صادقاً وقد بايعتك وبايعت ابن عمك وأسلمت على يديه لله رب العالمين.

وهكذا توالت الرسائل الإسلامية إلى مختلف البقاع والأمصار وهو بعد لا يملك من الجيوش مثل ما يملك أولئك الملوك والأباطرة.

وكان في رسائله بمثابة إعلان الحرب على الكفر والإلحاد، وهو يعلم مدى مقدرة الإمبراطوريتين، فارس والروم في المجال العسكري، ولكن لم يأبه لذلك، فكما رأينا كانت دعوته الأولى بالسلم لا بالسيف، وبالإقناع والمجادلة الحسنة كما في الرسالات الأولى. وأما مسألة السيف فإنها – وإن جاءت متأخرة – فليس لأن صاحبها تواق للقتل والحرب. وهو ما تؤكده الآية: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمْ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ**﴾.

وإنما هي امتثال لأوامر الله فكان هو وأصحابه خير من أذعن للأمر والنهي ولم يكونوا كما كان بنوإسرائيل حين قالوا في مسألة الحق والامتثال: ﴿**فَاذْهَبْ أنتَ وَرَبُّكَ فَقاتِلا إنَّا ها هنا قَاعِدُون**﴾.

وأما إن كان عرضاً قريباً أو سفراً قاصداً فيه غنائم أو أموال فلا بدّ أنهم مستجيبون لنداء الحرب وها هم اليوم يفعلون ذلك.

أما المؤمنون الحقيقيون فإنهم ساروا في الدرب إلى نهايته وهي التجربة النضالية الأولى للإنسانية – بهذا المقدار – حيث نرى أن الرسائل وجهت لكلٍّ عظماء الأرض فكانت أيضاً للمقوقس عظيم القبط، وإلى والي البحرين المنذر بن ساوى، وملك عمان، وإلى صاحب اليمامة، وكذا إلى أمير الغساسنة. وطبعاً – كما رأينا – منهم مَن استجاب لدعوة الإسلام بالحسنى ولا سيما حينما رأوا تطابق المباديء والقيم والأهداف بين ما جاء به موسى وعيسى من قبل وما جاء به محمد ﷺ من بعد، فتأكد لديهم أن الدين واحد، وأن الله واحد، وما الأديان إلاّ الرسالات متوالية تصدق بعضها بعضاً ولا تناقض بينها أو تناحر، وما الرسول إلاّ خاتم النبيين، وقد جاء برسالة عالمية لكل الأمم والشعوب، ورسالته كانت الحاسمة التي حسمت الصراع بين الحق والباطل لمصلحة الإنسان إلى أبد الآبدين.

مدينة العصر إلى أين؟؟

مدينة القرآن انتصرت بالإنسان وللإنسان

لقد بُنِيَتْ مدينة القرآن بالجهاد والصبر والقيم حتى وصلت إلى أوج عظمتها، ومن ثَمَّ بدأت تصدِّر هذه القيم الإنسانية إلى الأمم الأخرى، هاجسُها، وهي تفعل ذلك، حرية الإنسان، فكانت بحق المدينة النموذج عبر السنين والأجيال، فقد رفعت من قيمة الإنسان إلى أعلى الدرجات، وخلصته من الأغلال والقيود، وحررته من العبودية والأسياد، ووضعته وجهاً لوجه أمام خالقه، إن سأل، فلا يسأل أحداً إلاّ الله، وإن سجد أو ركع فلا يركع إلاّ لله، الواحد، الأحد، الفرد، الصمد، ولكن، وإن انتصرت له، فإنها لم تنتصر إلاّ به، فلم تنتصر بالمعجزات المادية الحسية، كما انتصر نوح بالسفينة، طبعاً بعون من السماء مباشراً، أو كما انتصر موسى بالعصا، وبعون أيضاً من السماء مباشر.

نعم هي انتصرت بالإنسان المؤمن الذي تربَّى في المدرسة القرآنية على يد أعظم مبشر وأنبل إنسان فيكون الرسول محمد ﷺ، هو النبي الوحيد الذي تعامل فقط مع الإنسان، فبعد أن رباه أحسن تربية. وفق المنهج القرآني، استطاع أن يخوض به الصعاب، ويمهد السبيل لإرساء أعظم مدينة عبر التاريخ.

والحق الذي يقال، إن الوصول إلى هذه المدينة العظيمة مرَّ عبر طريق شاق وطويل، مليء بالصعوبات والأشواك، ولم يمر، كما رأينا، عبر معجزات سماوية، أو عونٍ من أطراف أخرى، كما فعل سليمان وهو يسخِّر الإنس والجن والطير، في بناء مدينته، حتى لما أراد أن ينتصر للدين لم يستعن بالإنسان فقط، بل استعان بعفريت من الجن، أو الذي عنده علم من الكتاب.

من هذا نرى أن مدينة القرآن هي المدينة التي تليق بالإنسان لأنها تأسست وفق معطيات إنسانية وأخلاقية، تحمل في ثناياها الدستور الأبدي، والإنسان المؤمن، وعلى أرض هي بمثابة مهد الديانات والحضارات، ولكن تبقى المدينة القرآنية نموذجاً حضارياً، أو صيغة مثالية،

يمكن أن تطبق مبادئها في كلّ عصر، وإلاّ لما رأينا آثارها المضيئة وبصماتها النورانية، باقية في أغلب بقاع الأرض.. تتحدّى كلّ أفّاك، ولما رأينا أفكارها الحضارية، في العدل والمساواة، والأخلاق تملأ الكتب والمكتبات.. وكأنها بنتُ اليوم، فأين، مثلاً، فرعون والأفكار الفرعونية الملحدة، أو آثارها وهو الذي كان يجسِّد في يوم ما، رأس الشرك والإلحاد، ومن لم يسمع بمقولة فرعون: ﴿**أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى**﴾، نعم أين مدينته وآثاره؟.

فها هي هناك تقبع في صحراء قاحلة.. أثراً بعد عين، لم يبق منها إلاّ خرائب أو أطلال، وأين الذين بشروا بالفكر الفرعوني من أمثال قارون وهامان وصرفوا الأموال والساعات وسخّروا الأمم والشعوب، من أجل تأجيل حضارتهم ولو لساعة، فلم تسعفهم لا الأموال ولا الوسائل، في فعل ذلك، لا بل رأوا قائدهم وهو يلهث من أجل التوبة، فلم تُقْبَلْ منه وقيل له: ﴿**ءَآلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ**﴾ [سورة يونس: ٩١]. فلا الفكر باقٍ، ولا الأموال، ولا الإنسان الفرعوني.. كلهم اندثروا مثلهم كمثل قوم نوح.. وعاد وثمود، لم يبق منهم إلاّ بئر معطلة أو قصرٌ مشيد.

بعكس الفكر القرآني، فإنه – كما قلنا – باق إلى الأبد، حتى إن المنهج الأبدي لمدينةالقرآن بقي مسطراً بأحرف من نور في آيات لا يمسها إلاّ المطهرون، ألا يوحي ذلك بالحقيقة والمصداقية الأبدية، لنموذج المدينة الأمثل، للإنسان الأمثل.

وفوق كلّ ذلك التراث الحضاري لمدينة القرآن والذي يشهد به الصديق والعدو والقائم على أسس وأساسات ثابتة في كتاب ثابت لإنسان أوصافُه وسماتُه ثابتة.. لا بل أرض ثابتة في العطاء، وتوزيع العطاء، إنه ولا شك أسس وأساسات مدينة حضارية.. قائمة على أكتاف إنسان مؤمن متعلم، وبأبعاد أساسية حضارية واضحة سنراها في الأسس والأساسات التالية:

الأساس العلمي – الإيماني

وبهذا يكون الإنسان في مدينة القرآن، هو الإنسان النموذج والذي كان يؤهل أيضاً لكلّ العصور، فبدأت معه، أول ما بدأت، القراءة والتربية والتعليم.. حين جاءت الآية الأولى بكلمة: ﴿**اقرأ**﴾.

كانت تريد منه أن يصمد أمام كلّ العصور، تريده أن يكون عالماً ولكنه أيضاً مؤمناً، فقالت له: ﴿**اقرأ باسْمِ رَبِّكَ**﴾.

كيف تصر هذه الرسالة العظيمة على الدرس والقراءة والذي يحملها أميٌّ لا يقرأ ولا يكتب. من هنا تظهر معجزة القرآن الأبدية، فلو كانت رسالة وقتية لجاءت الرسالة بعلم خاص وبرسول قارئٍ ومتعلمٍ غير أميٍّ حتى يدرك كنه المعجزة القرآنية، وحتى هذه كانت إعجازاً وسراً لا يدركه إلاّ الله، حتى إن القوم لما سألوا الرسول الكريم ﷺ عن الروح مثلاً لم يزد على قوله تعالى: ﴿**وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾ [سورة الإسراء: ٨٥].

فهذا أيضاً سر إلهيٌّ لا يعلمه إلاّ الله، من هنا جاء التذكير الأبديُّ للبشرية على بشرية الرسول، في قوله تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَىَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ**﴾ [سورة الكهف: ١١٠].

وعليه، فإن كلمة اقرأ. تفتح آفاقاً أبدية الإعجاز وحتى يكون الإنسان في مدينة القرآن دائماً متفوقاً، عليه بالقراءة ليكون عبر العصور في موضع التفوق، الذي يليق بالتفوق القرآني، من ذلك اكتسبت المدينة القرآنية خصائص إنسانية بحتة جُلَّ اعتمادها على الإنسان ليس إلاّ، وعليه كانت المدينة القرآنية أنموذجاً حضارياً إنسانياً أبدياً لأنها خالية من المعجزات المادية وإن كانت معجزتها في الإنسان ذاته، فقط إذا ارتوى بمباديء وقيم وأخلاق القرآن الممزوجة بترياق العلم والإيمان.

والحق كانت التربية القرآنية قد أنجبت – عند تجربتها – أبطالاً في كلِّ المستويات – والعالم والعلماء يشهدون بذلك – وقد تفوقوا في كلِّ مجالات الحياة، في القيادة، والإدارة، والعلوم، في السلم والحرب، وآثارنا وآثارهم ما زالت باقية في كلِّ بقاع الأرض تشهد بذلك.

الأساس الأخلاقي في القيادة والإدارة

أما القادة الذين أنجبتهم التربية القرآنية والذين واصلوا المسيرة، بعد وفاة النبي ﷺ، فكانوا عند حسن الظن بهم، حيث ساروا على نفس النهج النبوي، في القيادة، والإدارة، والحكم، فكان رائدهم الأول الشورى في الحكم، والعدل في الحقوق والواجبات.. كان المنصب عندهم تكليفاً وليس تشريفاً.. حتى إن الصِّدِّيق أبابكر وهو الخليفة الإسلامي الأول بعد وفاة الرسول، كان يقول للقوم «قومه»: «**لقد وُلِّيتُ عليكم ولستُ بخيركم، فإن أحسنتُ فأعينوني، وإن أسأتُ فقوِّموني، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله.. فإن عصيتُ فلا**

طاعة لي عليكم».

هكذا كان الإنسان المسؤول وهو يمسك بدفة الأمور، كان يطلب منهم مواصلة الرقابة عليه، فإن هو أخلَّ بشروط القيادة والإدارة الحكيمة أحلَّ لهم إحلالَ واحد آخر محلَّه قادر أكثر من قدرته على القيادة ولكن هو بحق كان نعم القائد والمصلح في كلِّ مجالات الحياة، حتى وهو يقود الجيوش نحو المدن والأمصار التي تأتمر بإمرة الشرك والوثنية، كان حليماً على الضعفاء ولكن كان قوياً على الطغاة والمرتدين.. من بين وصاياه لجيوشه: «**لا تقتلوا امرأة، ولا صبيّاً، ولا كبيراً هرماً، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تخربوا عامراً، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه**».

هذه هي التعاليم التي درسها في المدرسة النبوية ووفق المنهج القرآني والتربية القرآنية، وبها ملك على الناس قلوبهم، وفتح البلاد وفق الوصايا العظيمة، والأخلاق الكريمة، فدخل الناس في دين الله طائعين مختارين دون إكراه أو تعسف ودائماً وفق الدستور القرآني العظيم: ﴿**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ**﴾ [سورة البقرة: ٢٥٦].

وهكذا استمرت المدينة القرآنية على نفس هذا النهج العظيم، وهو النهج الذي أرسى دعائمه الرسولُ الكريمُ ﷺ حين أسس دولته الفتية أو مدينته النموذج.. وفي هذا يكون الإنسان قد انتصر لأول مرة دون معجزة من السماء مباشرة.. فقد انتصر بالمباديء والقيم والأخلاق حتى أصبحت من الإنسان بمثابة الدم في العروق، أو هي مُزِجت بدمه فأصبحت أخلاقه أخلاقَ القرآن وسلوكه سلوكَ القرآن.. ومن هنا لم يعوِّل الرسول – باديء ذي بدء – على الأسلحة في اجتياز الخطوط الدفاعية والهجومية لأجهزة الشرك والإلحاد، ولا حتى أبوبكر، هو الآخر فعل ذلك، وجل اعتمادهما كان على الإنسان المتفوِّق بالعقل والمباديء والإيمان، الإنسان المملوء بالمباديء والأخلاق، ومثل ذلك فعل الناس في زمن عمر بن الخطاب، وبقي هذا الحال زمناً طويلاً وهم يملؤون أسماع الدنيا بالعدل والمساواة والقيم والحضارة المتكاملة مادياً وروحياً، وبذا يكون أولئك القادة والمصلحون هم النماذج الإنسانية النادرة التي سعى إليها القرآن في تربيته ودستوره، أوهم خلاصة التجربة الموسوية والعيسوية وتجربة سيدنا إبراهيم وإسماعيل ونوح وهود وصالح. إلخ. نعم هؤلاء هم الذين كان يقصدهم آدم من أول يوم هبط فيه على الأرض، وإن طال انتظاره وهو يرقب من السماء إلاّ أن الأمل الذي راوده قد جاء عبر هذا الإنسان النموذج، الذي قاد الإنسانية كلَّها نحو الأمن والأمان، ولكن – كما رأينا – كانت تجربة قاسية، وطويلة، إلاّ أنها مفيدة حققت لنا دستوراً أبدياً في مجال الانتصار الإنساني الذي لم يتحقق إلاّ بعد أن تحقق للإنسان

النموذج كلُّ وسائل هذا النصر، وذلك عبر الأجهزة الدفاعية الآتية:

أولاً: على مستوى الإنسان – الفرد – تحققت له نفس قوية محصنة بالمبادئ والقيم الروحية، أمنّت له جهاز مناعة روحياً في روحه، وجهازاً مادياً آخر، في جسمه، وحافزاً مادياً دنيوياً، وحافزاً روحياً أخروياً.

ثانياً: أما على المستوى المجتمع فقد تحقق له جهاز ردع قوي تمثل في العقوبات العادلة التي تطال كلَّ المفسدين دون استثناء.. وقد تحقق بذلك قوله تعالى: ﴿**وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يا أُولِي الأَلْبَابِ**﴾ [سورة البقرة: ١٧٩].

الأساس الاقتصادي

كما إن المجتمع القرآني قد تحقق فيه العدل الاجتماعي والاقتصادي ولم تتنازعه الأهواء والأمراض الاجتماعية أو أمراض الاقتصاد المادية ولا غرابة، فالدستور القرآني وضع نظريته الاقتصادية على الأسس الآتية: ﴿**وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقاً مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ [سورة البقرة: ١٨٨].

وكذلك في مجال الذهب والفضة يقول: ﴿**وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾ [سورة التوبة: ٣٤].

هذه الآيات ومثلها كانت بمثابة الدعامة القوية لاقتصاد قوي خالٍ من الضعف والخلل، وفوق كلِّ ذلك كان نظام الزكاة يمثل جهازاً احتياطياً يمنع الادخار غير المشروع، أو الإكتناز غير الضروري، ويحاط كلُّ ذلك بسياج أمني قوي يؤمّن الحماية للمدينة داخلياً وخارجياً.

هذه الأجهزة المادية والروحية سواء على مستوى الإنسان أو المجتمع هي التي كفلت الانتصار عبر هذه القرون الطويلة ويوم أن بدأ الإنسان، يفقد هذه الأجهزة، حصل الخلل في المسيرة الإنسانية، وانتقلت السلطة من الإنسان المدعوم بعقل متفوق وخلق قويم إلى إنسان وعقل متفوق مادياً، هو الآخر نقلها إلى الآلة الصماء أو إلى الوثن المادي، وهي التي حجبت الرحمة عن القلوب فازداد الفقير فقراً والغني غنىً حتى حلَّت الآلة تماماً، محلَّ الإنسان.. وحلَّ الذهب والفضة والنقود محلَّ السلعة والإنتاج.. هذا الأمر هو الذي رجع بالإنسان القهقري، ومن هذه أيضاً جاءت أمراض مدينة العصر الحديث.

حتى نحن ابتعدنا كثيراً عن مدينة القرآن ولحقنا بركب الحضارة الأوروبية – المسخ،

حضارة المادة وفقدان الروح، حضارة التفوق الإلكتروني، وارتداد الأخلاق والقيم، فلولا أمسكنا بالحسنيين؛ العقل وأدواته، والروح وأدواته لأصبحت المدينة التي نعيش فيها. خالية من الحروب والمفاسد والجرائم التي أصبحت ظاهرة العصر الحديث.

مدينة العصر إلى أين

والآن، إلى أين يسير إنسان العصر؟ هل حقيقة هو على العهد باقٍ أم ضل الطريق، طريق المدينة العظيم؟! ومن ثَمَّ كيف ضاع الطريق إلى المدينة – وهو ما وصل إليها إلاّ بشق الأنفس، كيف يستطيع الإنسان أن يعيد ما فُقِدَ منه؟ لا، بل كيف يعود قبل فوات الأوان؟.. أم حسب سيارته الفارهة، وبنايته الشاهقة.. وأولاده الكثيرين.. وأمواله التي لا تحصى، نعم أفحسب ذلك كله هو ما تهدف إليه المدينة الفاضلة؟!.

إن كان قد نال كلَّ ذلك في الدنيا.. فما نصيبه في الآخرة؟ ومن ثَمَّ لِمَ يعود في المساء وقد اعترته الحيرة والاكتئاب والقلق ولمّا لَمْ يَعُدْ إليه هدوء البال إلاّ بركعة أو ركعتين في المسجد أو غرفة نائية.. من غرف قصره المنيف؟ كيف تعود إليه سريرته وهدوؤه في العتمة والانزواء والتأمل.. وقد رآها. باديء ذي بدء، في المسرح أو الكابريه أو من شرفة القصر، أو خُيِّلَ له ذلك؟!.

إذاً، فما سرُّ هذا الكون، كلما اقترب المرء من الغنى إذا به إلى الفقر والفقراء يرنو، لا بل، ما سرُّ هذا الجسد الذي يأبى إلاّ أن تفارقه الرفاهية والترف. والإسراف في الأكل..؟ نعم لماذا يرفض ذلك؟ وهو ما حصل عليه إلاّ بعد لأي وجهد شديدين. فيتساءل: كيف تسير هذه الحياة؟ لا قمة ولا فوز ولا علوٍ ولا ارتفاع إلاّ ويليها انخفاض، وانكسار، وانحسار، ومن ثمَّ هل هو بخير في خضم هذه المدينة التعسة، التي جاءت على أنقاض المدينة الفاضلة؟ لا وألف لا.

كيف يكون ذلك، وما عرف الإنسان غير الأمان والسلام والاطمئنان مع العرب والمسلمين.. في الأندلس وفي أوروبا.. وفي الصين، في الهند وبلاد العرب أنفسهم.. يوم كانت المدينة – مدينة القرآن – تظلهم بظلها وتحميهم بحماها.

نعم، نحن لا ننكر عصر الطاقة، والضوء، والنور والإلكترون، والذرة، ولكن هي في غير مدينة القرآن ظلام وقتل وتخريب وتشريد وأشعة قاتلة، وغازات سامة، وشوارع غير آمنة، وبيوت خاوية من الأب والأم والولد.

كيف تطلبون السلام والأمن والوئام وأنتم في بيوت غير آمنة؟ الولد في الشارع يلهو ويلعب ولا رادع له ولا مسؤولية عليه.. والبنت هي كذلك.. والأم في المصنع من أول النهار إلى آخره والرجل غارق حتى أذنيه في روتين العمل والبيروقراطية وهو في آخر النهار يتسكع في بارات الحشيش والقمار والخمر.. ولا يرجع إلاّ في الهزيع الأخير من الليل.. وهكذا هو في أغلب الأحوال، ولا يصحو إلاّ على فوضى المدينة ولا ينام إلاّ هروباً من صخب المدينة.

والقتل الذي هو «مودة» العصر، أصبحت وسائله لا تحصى ولا تُعدُّ وتمارسه الدولة قبل الأفراد، فإذا كان قتل نفس واحدة في مدينة القرآن كمن قتل الناس جميعاً فكيف نُسوِّغ قتل شعوب بأكملها، وتشريد الملايين من الأطفال والشيوخ والنساء، والرجال، وتجويع مثلهم في الصحارى والقفار، ومن ثَمَّ نبحث عن فلاسفة يفلسفون هذه الحياة ومشاكلها الاقتصادية، وهي ولا شك بين أيدينا، فكلُّ الأموال تصرف على التدمير والتخريب.. فالبيت الذي نبنيه اليوم بأيدينا وعرقنا، تأتي طيارة واحدة فتقذف حممها لتهدم ما بنته أيدينا في عشرات السنين، ويقولون هذه هي المدينة العصرية، وهذه هي الحضارة وتقدمها.. التقدم أو الحضارة إن عنت من شيء فأول ما تعني تقويم الأخلاق والسلوك.. والوازع الديني والضمير الإنساني، ولا ينبغي أن نؤخذ بجريرة الأوائل الذين ظلموا وطغوا واستهتروا بالعلم وأهل العلم حتى ننزع الرحمة من المجتمع. وهل الرحمة في غير الدين والأخلاق؟ ومن ثَمَّ من الذي يرسي دعائم الأخلاق والضمير والوازع؟ أليس هو الدين الذي يأبى جهابذة العصر إلاّ أن يبعدوه عن مصيرنا ومصير حياتنا حتى آل حالنا إلى أسوأ حال، هل سمعنا يوماً أن المسلمين دمروا أو أهلكوا أو قتلوا أو خرّبوا في بنيان العالم، أو قتلوا العلماء أو شردوا الأطفال.. إن فعلها أحدهم فهو مارق خارج عن تعاليم الدين، وأما تجربتنا الأولى في المدينة القرآنية فتقول غير ذلك.. فقط هي تحتاج إلى أفراد جُبِلوا على الإيمان والتقوى وهي أساسات البناء الحضاري للمدينة العظيمة.. مدينة القرآن.

فكرة المدينة الحديثة وروادها

وهكذا يمكن القول: إن نموذج مدينة القرآن، هو النموذج المقبول من السماء، وأثبت قبوله في الأرض، ولا عذر بعد ذلك لأحد أن يقول إن التجربة المسيحية التي تمَّ تطبيقها على أسس دينية قد أجهضت كلَّ محاولات التقدم الحضاري – أو العلمي على الأقل – بحيث استدعى الانقلاب التاريخي عليها أو الانفصال المشهور بين الدين والدولة.. وعلمنة المدينة

أو الدولة علمنةً كاملة. إنّ هذا بحق تعسف لا ضرورة له. ومن ثَمَّ لو أراد الله للتجربة المسيحية أن تكون نموذجاً أبديّاً لبدأها سيدنا عيسى عليه السلام أولاً، يرعاها بيديه.. ويسهر عليها بعينيه.. إلاّ أن عيسى نفسه لم يطل به المقام ولم نسمع أنه أنشأ مدينة أو دولة متكاملة بكلِّ ما تعني كلمة المدينة من معنى.. ولكن يُفهم من فحوى رسالته أنه بشر بمثل هذا النموذج الأبدي، المقبول من الإنسان في الأرض.. ومن الخالق في السماء.

وعليه لا يمكن أن تحسب التغييرات الكاسحة في النظام الاجتماعي للإنسان والذي تَمَّ على أيدي العلمانيين، نعم لا يمكن أن يحسب ذلك من ضمن التطور المقبول – أو الطبيعي – من الله أو الإنسان.

ومن ثَمَّ كانت التجربة القرآنية، بمثابة الإجابة على مثل هذا التطرف الديني الذي هو بحق من فِعْل فاعل.. والتطرف في الحصول على التقدم دون النظر إلى الوراء، وما يحمل هذا الوراء من تراث أخلاقي ديني سماوي.

وعليه يمكن القول أيضاً: إنه لا الانقلاب على المسيحية والمسيح أمر طبيعي، ولا كذلك، الانقلاب على التجربة القرآنية هو من ضمن التغيير الإنساني المطلوب عبر نظرية التطور الطبيعي.. مهما كانت تحمل من أطروحات.

والقصور في الفكر الإنساني ظاهر للعيان في هذا الصدد، وهو أن الدين – أياً كان – يمثل عقبة كأداء أمام التقدم العلمي والتطور الحضاري، وهذا أدركته المدينة القرآنية في دستورها «القرآن» فكان العلم هو المطلوب الأول لدى إنسان مدينة القرآن، حين قالت: ﴿اقرأ﴾ وإن قالت المسيحية غير ذلك عن العلم فنقول شهادة حق: إن هذا من صنيع الإنسان ليس إلاّ.

والإنسان الذي بدأ يفكر بنموذج جديد، للمدينة الحديثة، لا شك في أنه سار في طريق متطرف – إذ يهمل تماماً الجانب السماوي في المعادلة، أو الديني، ومن يجرؤ على إنكار العلاقة الأزلية بين السماء والأرض؟! وحتى إن فعلها أحدهم نراه يرفع يديه إلى السماء حين يشعر بالضيق أو الألم أو أي شعور آخر، يخل بالتوازن الإنساني – الطبيعي لديه.

ولا نريد أن نستطرد في الحديث، ولكن نرى ضرورة المرور على آراء بعض المبشرين بنموذج المدينة الحديث.. وكانت الآراء تجتمع على تقويض الجزء المتعلق بالسماء، وكأنها دعوة للانفلات الأبدي من قوانين السماء، فأخذت التوجهات القرآنية بجريرة الرهبان

وأصحاب الكنائس الأوائل الذين وقفوا موقف العداء. من التقدم والعلم. فكأن الإنسان قد بدأ يعود القهقري، وهو ينكر الألوهية جملةً وتفصيلاً، وأسوأ ذلك على يد المبشر المشهور بالإلحاد داروين في نظريته الانتخاب الطبيعي.. وإنكار الألوهية تماماً، وهذا طبعاً بقصد عدم العودة بتاتاً لشيء اسمه الدين أو التدين. فظهرت الشيوعية والإلحاد على يدي ماركس وغيره ممن قالوا: الدين أفيون الشعوب. أما أبرز أولئك المبشرين بالرأسمالية الملحدة فهو نيتشة، الذي أعلن التحلُّل أيضاً من قوانين السماء فبدأ بالدعوة إلى الإنسان الأعلى، وعلى الأثر - وكأنه وصل إلى مبتغاه - أعلن موت الآلهة.. وإذا بالسماء ترقبه من بعيد فتصيبه في عقله، الذي جال به وصال، حتى ظن أنه وصل الثريا، فيُعلَن على الملأ جنون نيتشة.

هؤلاء ومثلهم كثير هم الذين بشروا بمدينة العصر الحديث.. المدينة الخاوية من أجهزة الأمن الروحية.. إنْ في الإنسان، أو في المجتمع، أو في العلاقة مع السماء.

وعلى الأثر بدأت الانهيارات المتتالية في الروح الإنساني، ويبدأ فرويد رائد التحليل النفسي بالتبشير بالتخلص من القيود ومن بينها قيود الجنس والغرائز الأخرى.

صحيح أن الإنسان تحرر من القيود الدينية التي فُرضت على العلم والعلماء، ولكن الصحيح أيضاً، فقد الإنسان معنى وجوده في الأرض لأنه ابتعد تماماً عن النموذج الحضاري المتكامل خُلُقاً وحضارة.

ومن ثَمَّ من يضمن لي وأنا أحرر الإنسان من القيود الدينية، ألاّ يقع الإنسان ثانية في القيود الوثنية أو عبادة الأشخاص؟ وهل الإنسان الأعلى الذي دعا إليه نيتشة يكمن في كلِّ نفس بشرية؟ ألم يخطر بباله الفروق الفردية الإنسانية. وهذه الفروق هي التي تدمر الهدف التحرري الذي يدعو إليه، إذ من هنا يبدأ التسلط وصدق الله تعالى حين قال: ﴿**وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ**﴾ [سورة الأنعام: ١٦٥].

وهذه الغريزة الإنسانية في التفرد والأنانية والتسلط لا تكبح إلاّ بالمعرفة الدينية.. ومن ثَمَّ يمكن أن نتساءل مرة أخرى عن هذا الإنسان الأعلى الذي روّج له هؤلاء المفكرون، هل كان في حسابهم - وهم مندفعون هذا الاندفاع - أن إنسانهم هذا عاجز، قاصر، وسيهوي يوماً ما فتخمد أنفاسه إلى أبد الآبدين؟ وإلاّ غاب عن بصرهم ظواهر القصور الإنساني الجلية في الموت.. والمرض.. والألم.. وأيضاً الحزن والجنون.. إلخ.

الحق، يمكن القول: إن النموذج الحديث لا يصلح للإنسان الحديث لأنه اهتم بالمادة

فطوّرها، وأحسن تطويرها، ولكن لم يطوِّر روح الإنسان وقِيَمَه وأخلاقه، وكأنه بذلك، بدأ يفقد أجهزة المناعة الأبدية في الجسم الإنساني وروحه، حتى أصبح لا يملك نفسه، بل امتلكته الأشياء المادية، فأصبح يدور في فلكها، فبدل أن يسخِّرها، سخرَّته من حيث لا يدري، فسار وراء الشهوة دون وازع أو ضمير.. ولهث وراء المال دون تمييز لوسائل الحصول عليه، مشروعة أم غير مشروعة.. هو بذلك اتّبع الشهوات الشيطانية فحسب نفسه إلى الإنسان الأعلى يصير.. أوليس ذلك من صنع الشيطان الذي أغْرى آدمَ بِمُلْكٍ لا يبلى؟! ولا شك أن كلَّ ذلك يجري في غياب الأجهزة الدفاعية للإنسان التي تحدث التوازن الأبدي في حياته – المادية والروحية.

التوازن الإنساني ـ الطبيعي

يوم أن خلق الله الإنسان أوجد فيه توازناً لا مثيل له، في جميع الصُّعد المادية، الجسمية، والروحية، ولكي يضمن المولى عزّ وجلّ بقاء هذه التوازنات على مدار السنين والأيام، أوجد لها أجهزة وقائية ذاتية – لصيانتها ذاتياً – منها أجهزة مادية.. وأخرى أجهزة روحية، تماماً هي كذلك في الكون، أيضاً.. وإن اختلفت التسميات.. ووجود التوازن أياً كان نوعه.. يستوجب أسساً لضبط هذا التوازن حتى ولو كان التوازن أزلياً لا مرحلياً.. فلكلِّ حالة مقتضياتها وهو قادر على أن يفي بكلِّ هذه المقتضيات أو نَنقُلْ: المعطيات والتفاصيل: فمثلاً الطاقة الكونية هي بمثابة الجهاز الروحي للكون، صحيح أن التوازن أزلي كما قلنا.. ولكن خلال الحركة والتطور – وهما سمتان رئيسيتان في الحياة والكون – لا بدّ من دفع الانحرافات ذاتياً إلى مواقعها الصحيحة.. بحيث يظل التوازن على حاله.. وإذا لم يصحح الانحراف مباشرةً فإن الحالة ولا شك تكون مرضية في أي جزء من أجزاء الكون، لا بل تكون مخالفةً للسنن.. خارقة للقوانين الطبيعية للحياة.

فمثلاً أي خلل في توازنات الكون قد يحدث جليداً أبديًّا أو حرارة هائلة لا تطاق.. أو زلازل أو براكين أو مياهاً غزيرةً وفيضانات غير طبيعية ولكن قبل أن نغوص في متاهات الكون وانحرافاته التي ربما لا تحصى.. فإننا نقول: نحن لسنا بصدد هذا الأمر الآن، وما نحن بصدده هو الانحرافات الإنسانية؛ المادية والروحية، وقد ذكرنا شيئاً من ذلك في أجهزة ضبط الشخصية القرآنية، وأما الآن فنأتي عليها بشيء من التفصيل، فلنبدأ أولاً بالبنية الإنسانية المادية.. ومدى التوازن الذي يحكمها، فهي أكثر حساسية وعاطفية من الكون..

حتى إن كلمة واحدة تقال من على بعد أمتار قادرة على تغيير البنية النفسية أو الجسمية للإنسان وكذا الروحية.. وهذا أمر لا جدال فيه وكلنا يلمسه خلال التعاملات اليومية وعليه فإن التوازنات الإنسانية أكثر تعقيداً وحساسية في كلٍّ الصُّعد، الجسمية، والنفسية، والعاطفية، والروحية، وعليه لا بدّ من أن ندرك هذه الخصوصية الإنسانية.. وامتيازه فيها على الكائنات الأخرى.

والحق، إن أهل العلم اليوم هم أقدر الناس على معرفة كنه هذه التوازنات الإنسانية وكذا أهل الطب.. وخاصة في أجهزة الجسم المادية كالخلايا والأنسجة أو الأجهزة والأعضاء.. حتى إن «الشيفرة» بكاملها اجتمعت على درجة حرارة أبدية للإنسانية وهي ٣٧ إنْ في الأبيض أو في الأسود. في الطويل أو في القصير، في الأجواء الحارة أو الباردة.

هذا ولا شك أن أوحى بشيء فإنما يوحي بمدى التوازن في البنية الإنسانية ككل،حتى إن أي خلل أو انحراف داخل الجسم المادي يبدأ المؤشر الحراري بالصعود تارة، والهبوط أخرى، والعملية التأثيرية هذه والمباشرة لا يجب أن تعني الخلل المادي دائماً، فقد يكون خللاً نفسيّاً – أو غير ذلك – تعمل أجهزة المناعة على مراقبته بالمؤشر الحراري، ومن ثَمَّ لاتخاذ الإجراءات اللازمة لذلك، وحتى ارتفاع درجة الحرارة هي بمثابة أول جهاز صحي من أجهزة المناعة الجسمية، حتى إن أحدهم قال: إن ارتفاع درجة الحرارة قد يؤدي في كثير من الأحيان إلى إجهاض التوالدات المتتالية للخلايا السرطانية، فما بالك بالانحرافات الصغيرة التي ربما لا نعلم سببها تماماً، وقبل ذلك حين تهاجم الفيروسات أو البكتريا جهاز المعدة أو الجهاز الهضمي بشكل عام، فتأخذ أجهزة المناعة في إرسال الإشارات والنجدات لمختلف الفروع والأقسام حتى تجتمع جميعها على أمر الهجوم المضاد والذي يأخذ تارة ارتفاع الحرارة وتارة بدء ظاهرة الإسهال أو غير ذلك. وهكذا في العين أيضاً – ولكن بشكل مختلف – يتبدّى في ظاهرة الدموع.

وكذا في ظاهرة العرق حيث تراقب الحركة المائية وتوازنها في الجسم من حيث كثرة الأملاح أو قلتها وارتفاع الضغط وانخفاضه وارتفاع الحرارة وانخفاضها أو في حالة القيام بمجهود عضليٍّ أو في حالة السكون والراحة، كلُّ ذلك يُرصَدُ من قِبَلِ جهاز المناعة المكتسب فيبدأ الإفرازات الجسمية بمقدار معيّن يستوحيه التوازن الجسمي وكذا النفسي.

وإن نسينا فلا ننسى جهاز المناعة الدموي الذي يهاجم الميكروبات ويشلُّ من حركتها حتى إن شوكة صغيرة تدخل الجسم تبدأ الإفرازات والتحوُّلات الجسمية تتوالى للإجهاز

على الجسم الغريب الذي دخل إليه. وكلٌ هذه الحالات والأجهزة تستخدم وسائل متشابهة تتراوح بين ارتفاع الحرارة.. وإفراز السوائل والمواد، ولكن يبقى الجهاز الحراري بمثابة الرادار الطبيعي للبنية الجسمية، الأمر الذي أدركه الطب فبدأ به عند كلٍ حالة علاج.

نحن حقيقة لا نعلم ما الذي يجري تماماً في حالة الارتفاع والانخفاض الحراري وإن كان الطب أوالعلم يفسر ذلك أنه بمثابة تحرك أجهزة المناعة المادية، لكن جل المعادلة بما فيها الإشارات الدماغية والعصبية بين الأجهزة ومراكز الاستجابة.. كلٌ ذلك لا نعلمه بالتمام والكمال، وكأنه يمكننا القول: إننا لا نعرف من ذلك إلاّ كما تعرف العين المجردة من الكون وفي أحسن الحالات حين تستخدم الأجهزة الميكروسكوبية المعقدة، وبذا لا يزيد علمنا عن وضع الإنسان أجهزة الفلك على كوكب القمر العظيم، ولكن قد تبقى علوماً مبذولة يعرفها الإنسان بالبديهة أو هي لبعض الناس.. الأمر الذي أبقى جذوراً للطب الشعبي في عصر الطب الحديث، لا بل قد ينافسه في علاج كثير من الأمراض، ومن منّا ينكر أن الإنسان في الماضي كان أحسن حالاً مما عليه اليوم ولم يكن زاده في الطب إلاّ الأعشاب. ومن الغذاء إلاّ الطبيعة، وكلٌ الأمراض المستعصية والخبيثة لم نسمع بها إلاّ في عصر العلم والطاقة والتطور حتى كانت ظاهرة الإيدز تتويجاً للانحرافات والأمراض الإنسانية.

الانحراف الأخلاقي في مدينة العصر

إن عكس ذلك من شيء فإنما يعكس مدى الانحراف البيئي والإنساني وكذا الأخلاقي، إذا علمنا أن هذه الظاهرة «الإيدز» هي بمثابة تدمير شامل لجهاز المناعة الإنساني، وما كلمة إيدز إلاّ مختصر للجملة الحقيقية وهي فقدان المناعة المكتسب.. والأنكى من ذلك أن هذا الأمر مرتبط بفاحشة أو عمل ليس شاذاً في شريعة السماء فحسب بل وفي شريعة الأرض.. لكن الأعظم من ذلك أن الذي قال مثل هذا القول وخرَّج مثل هذا التخريج أو استنتج مثل هذا الاستنتاج، قطعاً ليس مسلماً، وعليه جاءت ملاحظتنا هذه، وبالمناسبة علينا أن نرجع قليلاً إلى الوراء، إلى قوم مارسوا هذا الشذوذ فأرسل عليهم (مطراً) جنوداً من السماء تحمل حجارة من سجيل جعلت عالي الأرض سافلها، وهذا لا من بنات أفكارنا ولا من تخريج أحد بل هو من مستند القرآن العظيم، في قوله تعالى: ﴿**فأخَذَتْهُمُ الصَّيْحةُ مُشْرِقِينَ، فَجَعَلْنَا عاليهَا سَافِلَهَا وأمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سجِّيلٍ**﴾ والقصة معروفة في الآيات ٧٣ – ٧٤ من سورة الحجر، وعليه فإن الأمر جدٌ خطير بحيث استأهل تدخل السماء بمثل هذا المدد

العظيم، واليوم وقد استشرى الشذوذ حتى أصبح له قانون يرعاه فكيف يكون العقاب إذاً؟!.

والحق، إن هذا بمثابة الانهيار الأخلاقي للإنسانية أو هو فقدان الجهاز الروحي – لفعاليته، في عصر الطاقة والتقدم، فكان العقاب من جنس العمل، ففي فقدان جهاز المناعة الروحي، لا بد من فقدان جهاز المناعة المكتسب، وهي تذكرة من المولى عزّ وجلّ للبشرية أنه ما يبرح قادراً على العقاب الدنيوي وإن كان ليس مشابهاً لعقاب قوم لوط إلاّ أنه بنفس الشدة والقوة ومن جنس التقدم البشري، على الأقل في مجال الطب وزراعة الأعضاء، حتى بات قاب قوسين من خلق ذبابة أو شيء من ذبابة، ولكن حاش لله أن يدحض آية الحج رقم ٧٣.

مشكلة الإنسان في عصر الطاقة، أنه يعالج الأمور من قناة واحدة، وهي القناة المادية البحتة.. وهو يفعل ذلك يرى نفسه وجهاً لوجه أمام القناة الأخرى – الروحية، إذ كيف ينسى أنه مخلوق من مادة وروح، من شرٍّ وخير، من ظلمٍ وعدل، وظلام ونور، من شدَّة ولين.. وأن عليه أن يوازن بينها عن طريق جهاز المناعة الروحي.. نسي أن فيه نفخة من روح الله تمثل جهاز الرقابة الروحي على كيان الإنسان بكامله.. وإن حاول تعطيل هذا الجهاز فإنه لا محالة في الهاوية ساقط.

ومجمل القول: هو بحاجة إلى تنشيط عضلة الروح بالتدليك والتدريب أو العودة إلى الضمير والأخلاق وإلى الدين، فإن لم يفعل فإن كلَّ محاولاته إلى معرفة لغز فقدان جهاز المناعة المكتسب لفاعليته، نعم، كلُّ محاولاته تضيع هباءً.

الانحراف الاقتصادي

هذه واحدة وإن كانت في سلَّم الأولويات للخروج من هذا المأزق الحضاري الذي هو تحصيل حاصل لمجمل الانهيارات الأخرى في أجهزة المناعة، ومن بينها فقدان المناعة – المكتسب – في الجهاز الاقتصادي الدولي.. وإلاّ فما مغزى الصراخ العصري من مساويء المال واستعمالات المال، والتضخم ومساويء التضخم، وكأن العالم على شفا هاوية المجاعة، أو قاب قوسين أو أدنى منها، هل حقيقة أن الأمر لا يبدو إلا كونه أمراً اقتصادياً بحتاً لا يمتُّ للدين بصلة، وأن الأمر لا يحتاج إلى جهاز مناعة روحي كما نقول.. أو أن الأمر هو في خضم الانهيار الروحي للإنسانية، تعالوا نتدارس هذه الآية القرآنية ﴿**وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾ [سورة التوبة: ٣٤].

هذه الآية العظيمة، وضعت الضوابط الأبدية للنقود بحيث لا تخرج وظيفتها عن مهمة

التبادل للسلع فإن خرجت عن هذه الوظيفة أصبح ديدن الناس وشغلهم الشاغل اكتناز الأموال والتعامل بالنقود «تجارة وسمسرة وربا»، فكأن المقصود من الآية، أن لا نتخذها غايتنا في الحياة لأنها تدمر الحياة، كما نرى في حياتنا العصرية، بحيث أُهمل الإنتاج في كثير من البلاد، وفي كثير من القطاعات الصناعية والزراعية وركن كثير من الناس إلى الفوائد الربوية التي لا تسمن ولا تغني من جوع.

لأن المجتمع يحتاج إلى سلع زراعية وصناعية وخدمات، وهذه لا تتمُّ إلاّ بالعمل وحركة رأس المال، وإلاّ ما قال رسول الله ﷺ، ما معناه حركوا أموالكم بالعمل لئلا تأكلها الزكاة.. أصبحنا نحن الآن بالعكس لا ندفع زكاتها.. ولا نقوم بتشغيلها مما أثر على المجتمعات اقتصادياً، وأظهر فيها أمراض المال ومساوئه في التضخم والغلاء، إلى آخر تلك المساويء التي لا مجال لذكرها، وزاد في الطين بلة والنار أواراً التعامل السيء بين الناس، وذلك بأكل أموال الناس بالباطل بالرشوة والواسطة والمحسوبية والسمسرة وغيرها من مظاهر تجارة العصر الحديث حتى أصبح الناس يلهثون وراء المال ولا شيء غير المال.. ووُضعَ الإنتاج على الرف وإن حصل ذلك فهو عن طريق أيد صغيرة أو قليلة تحتكر الإنتاج لأنها تسعى إلى الربح الوفير – أكل الناس أم جاعوا – حتى أدَّى بها آخر الأمر إلى إلقاء السلع في البحر أو في المحيطات أو في المستنقعات لأن هدفها النقود والذهب وليس السلعة ذاتها.. لأن هدفها المال وليس الإنسان.. أليس هذا في صميم المشكلة الروحية التي بدأ إنسان العصر يفتقر إليها بحيث تردعه عن ذلك كلِّه، وصدق فينا قوله تعالى: ﴿**الَّذينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّما الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا**﴾ [سورة البقرة: ٢٧٥].

ثم أصبحنا لا ندري الحلال من الحرام.. واختلطت علينا الأمور في غمرة الصراع المتواصل على المال واكتناز الأموال.. حتى الصفقات التجارية والمالية والوصول إلى المناصب والحاجات.. دخلها المال فأفسدها وهو ما حذّرنا منه المولى عزّ وجلّ في قوله: ﴿**وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقاً مِنْ أَمْوالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ [سورة البقرة: ١٨٨].

والغريب في الأمر أن هذه المساويء ظاهرة للعيان في مجتمعاتنا العصرية وتقاسي منها الأمم والشعوب، ولا تدري السر الذي يكمن وراء ذلك برغم القفزات التطورية في كلِّ

مجالات الحياة، إلاّ أنّها ترى نفسها تصطدم بمساويء الاقتصاد والمال.. الحق، هي تعاني من ضعف في جهاز المناعة الروحي في المجال الاقتصادي أيضاً وإلاّ لما كان هذا التحذير من المولى عزّ وجلّ والذي ركز فيه على الذهب والفضة، والذي جاء قبل أربعة عشر قرناً خلت.

الانحراف الاجتماعي

وفي المجال الاجتماعي نفس الشيء يعاني الإنسان نفس المعاناة في المجالات المذكورة آنفاً خاصة بعد أن استشرى المخدر والأفيون والمسكرات والخمور.. إلخ.

وهي قضية عالجها الدستور القرآني وحذّر منها في حال انتشارها بحيث تصبح مرضاً عضالاً يقضي على أساسات الحضارة المادية وكذا الروحية.

ولمّا وصل الأمر إلى حافة الخطر العظيم أدركت الشعوب متأخرةً هذا المرض العضال فوضعت له العلاجات المختلفة بعد فوات الأوان وجنّدت له الأموال والأجهزة المختلفة العلمية والثقافية والأمنية للحدِّ منه إلاّ أنها باءت بالفشل الذريع، والغريب في الأمر أن هذه القضايا العصرية التي تشغل إنسان العصر كانت قد ذكرت في القرآن قبل أربعة عشر قرناً وبنفس المعنى التحذيري الذي ينذر البشرية بشر مستطير إن هي لم تتدارك ذلك الأمر.

قال تعالى: ﴿**يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا**﴾ وقال أيضا: ﴿**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجتنبوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ [سورة المائدة: ٩٠].

وقال: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُمْ مُنتَهُونَ**﴾ [سورة المائدة: ٩١].

في الآيات المذكورة، كانت البداية التشكيك في جدوى الخمر، أو هي تحذير أولي من اثامها ومن ثَمَّ انتقل، إلى أنها رجس من عمل الشيطان، والمولى عزّ وجلّ – وهو الخالق للبشرية – أدرى بما يصلح لها، وما دامت رجساً، إذاً لها مخاطر كبيرة على التوازن الحياتي للبشرية، لذا قال: إنها تخلق العداوات بين الناس.. واليوم أصبحت الخمرة والمسكرات بشكل عام بمثابة جرثومة أو آفة العصر والتي تعيث في البشرية فساداً وإفساداً فقد أفقدت الإنسان توازنه وهو ما قاله المولى عزّ وجلّ في الآية: ﴿**ولا تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وأَنتُمْ سُكارى حتَّى تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ**﴾.

وقد قيل ذلك قبل أربعة عشر قرناً، وها هي اليوم تنكشف مخاطرها لا في مجتمعات

المسلمين بل وفي مجتمعات الغرب والشرق.. وعليه أفسدت علاقة الإنسان مع ذاته ومع أسرته ومع مجتمعه وأخيراً مع خالقه.. ألا يمكن بعد ذلك القول: إنها مرض الإيدز الاجتماعي الذي أفقد المجتمعات توازنها الحقيقي ومن قبلُ فقد الإنسان جهاز المناعة الاقتصادي، واليوم هو في أتعس أحواله، وهو يفقد جهاز المناعة المكتسب، وكلُّ ذلك كان بسبب فقدان الإنسان، جهاز المناعة الروحي – الأخلاقي.. أو هو بمعنى آخر فقدان التوزان الإنساني في علاقات ثلاث:

الأولى: علاقة الإنسان مع نفسه والتي أشار إلى أهميتها القرآن في الآية: ﴿**وفي أَنْفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ**﴾ [سورة الذريات: ٢١].

الثانية: علاقة الإنسان مع الأرض والكون والتي أشار إلى أهميتها القرآن في الآية: ﴿**وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ**﴾ [سورة الذاريات: ٢٠].

والثالثة: علاقة الإنسان مع السماء التي أشار إلى أهميتها القرآن في الآية: ﴿**وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ**﴾ [سورة الذاريات: ٢٢].

ولما تجاهل الإنسان المعاصر هذه العلاقات الأزلية كان لا بدّ من تلك العقوبات.

مرحلة الدفع الذاتي في العقاب

تلك عقوبات ذاتية لأسباب أيضاً ذاتية، هي من السنن الإلهية في العقاب، وإن كانت تتسم بالنوعية المتفردة فلأن العصر يتسم بذلك، فهي إذا جزاءٌ من جنس العمل، إن صح التعبير في هذا السياق، ومن الغريب في نوعيتها أنها حدثت ولم يدر الإنسان بعدُ لماذا هي..؟ ومن أين..؟ وكيف تنتهي..؟ لذا ينكر الإنسان أنها بفعل السماء.. ولكنها فعل خفي يمس السنن، لذا أصبحت علمية الأسباب والمعطيات فهي إذا علميةُ النتائج، ومن ثم إن كانت كذلك.. فمن وضع العلوم وما تنطوي عليه من سحر ورهبة، أليس هو الذي بشر بكلمة ﴿**اقرأ**﴾ أولاً؟!!.

هذه عقوبات خافية وما زالت غير مفهومة لدى إنسان العصر، ولكن هناك سنة أخرى في العقوبات لا تحدث إلاّ في غياب الإدارة الأمينة المسؤولة، مسؤوليةً حضارية شاملة، وهذه تخضع لنظام الدفع الذاتي، أو الدفع المتوازن، وقد تجلّى في قوله تعالى: ﴿**وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى العَالَمِينَ**﴾ [سورة البقرة: ٢٥١].

علمنا من قبل أن النفس الإنسانية عزيزة ولا يمكن أن توكل مهمة إيقاع العقاب عليها إلاّ لقيادة أمينة مؤمنة، ولمّا غابت هذه القيادة الحضارية فإن الإنسانية لا بدّ من أن تقع تحت طائلة هذا القانون.. وقد حصل من قبلُ بزوغ شمس المدينة القرآنية في دولتي الفرس والروم وها هو اليوم يتكرر بظهور دولتين متوازنتين من حيث القوة والعدد بحيث تدفع واحدة منهما الأخرى لئلا يسود الأرض فسادٌ كبيرٌ، وخلال هذا الصراع الذاتي بين القوى المتوازنة.. إنْ في الدول الصغيرة أو الكبيرة أو حتى في داخل المجتمع والأسرة.. نعم، من خلال هذا الصراع يحدث العقاب على الإنسان في العصر الحديث.. وبرغم ذلك لا يقع تحت طائلة الاجتثاث من الأرض كما حصل مع قوم نوح.. وعاد.. إلخ. لأن النموذج القرانيَّ موجود ويمكن الرجوع إليه ما دام الوحي انقطع عن الأرض وانتهى عصر الأنبياء والرسل، وفي حالة عدم العودة تبقى المجتمعات تحت طائلة هذه العقوبات وغيرها من العقوبات الأخرى التي تحدثها الطبيعة ذاتها؛ بالزلازل، والكوارث، والتلوث، والفيضان، أو بالحروب فيذيقهم الله – بعضهم بأسَ بعض كما في قوله تعالى: ﴿**وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ**﴾ [سورة الأنعام: ٦٥].

العودة إلى نموذج المدينة القرآني

من هنا نرى، أن الوقت ملائم لعودة القيادة للنموذج القرآني العصري، الذي يعتمد الإنسان وسيلةَ التقدم وليس الآلة، فالآلة لا تبعث على الرحمة والحب والشفقة والتسامح والعدل، وكلُّ هذه وسائل ناجعة في علاج الإنسان من أمراضه النفسية المزمنة.. نقول ذلك ونحن متأكدون أنه سيأتي يوم على الإنسان المريض وهو يعالج بالكمبيوتر وما يضع من وصفات طبية وفق معطيات ومعلومات معينة يستقبلها من المريض.. ومثل ذلك في كلّ وسائل الحياة الأخرى.. هذا الأمر ولا شك يبعث على الأسى.. حين نعلم أن ابتسامة الطبيب الإيجابية بعد الكشف الطبي، قد يكون لها من التأثير أكثر بكثير مما للأدوية من تأثير، وبهذا تنتهي مهمة الطبيب الإنسانية فيتحول تلقائياً لخدمة الآلة، لا الإنسان، فالإنسان عواطف، ووجدان، وقلب، وروح، وكلُّها ربما لا نرى من ظواهرها بالعين المجردة إلاّ الشيء القليل، ومثلنا ساعتها كمن يقول: أين الله؟!! فالله لا يدرك بالعين المجردة ولكن بالشعور والإحساس والعواطف.. إلخ.

وكذا المشاعر الإنسانية لا يمكن إرضاءها إلاّ بالحب والعدل والتسامح والخُلُقُ الكريم. من هنا اكتسبت المدينة القرآنية خصوصية نادرة لأنها منوطة أكثر من غيرها بمشاعر الإنسان

وحياته وسعادته، فهي تؤهله تربوياً وروحياً ومادياً حسب معطيات كونية معينة ونتائج أخروية عليه الوصول إليها.

وقبل أن نطوي هذه الصفحات علينا أن نجيب على بعض التساؤلات التي قد تثار من خلال هذه الدراسة.. من بين هذه التساؤلات أننا ركزنا على المدينة القرآنية كنموذج أول للإنسان وقد حدثت نماذج مثل مدينة سليمان أو دولته ودولة الفرس والروم.. الخ.

أمّا الأولى فقد تكلمنا عنها في مكان غير هذا المكان من الدراسة، وأما المدن الأخرى فهي ليست ما نقصده وإنما نقصد هذا النموذج المتكامل الذي يحرص على الإنسان في نفس الوقت الذي يوقع به العقاب بشكل يوازن بين الاتجاهات المتضادة بمثالية نادرة يمكن أن نستشفّها من الآية: ﴿**وإنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ للصَّابِرين**﴾ [سورة النحل: ١٢٦].

وكذا في قوله تعالى: ﴿**وَلَكُمْ في القِصاصِ حَيَاةٌ يَا أولي الألْبَاب**﴾.

ففي الأولى عقاب ولكن فيه رحمة وصبر قبل العقاب من أجل أجر الآخرة لا الدنيا.

وكذا في الآية الثانية، قصر على العقاب حين يكون لا مناص منه. لأن في ذلك حياة للمجتمع.

من هنا تكتسب المدينة القرآنية خصوصيات محددة لا توجد في أي نموذج آخر كما هو مثلاً في نموذج العصر الحديث الذي بدأ انتصاراته الدنيوية على أنقاض الأهداف الأخروية، فكان العمل الأول الذي عُمل هو فصل الدين عن الدولة، فسقط من أجل العلم، ونقول مرة أخرى ونتساءل: ومن قال: إن العلم هو صناعة الإنسان وحده؟! لو كان كذلك ما كان المبدأ الأول في دستور المدينة القرآنية كلمة ﴿**اقرأ**﴾ من هذا نرى أن الذي دفع الدستور القرآني والنموذج القرآني في وقته الملائم يعلم أن الوقت قد حان أيضاً، للتوجه العلمي للإنسان وبشكل لم يسبق له مثيل، وبشكل يظهر التوازن الأبدي بين اتجاهات العلم والدين في المسيرة الأنسانية عبر مدينة القرآن.

تبقى قضية أخرى وهي مسألة الجندي والجندية في النموذج القرآني والتي بحثناها بشيء من التفصيل ولاحظنا أنها خصوصية قرآنية لم يتعرض لها نظام أو مدينة عبر العصور بشكل متكامل كما هي في القرآن.

ونحن نقول ذلك لا ننكر الحروب القديمة والجيوش التي قاتلت في دولتي الفرس

والروم، وغيرها من الجيوش الأخرى.. ولكن كلُّها لم توافق السماء على توجهاتها لأنها لم تكن في سبيل الله، وعليه كانت مسألة الجندية في المدينة القرآنية قد جاءت متأخرة ولكنها استفادت من كلِّ التجارب الإنسانية عبر العصور، ومن ثَمَّ كان تشريع الجندية والجهاد في سبيل الله كما عرضها القرآن في مدينته تتسم بالأخلاقية والتسامح والرحمة بحيث قال في آخر المطاف. ﴿**وإن جَنَحُواْ للسَّلْمِ فاجْنَحْ لَهَا**﴾ [سورة الأنفال: ٦١].

وكأن الجهاد كما نرى، هو للضرورة وللدفاع عن أمن المدينة وتوجهاتها الإنسانية، كيف لا، وهي «المدينة القرآنية» ترنو إلى تحرير الإنسان من الأغلال والقيود، ونشر العدل والتسامح والمباديء والقيم والمُثُل بين ساكنيها ليس غير..

وتبقى كلمة نقولها، عن المجتمعات العربية والإسلامية اليوم، التي أبتعدت عن التوجهات القرآنية، حتى تلحق بركب الحضارة الغربية، أو النموذج الغربي، وكلُّ ذلك تحت وطأة التفوق الغربي العلمي، فأصبحت الظاهرة الأولى سابقةً خطيرةً لدى الإنسان عبر العصور.. تلك الظاهرة التي انقسمت فيها الدولة عن الدين.. وكان في ذلك تحلُّلُ المدينة من القيم والأخلاق والمباديء.

كان نتيجة هذه المدينة العصرية – التي تضج بالأمراض الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، كلُّ ذلك في غياب الأيديولوجية الأخلاقية للدولة، فأصبحت المدينة أو الدولة وكأنها تعمل لحساب الإنسان الذي يحكم في الأرض ليس إلاّ، الإنسان الذي فقد السيطرة على الآلة حتى أصبحت تملكه وتتحكم في حياته وصحته ومرضه وفي أكله وشربه ونومه وزواجه وكلِّ عاداته.. ونحن من جانبنا تلقَّفنا ذلك من أفواه الغرب الاستعماري دون إبداء الأسباب حتى أصبحنا عالةً على الفكر الغربي الاستعماري فامْتَلَكْنا – بفكره وبرأيه – سياسيّاً واقتصاديّاً واجتماعيّاً فصدّر إلينا المخدرات، والأشرطة الجنسية، والخمور، والطيارات،والسيارات الفارهة، حتى الأكل بأنواعه المختلفة أكلناه من المعلبات والصفائح الممزوجة بالسوائل المشبوهة والمواد الكيماوية التي أثقلت كاهلنا فأحدثت الضغط في أجسامنا وأحوالنا والسكر والربو، والإيدز، والجلطات الدموية المختلفة، والسرطانات المتنوعة.

كما أحدثت الخلل في اقتصادنا والشلل في إنتاجنا وتركنا الأرض والمزارع والاستثمار فخسرنا مواردنا المالية والغذائية، وأصبحنا كسالى معتمدين على الفوائد الربوية وغير المشروعة والخدمات والأسهم والسندات، وكلُّ ذلك أحدث أمراضاً في الاقتصاد والاجتماع والسياسة، وحصدنا من ذلك التعسف، والجور، والظلم، والفساد، وكلُّها

أمراض طارئة علينا. وعلى كلِّ المجتمعات الإنسانية.

ويعود إنسان العصر إلى حيرته.. وإلى شروده.. ويقف مشدوهاً أمام أشيائه.. أمام بيته الفاخر وسيارته الفارهة، يتساءل: وماذا بعد؟؟ فينزوي إلى غرفة من غرف البيت نائية -- مرة ثانية، وثالثة يتأمل، ويتأمل، أهذه هي الجنة التي يتحدثون عنها؟! أهذه محتوياتها أو مُثُلُها؟* ولكن، فإن كانت هذه كذلك.. فَلِمَ يعتورني بعد ذلك النقصان والاشمئزاز والتشاؤم؟!! لا بدّ من أن شيئاً ما في جسمي يريد أن يقول أو يصرخ بكلمة لا، لا أدري ما هذا الشيء، ولربما هو الروح الذي يكثرون الحديث حوله، فيحتج عليَّ لأنني لم أعره انتباهاً.. فإن لم يكن هو.. فمن أين تأتي هذه المعارضة لنفسي وقلبي وذاتي، وكياني؟؟.

أعترف أن أهل بيتي قد ابتهجوا وملأتهم الغبطة والسرور بهذه الأموال والأراضي والحدائق والسيارات والمياه التي تجري من تحت القصر، ولكن نفسي ليست راضية كلَّ الرضى، بل أحسها أحياناً، تطير عن هذا الزخم المادي فأحسب نفسي كمن يصير في مهب الريح، وأنا راغب في ذلك لعلي أهرب من هذا الهاجس الذي يساورني في ليلي ونهاري ويقلقني في راحتي ومنامي وسكوني وحركتي، هل هو الجنون؟ أم هل هو العقل؟ أم هل هو الروح؟ أم هل هو القلب؟ وكيف لي أن أفهم أسرار هذه الأجهزة وهي تتعامل مع الغيبيات والأرواح وما وراء الحسيات؟!!.

من هذا أُحاول إقناع نفسي بالرضى فلا تقنع، فأقول وأصرخ بملء فمي: ماذا تريدين أكثر من ذلك؟! وقد تعبت من أجل ذلك تعباً أخذ مني كلَّ عمري.. وكلَّ ذرة في كياني، حتى أصبحت وافر المال والجاه والسلطان، فامتلكت سيارة لي وأخرى لزوجتي وثالثة لولدي ورابعة وخامسة.. وكذا وسائل الراحة امتلكتها كلَّها من تلفزيون وفيديو وثلاجة، إلخ؟ ماذا بعد ذلك؟!.

لا أحد يملك ما أملك ويحوز ما أحوز، أليست هذه سعادة العصر؟؟ أم تريدين أن تقلبي الفرح إلى ترح هكذا أنت مع كلِّ الناس أم تقصدين واحداً بعينه، فيجيب بعد هذه الهواجس – لعلها بداية العودة والانضواء تحت ظلال المدينة العظيمة التي نحلم جميعاً بالانضواء في ظلالها.. بالعودة إلى نموذج عصري لمدينة القرآن.